
ساحر الكتب
محمد صادق
إذْمَا
تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني
ЗЕНИТ-Е
رواية

محمد صادق

إذما

تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني

رواية

إذْمَـا

(تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني)

محمد صادق

■ الطبعة الأولى .... يناير 2020

تصميم الغلاف: كريم آدم

صورة الغلاف: خلود خليفة

التصحيح اللغوي: محمد عبد الغفار

رقم الإيداع: 3398/ 2020

الترقيم الدولي: 6 - 098 - 824 - 977 - 978



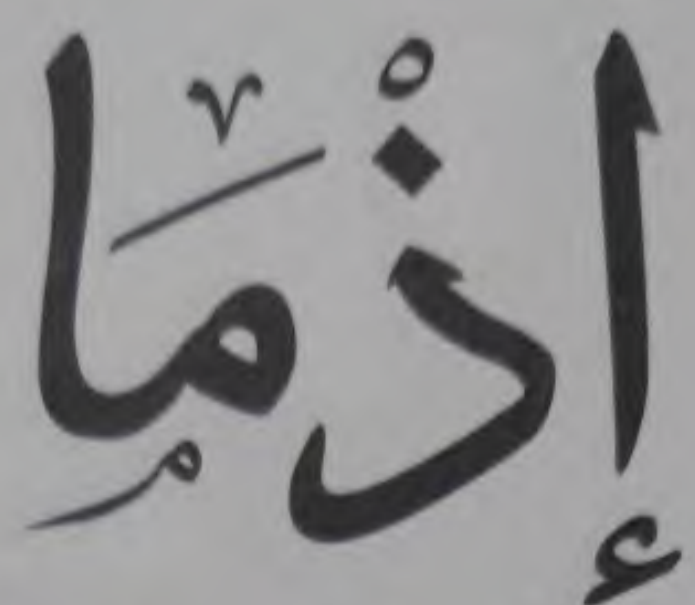
186 عمارات امتداد رمسيس 2 - أمام أرض المعارض - مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing





تسعة كنوز وتسعة أوامر حتى تجدني

رواية

محمد صادق

الرواق للنشر والتوزيع



توضيح هام

لمعرفتي التامة بعشق القراء الأعزاء ربط أحداث رواياتي بالواقع.. وجب التنويه..

جميع أحداث الرواية وشخصياتها من وحي خيال المؤلِّف..

وأي تشابه بينها وبين الواقع هو من قبيل الصدفة لا أكثر.



إلى كـل من يـؤلـم بكلمة «دائمًا»..

كلنـا مؤقَّتـون..

فلماذا تَعِد بالـدوام؟



استهلال

الخطوة الأولى للتعافي من علاقة سامّة، كما تقول الكتب: أن تشغل عقلك دائمًا..

لهذا، وقفت أنتظر في ترقُّب شديد وجهاز التلفاز الحديث يحارب كي يعرض ذلك الفيديو القديم الذي أجبرناه أن يعرضه..

-... إحم.. كل سنة وانت طيب يا «عيسى».

عندما سمعتُ صوتَه دبت قشعريرة في جسدي كله.. نظرت إليه وهو يقف محتلًّا شاشة تلفازي الكبيرة.. خلفه مكتبي القديم في غرفتي القديمة.. ضيَّقت عينيَّ في حيرة..

من هذا؟

سمعتُ صوت ضحكة «سيرا»، اكتشفت أنني ما زلتُ أقف في منتصف شقتي شبه الخالية من الأثاث.. منذ قليل وقفت حتى أضع الـ«USB» في التلفاز، وفتحت الفيديو، وظللت واقفًا في تلك الحالة.. التفتُّ لها بطرف عيني، لأجدها جلست بجواري تنظر إلى الشاشة مثلي في حنان، وابتسامتها الرائعة تملأ وجهها، نظرت لي وقالت مشيرة إلى الشاشة:

- كنت أهبل قوي وانت عندك ١٨ سنة يا «شواف».. حد يلبس بيجامة وهو بيصوَّر مشروع عظيم زي ده؟

ابتسمتُ في مجاملة، داخلي مشاعر متضاربة غير مفهومة، لاحظَتْ «سيرا» البيجامة كعادة النساء في الاهتمام بالتفاصيل، في حين لم أبالِ أنا بما كنت

أرتدي في ذلك الوقت قدْر اهتمامي بكل تفاصيل الغرفة التي أعادتني إلى فترة لم أعُد أذكرها..

تفاصيل وجهه.. أو وجهي في ما مضى..

لم أعُد أعرف..

التفتُّ للشاشة ثانيةً في رهبة خفيفة، أصبح لدى الشاشة بما تعرضه ثقل نفسي ما..

نظرت إليه أتأمله.. تلك العين اللامعة بالشغف.. الجسد الرفيع لمراهق في الثامنة عشرة، الشعر المتناثر في رأسه، وعيناه البنيتان الشغوفتان.. الحماس المفرط والضحكة الواسعة.. كان ينظر إلى الكاميرا، لكنني شعرت أنه ينظر لي.. لأول مرة في حياتي أدرك معنى كلمة أصدقائي عندما يخبرونني أن لديَّ عينًا تخترق أرواحهم.. شعرت أن عينيه تنظران إلى روحي وليس إليَّ.. شعور غريب وغير مريح بالمرة.. أشار إلى الشاشة بمعنى أن أنتظره لحظات.. ضغط على شيء ما لتبدأ نغمات أغنية بصوت خافت.. ما إن بدأت حتى شعرت برجفة حنين..

سمعت صوت «سيرا» وهي تعتدل بحماس وتقول بحنين شعرت به يحتوي كل ما حولي:

-يااااااه.. يابن اللذينة.. أنا بعشق الأغنية دي.. أنا اللي سمّعتهالك أصلًا..

أومأت برأسي أن نعم..

"Do you still remember how we used to be?

Feeling together, believing whatever."

بدأ يتمايل على الأغنية مغمض العينين في صفاءٍ أفتقده..

متى كنت رائق البال لهذا الحد؟

قال بابتسامة طيبة وهو يبدو عليه الإحراج:

- ازيك يا «عيسى».. يا رب تكون فاكرني..

أومأت برأسي في بطء أنْ لا.. أنا لا أذكره بالفعل.. لكنه ضحك ضحكته الطيبة في الفيديو وأكمل:

- أنا يا سيدي «عيسى عبد الآخر العسال»، الشهير بـ«عيسى الشواف»، أبو ١٨ سنة.. أكيد انت عارفني بس لازم أعرَّف نفسي في الفيديو زي ما انت عارف.. لو كل اللي أنا مخططله اتنفِّذ زي ما أنا عاوز.. فانت المفروض تكون دلوقتي نفس الـ«عيسى عبد الآخر العسال»، وعندك ٣٦ سنة.. قولي إن أنا صح والنبي وإن كل اللي عملته ده مشي زي ما أنا عاوز..

"Viva forever, I'll be waiting..
Everlasting, like the sun."

أومأت برأسي أنْ نعم من دون أن أردَّ، شعرت بإحساس غريب أنني أرغب في الرد كأنه سيسمعني، ليقول ما جعلني أتراجع خطوة للوراء في هدوء وأبتسم:

- أنا مستنيك ترد.. شفت أعبط من كده؟

وضحك ضحكة عالية رائقة لم أضحكها منذ زمن، لتصاحبها ضحكة «سيرا» المستمتعة بجواري.. ضيَّق «عيسى» عينيه ونظر حوله لحظات، ثم نظر للسقف كعادتي عندما أحاول تجميع أفكاري، صفق بيديه فجأة وقال بحماس:

- افتكرت..

وأكمل هو جاعلًا ابتسامتي تتسع:

- أهلًا بيك في مشروعنا العبقري.. أول فيلم تسجيلي فيه المعنى الحقيقي لكلمة «كبسولة زمن»..

وتنحنح ليكمل ما لا أذكره على الإطلاق:

- أنا كنت قاعد بذاكر لامتحانات الثانوية العامة.. أنا وانت مواليد

أبريل.. برج التور.. أنا وانت اللي عمّك صلاح جاهين قال فينا: «اقلع غماك يا تور وارفض تلفّ»..

قالها وضحك، ضيّقت عينيّ في محاولة للتذكر، كنت في ذلك الوقت أعشق صلاح جاهين وأحفظ رباعياته، لكني الآن لا أذكر حتى بقية هذه الرباعية، أكمل هو بعد ضحكته القصيرة:

- طول فترة المدرسة ماكناش بنعرف نحتفل بعيد ميلادنا عشان كل الناس بتمتحن ساعتها.. وطبعًا انت عارف إن أنا وانت كل ما بنيجي نذاكر بتجيلنا أفكار عبقرية عشان مانذاكرش.. بس المرة دي الفكرة كانت تحفة لدرجة لا تُقاوَم..

كيف لا أتذكر كل هذا؟ لا أذكر حرفًا واحدًا.. كل ما تستطيع ذاكرتي الإتيان به هو أنني نفّذت هذا المشروع، أتذكر خطوطًا عريضة الآن، لكن تفاصيل كلامه وما فعلته بالضبط، لا أتذكره..

للحظة انتابني خوف من أن أكون فاقدًا للذاكرة من دون أن أدري، أكمل هو وهو يحرّك يده كثيرًا كأنها تساعده في شرح ما يقول:

- الدنيا حوالينا بقت صعبة قوي يا «عيسى».. إحنا في سنة ٢٠٠٢.. كل حاجة بتتغير بالراحة وبسرعة في نفس الوقت.. كله بيشتم فينا وبيقول علينا جيل تافه وبتاع نت وموبايلات.. واننا عيال فاقدة من بدري.. المهم يعني عشان أول فيديو دا مقدمة بس..

كنت أملُّ من نفسي عندما أستطرد في الكلام حتى الآن، جميع مَن تبقى حولي يملون من طريقتي في الكلام، أشعر أنها مسؤولية أن أشرح كل شيء قبل أن أقول ما أريد أن أقوله، ونحن الآن في زمنٍ لا بد أن تقول فيه كل شيء في ثوانٍ حتى لا تفقد تركيز مَن تُحدّثه، قبل أن يشرد منك لينظر للإعجاب أو التعليق على «فيسبوك» أو «إنستجرام» أو يغوص في رسالة «واتساب» صادمة..

بدأت أشعر أنني أنتمي إلى ذلك الذي يتحدَّث أمامي، بدأت أرى أننا نتشابه قليلًا، اتسعت ابتسامتي وهو يكمل بحماس:

- أنا ببص حواليا مابشوفش غير عيون ميتة.. أبويا وأمي.. أهل صحابي.. قرايبي وأصحابي اللي عدُّوا التلاتين سنة.. تحس إن فيه وباء بيجيلهم يخليهم كلهم ينسوا همَّ مين فجأة.. بيتحولوا لنفس الشخص اللي ماشي على رجليه بس ميت من جواه.. ترس في مكنة..

وصمت لحظاتٍ ليبتلع ريقه، لأكتشف أنني أبتسم ابتسامة حنونًا وأنا شارد في كلامه، ليكمل هو مقربًا وجهه من الكاميرا:

- كل ما تسألهم وتقولهم: «إيه اللي حصلكم؟»، يردوا يقولوا: «إحنا كبرنا».. بيسموه نضج.. وأنا مش شايفه غير موت.. مابيحلموش.. مابيعرفوش يتخيلوا.. وعندهم كلمة واحدة بتستفزني طحن: «لما تكبر هتفهم».. «الدنيا هتعلِّمك كتير».. بيقولوها بسلبية ورضا غريب كأنهم مبسوطين باللي هُمَّ فيه لدرجة بتستفزني وتحرق دمي..

ضربت كلماتُه جدرانَ قلبي فاهتز كياني كله..

من هذا؟

أكمل بغضب وقد انفعل في الكلام فأصبح صادقًا لا يهاب الكاميرا:

- خلوني مش عاوز أكبر ولا عاوز أفهم..

وأكمل بإصرار غريب وهو ينظر إليَّ مباشرة بصرامة:

- أنا عاوز أبقى أنا بس..

"Promises made, every memory saved..

As reflections in my mind..

Hasta mañana, always be mine".

صمت لحظاتٍ فظهرت كلمات الأغنية واضحة، ابتسم هو كأنما ينسى انفعاله اللحظي، قال بهدوء:

ـ الفكرة ببساطة إني هاسجّل فيديوهات في عيد ميلادي الـ١٨.. عشان تشوفها انت كمان ١٨ سنة.. أنا ماعرفش انت هتبقى عامل ازاي.. لسّه بتحلم زيي؟ جواك حلم إنك تبقى أعظم مخرج في مصر ولا لأ؟ بس لو نسيت.. لو سرحت وبقيت زيهم.. لو سمحت لنفسك تدفن كل حاجة جواك وعشت في الساقية بتاعتهم.. يبقى غصب عنك هتنفّذ الوصايا اللي سايبهالك.. مش مهم عندي متجوز ولا مخلف.. أبوك وأمك عايشين ولا ميتين.. مديون ولا متنيّل.. غصب عنك هتسيب كل حاجة في حياتك دلوقتي وتنفذ كل أمر هاقولهولك.. تسجل فيديوهات وانت بترد عليَّ..

شعرت بالغضب من وقاحته وقلة خبرته، مَن هذا الطفل الساذج الذي يريد أن يأمرني من دون أن يفهم أي شيء عمَّا يدور في حياتي؟ أكمل كلامه:

ـ هيبقى أول فيلم تسجيلي حقيقي بيني وبينك وبين صحابنا.. والناس كلها هتعشق الفكرة وهتلمسهم جدًّا.. ويبقى أول فيلم أبطاله حقيقيين وبيكلّموا الماضي بتاعهم..

صمت فجأة ونظر إليَّ لحظات، ثم ابتسم ابتسامة متعجبة وهو يقول:

ـ مش عارف ليه استغربت إن أنا هابقى ماضيك في زمنك.. حاسس إن الفكرة مش منطقية لأني عايش دلوقتي.. وانت لسَّه ماجتش..

ثم هرش رأسه وقد شرد تمامًا في خاطرته الجديدة، وقال متأملًا:

ـ هو المفروض إنك جاي بعدي بـ١٨ سنة.. يعني أنا أكبر منك مش انت اللي أكبر مني..

اتسعت ابتسامتي وسمعت ضحكة من «سيرا»، قالت بضحكة:

ـ مش قلتلك بتسرح من زمان؟ أديك سرحت من نفسك وانت بتتكلم أهه..

ضحكتُ من جملتها، في حين صفَّق هو بيديه ثانيةً كأنما يعود إلى الواقع، وقال معيدًا نفسه للحماس:

ـ ماعنديش مشكلة إنك تبيع كل حاجة عندك.. بس يتعمل..

عاد بظهره على مقعد مكتبي القديم، ابتسم وهو يكمل:

ـ لو انت مانسيتش.. لو بقيت اللي أنا عاوز أكونه.. يبقى أنا مش هاحتاج أقنعك.. لأنك هتبقى مستني عيد ميلادك عشان تبدأ تنفّذ كل حاجة لوحدك.. الفكرة دي هتبقى لسّه فارقة معاك.. ولسّه حاسس بكل حاجة جوايا..

ومال ناحية الكاميرا، ليقول بإصرارٍ غادَرَ ثنايا عينيَّ البائستين منذ فترة ولم يعُد:

ـ ويا ريت ماتكونش مُتّ زيهم يا «عيسى»..

انتهى الفيديو، ليسود الصمت..

نظرت إلى «سيرا» لأجدها، طول هذا الوقت، كانت تصوِّرني بهاتفها المحمول.. بنظرتها الدامعة وابتسامتها الحنون قالت:

ـ انت بتدمع..

شعرت بسخونة السائل على خدي، كيف تدمع عيني على هذا الفيديو الطفولي وأنا لم أبكِ طلاقي بعدُ؟

نفس عميق..

زفرة طويلة تُخرج كل ما تبقّى..

قالت «سيرا» وهي تقف مصوِّبة كاميرا هاتفها المحمول تجاهي:

ـ كل سنة وانت طيب يا «شواف».

ابتسمت في حيرة وكل شيء داخلي قد تبعثر، مالت عليَّ وطبعت قبلة حانية على وجنتي، وتركتني وانصرفت من دون كلمة واحدة..

تاركة إياي واقفًا في منتصف الصالة..

"Live forever, for the moment..

Ever searching for the one".

وحدي تمامًا..

* * *



رحلة التحضير



(١)

أول الكنوز

اقلع غماك يا تور وارفض تلف
اكسر تروس الساقية واشتم وتف
قال بس خطوة كمان.. وخطوة كمان
يا اوصل نهاية السكة يا البير تجف
عجبي!

صلاح جاهين

نظرت إلى أصدقائي وهم يرقصون في تلقائية جعلتني أبتسم مجاملًا..

أحب أصدقائي.. أو مَن تبقّى منهم..

لم أكُن في حالة تسمح بالخروج إطلاقًا بعد مقابلة «سيرا» ورؤية ذلك الفيديو..

لكنهم أجبروني..

كلّمتني «آن»، بعد مغادرة «سيرا»، لتنتزعني من ارتباكي.. طلبت مني أن أرتدي ملابسي لأنها تنتظرني تحت بيتي.. شعرت بثقل الأمر على قلبي.. أخبرتها أنني متعب ومرهق وأن الوقت بعد منتصف الليل.. ولم يمر على طلاقي أكثر من ثلاثة أشهر.. كل الحجج الممكنة لتجعلني أجلس مكتئبًا وحدي.. لتخبرني «آن» جملة مقتضبة حاسمة كعادتها:

- انزل حالًا، وإلا هاشتمك شتيمة توجعك في رجولتك..

لأقول بأدب إن أمامي خمس دقائق فقط..

الخطوة الثانية للتعافي من علاقة سامّة، كما تقول الكتب: أن تحيط نفسك بأصدقاء يعطونك طاقة إيجابية.. لا تستسلم للوحدة أبدًا..

فتحت «النيش» الذي أصبح دولاب ملابسي الآن.. ارتديت ملابسي مبتسمًا.. أشعر بجزء من الشماتة بهذا التحول لكائن «النيش» الأسطوري.. من قمة مجده طول ثلاثة أعوام غير مسموح لي بلمسه.. لمجرد مكان أضع فيه ملابسي وغياراتي الداخلية.. حاول أهلي إقناعي كثيرًا أن أشتري غرفة نوم جديدة.. لكن تلك المتعة الخبيثة في مخالفة القواعد واستخدام «النيش» جعلتني أؤجّل الأمر قليلًا..

هبطت مسرعًا فوجدتها تنتظرني في عربتها الصغيرة.. نظرت إليها بشعرها القصير وملامحها القمحية وملابسها الغريبة.. تحب «آن» أن ترتدي ملابس واسعة كثيرة الألوان كنوعٍ من أنواع التمرُّد البسيط.. أنا حرَّة ولن أرتدي ما يعجب الناس.. ابتسمت «آن» ابتسامتها الواسعة التي أحبها عندما رأتني وخرجت من عربتها ومشت تجاهي بخطوات سريعة:

ـ كل سنة وانت طيب..

واحتضنتني..

ربتُّ على ظهرها في حنان.. منذ طلاقي وأصبحتُ أُطيل في العناق قليلًا عن المعتاد مع أهلي وأصدقائي، الذكور منهم والإناث.. تفصيلة لم يلاحظوها، لكنني أدركها.. بل لولا أنني لا أبوح بمشاعري لقلت لهم جميعًا ألَّا يتركوا حضني أبدًا..

قالت «آن» بحماس وهي تنظر إليَّ:

ـ مجهزينلك حاجة حلوة تفصلك شوية أنا والعيال..

تنحنحت كعادتي عندما أرتبك، ثم تذكرت «عيسى» في الفيديو وهو يتنحنح فشعرت بضيق لا أدري مصدره، ابتسمت نصف ابتسامة:

ـ أنا بس مش عاوز أبقى بايخ.. هيبقوا كلهم عاوزيني مبسوط وأنا مش هاعرف.. أنا الدنيا لسَّه سخيفة عندي..

كان هذا أقصى ما أستطيع أن أبوح به، يتبخَّر معجم كلماتي عند وصف ما أشعر به.. حاجز لا أدري متى بنيته داخلي.. حتى لو أردت أن أحكي، شيءٌ ما داخلي يمنعني بشدة..

أومأت «آن» برأسها في تفهُّم وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ ما تقلقش.. كلنا مقدرين إنك عيل ممحون في نفسك كده..

ضربتها في كتفها وأنا أضحك رغمًا عني، تصغرني ستة أعوام كاملة لكننا أزلنا كل الحواجز من أول يوم.. تلاقت روحانا بسهولة وبساطة..

كم مرّ من الوقت ونحن صديقان؟ قرابة عشرة أعوام.. كيف مرت بتلك السرعة؟ لا أدري..

لماذا لا أذكر أي شيء عن تفاصيل الماضي؟

جذبتني من ذراعي لتركب العربة، ابتسمت وأنا أرى يدها الصغيرة تجذبني.. في بعض الأحيان لا يحتاج المرء إلى أكثر من جذبة بسيطة تجبره أن يتحرك.. تجبره أن يترك ثبات الاكتئاب المريح..

جذبة بسيطة من شخص يحبك من قلبه.. لا يهم في أي اتجاه.. قد تجعل الحياة كلها مختلفة..

قلت لها في حيرة:

ـ فيه حاجة غريبة حصلت معايا النهارده...

أشارت بيدها أن اصمت، ابتسمت في حنان وقالت:

ـ ماتقولش حاجة.. بعد ما ننبسط وتفصل شوية هتحكيلي كل حاجة..

وغمزت بعينيها ضاحكة ضحكتها الواسعة التي تشرق حياة بأكملها:

ـ النهارده عيد ميلادك.. اليوم اللي اتولد فيه صديق عمري كله.. ما تفكرش غير في إنك تستمتع..

أومأت برأسي إيجابًا، مقررًا أن أخرس، كنت سأخبرها أن الاستمتاع شيء صعب أن أشعر به بكل تراكمات الألم داخلي، وأنني بعيدٌ عنه تمامًا يا صديقة، لكني صمتُّ شاردًا في الفيديو الذي رأيتُه منذ قليل، في حين أوصلت «آن» هاتفها بكاسيت العربة، لتبدأ أغانينا المفضلة تدوي في سماعات العربة..

وأكتشف، في نهاية الطريق، أنهم ذهبوا بي إلى أحد «البارات»..

أحب أصدقائي..

لكنهم لا يفهمونني على الإطلاق..



* * *

استقبلوني بترحاب مُبالَغ فيه..

ترحاب مَن تحاول أن تواسيه.. أن تُشعره أنه مهم وأن هناك من يُحبه..
كنت أطلق عليه «ترحاب الشفقة» بل أستخدمه كثيرًا؛ لذلك ابتسمت ابتسامة صفراء وأنا أرى الناحية الأخرى لأول مرة.. كم يبدو ترحاب الشفقة مكشوفًا وسخيفًا لدرجة لا تُصدَّق..

كانوا أربعة: «ياسين» و«هيثم» و«شمس» و«دُرِّيَّة».. صرخوا عاليًا ليتغلَّبوا على ضوضاء الموسيقى.. انهالت عليَّ القبلات والأحضان والتهنئات.. كلهم يصرخون في أذني ويخبرونني كم يحبونني..

لأبتسم في مجاملة..

نفس عميق..

وزفير طويل يضع القناع على وجهي في هدوء..

اليوم هو عيد ميلادي.. لأضع القناع الاجتماعي اللطيف الذي يحبه الجميع..

أضحك بشدة وأسخر من كل شيء معهم.. أسخر من نفسي ومنهم.. كثيرٌ من «كفَّك» و«يخرب بيت عقلك»، على كل دعابة قبيحة ألقيها.. أعشق المزاح الخارج.. أشعر بواقعيته وصدقه في كل المواقف..

لم يمر أكثر من نصف ساعة.. وبدؤوا يدورون في دنياهم.. أشعر دائمًا أن هناك بطارية من الاهتمام سريعة النفاد داخل الجميع.. يفكرون فيك وقتًا ما، طال أو قصر.. ثم تنتهي البطارية فيعودون إلى حياتهم رغمًا عنهم.. باحثين عمَّن يشحنهم باهتمامه..

تأملتهم بهدوء وابتسامة حزينة، مَن يبحث عن فتاة ومَن تبحث عن رجل.. حاولوا جذبي للرقص، لكني قاومتُ بشدة.. دائمًا في الحفلات أكتفي بهز رأسي مستمتعًا بالموسيقى التي أحبها فقط.. ألححت عليهم أن يذهبوا ليرقصوا قليلًا فذهبوا..

وجلست أراقب الجميع كعادتي..

دائمًا ما أراقب.. أتوه في أفكاري وشرودي.. أحاول أن أعثر على شعور واحد داخل خوائي النفسي..

فأقف وحدي.. بينما يرقص الجميع..

"lola Lolita.."

دعهم يرقصوا..

وابقَ ثابتًا تشاهدهم في صمت.. وتحمل وحدتك المميتة في قلبك..

كلهم يرتدون أفضل أخلاقهم.. يرسمون الكحل على مبادئهم.. يبتسمون بأمان زائف.. ويرقصون ضاحكين في مسابقة محمومة على مَن يرقص أفضل..

لن يفهمك أحد..

لن يشعر بك سوى مَن توقَّف عن الرقص مثلك.. وفتح عينيه ليشاهدهم.. فرأى كل ذلك الزيف الذي يدورون في فلكه..

ابتسمتُ بصدق من خلف قناعي الاجتماعي، وأنا أرى «آن» تقترب منِّي عائدة من حلبة الرقص، تبتسم ابتسامتها الطيبة، نظرت إليها متسائلًا فقالت صائحة:

- قلت آجي أونِّسك شوية.. كمان انت عارف اني صاحبة مرض وضهري بيوجعني.

أشرت إلى حلبة الرقص وقلت بصدق:

- يا عم روح وارقص وانبسط.. مش يمكن تقابلي حب حياتك وهو بيرقص زي ذكر العنكبوت في موسم التزاوج؟

قالت وهي تسند ظهرها إلى البار جانبي:

- وأخشّ معاه في قصة حب وأسلمله وأتعلق بيه.. يتحكم فيا ويحط شروطه فاتفشخ أنا في أفكاري وتنطلق؟

وأشارت بيدها في علامة الرفض:

- لا شكرًا مش عاوزة..

فيما مضى عندما كنت متزوجًا كنت أحاربها، كنت أقول لها إن النهاية ليست بهذا السوء أبدًا، لكنّي الآن أفهم كل كلمة من ألمها بنفسي مريرة، ولا أستطيع أن أجد داخلي ما يقنعها أن هناك نهايات سعيدة؛ لذا أومأت برأسي وقلتُ بابتسامة ساخرة:

- يا بنتي انتِ ٣٠ سنة.. خشي دنيا بس واعملي اللي انتِ عاوزاه بعد كده.. يرضيكِ يقولوا عاشت وماتت بالسوليفانة؟

رفعت حاجبيها في ثقة وقالت:

- ما بقتش سوليفانة خلاص.. بقت حجر أثري صعب اختراقه..

ضحكتُ بشدة لتضحك معي ونحن ننظر معًا إلى كل من يرقص.. أتى جزء من الأغنية أحبه.. أشرت لـ«آن» رافعًا إصبعي أن تسمع الموسيقى معي.. فانتبهت وهي تبتسم.. حتى أتت اللحظة وقلناها معًا:

- “DROP IT”.

ضحكنا بشدة وأخذنا نهز رأسينا معًا على أنغام الأغنية الراقصة..

أشارت إليَّ بيدها، فتبعتها حتى خرجنا من المكان وابتعدنا عن صخبه قليلًا، لتسألني بنظرة فضولية أحفظها:

- احكيلي بقى.. إيه اللي حصل النهارده..

ابتسمتُ في امتنان لأنها لم تنسَ.. ولأنها جعلتني أتذكَّر بداية هذا اليوم الغريب..

وحكيت لها كل شيء..

* * *

بدأ كل شيء الساعة الثانية عشرة منتصف الليل بالضبط..

منذ أن رحلت طليقتي وغرفة نومي غارقة في الظلام..

تعلمت أن في قاموس إجراءات الطلاق لا شيء يهم إلا الأثاث.. يبدأ الزواج بأساطير تُقال عن أصل العائلات وعن كرم الأخلاق.. وينتهي بشجار على أثاث أصبح قديمًا، شهد على قصة حب يموت بين اثنين يقتلان بعضهما بالتدريج..

أخبرتني «أسماء»، طليقتي، مرارًا، وهي في حضني، عن كراهيتها لكل شيء حولها.. منذ وفاة والدها وهي طفلة صغيرة لا تشعر بالأمان أبدًا، اختفاء عامود الاطمئنان في البيت يجعله جحيمًا، رأت الوجه الأكثر قبحًا في الدنيا.. وعندما شعرت بدرجة ما من الاطمئنان مع رجل، تزوجته دون تفكير، زوجها الأول لم يعرف ما تعانيه منذ الصغر، بالتالي حصلت على لقب مطلقة بعد أربع سنوات... كانت تقول إنها عانت في ماضيها بما فيه الكفاية.. ولا تريد أن يؤثر على مستقبلها معي.. لأنها وجدت الأمل في حياة بلا ألم...

لتحصل على لقب مطلقة للمرة الثانية من زوجها الثاني - أنا - بعد ثلاث سنوات فقط...

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١ - «هناك دائمًا ماضٍ قاسٍ لا بُدَّ أن تنقذهم منه.. ماضٍ أثَّر في نفسياتهم وجعل حياتهم جحيمًا.. وأتيت أنت لتصالحهم على العالم أجمع.. الإنسان الطبيعي لا يعتمد على شخص واحد ينقذه، لكن ينقذ نفسه بنفسه.. لكن الشريك في العلاقة المسمومة يعتمد عليك أنت»..

حذَّرتني كثيرًا فكنت أبتسم بلا مبالاة؛ لأني معها وأعشقها.. وأراها مختلفة عن كل ما زرعه الماضي فيها..

كنت أرى نقطة النور المختبئة داخل ظلام روحها..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢ - «يعرفون كيف يُظهرون نورهم لك أنت فقط.. لتشعر أنك مميز حينما تراه.. يعرفون كيف يكونون لك بكل تفاصيلك.. يُظهرون لك أفضل ما فيهم حتى تُدمنهم.. حتى يغرق عقلك في إفراز الدوبامين من عشقهم

لك.. ثم كأي تاجر ماهر للمخدرات يسحبون نورهم تدريجيًا.. ويبتسمون في هدوء: إذا أردت المزيد.. دعنا نتحكّم أكثر»..

تثاءبتُ في ملل وأنا أحدّق في مكان النجفة المأخوذة من غرفة النوم التي أصبحت خالية.. اعتدت النوم على مرتبة مريحة على الأرض.. أشعر بسلام نفسي وصفاء ذهني غير طبيعي..

صوت رنة هاتفي المميزة لتطبيق «واتساب» أخرجتني من شرودي، أمسكت الهاتف في سلوك إدماني لكل أبناء جيلي والأجيال القادمة لأرى مَن يحدِّثني..

كانت رسالة من رقم غريب:

- كل سنة وانت طيب.. فاكرني؟

بحركة لا إرادية تحركت عيناي لأرى تاريخ اليوم، الثاني والعشرين من أبريل، عيد ميلادي السادس والثلاثين.. هناك لحظة ما تتوقف فيها عن عد سنوات عمرك؛ لأن الأرقام لم تعُد لها قيمة أو معنى، مجرد رقم يخبرك أن وقت النهاية قد اقترب..

تركت هاتفي على المرتبة ونظرت في اللا شيء..

أخذتْ كل عائلة ما يخصها... لأستقر في غرفة نوم خالية أراحتني نفسيًا بفراغها..

نظرت بتكاسُل إلى هاتفي المحمول.. فتحت تلك الرسالة من الرقم الغريب.. نظرت إلى الرسالة قليلًا وكتبت في ملل:

- وانت طيب يا باشا.. بس مين معايا؟

وصلت رسالتي وقُرئت بسرعة، ولم تمر ثوانٍ إلا ووجدت هاتفي يضرب بصوت مزعج وسط صمت الحياة حولي.. مَن هذا المزعج؟ نظرت حولي متأففًا ثم رددتُ فقط كي أُسكت صوت رنته العالي..

«ألو.»

تعجبت من الصوت النسائي في الهاتف، تنحنحت وأنا أعتدل على المرتبة:

- أيوه.. مين معايا؟

صوت ضحكتها العالي اخترق أذني، قالت بعد ضحكة طويلة:

- انت مش عارفني؟

أكره من يدخلون في تلك المهاترات على الهاتف.. يخبّرونك نصف ساعة ثم يخبرونك بالسر العظيم البديهي الذي كان لا بُدَّ أن يبدؤوا به أصلًا.. هويتهم!

- أنا مابحبش الشغل ده.. مين معايا؟

قالت تقلد «إفّيه» لفيلمٍ ما لا أعرفه:

- انت مالك بقيت «أجريسف» ليه كده؟

أكره أيضًا المزاح الخاص بذكر دعابة من فيلم.. أحب أن أخترع دعاباتي بنفسي.. لكن مَن يستهلكون «إفيه» قيل في فيلم ما على موقف ما، لم أفهم عبقرية هذا المزاح أبدًا.. زفرت في ضيق وهممت بإغلاق المكالمة، لكني سمعت صوتها يقول مسرعًا:

- إيه يا «شواف»؟ ما لك؟

لتسري قشعريرة خفيفة في جسدي..

لم أسمع ذلك الاسم منذ زمن بعيد، رغمًا عني صعدت ابتسامة لم تزُر فمي منذ زمن، عقدت حاجبيَّ في حيرة، قلت بنبرة أقل حدة:

- مين معايا؟

لتضحك هي ضحكة مرحة معدية، جعلت ابتسامتي تتسع وهي تقول:

- أنا «سيرا».. عملك الاسود في الدنيا.

لترتجف كل شعرة في وتفلت مني ضحكة بدت غريبة وصداها يتردد في بيتي الكئيب.

* * *

- انت شكلك اتغيّر قوي يا «شواف»..

قالتها «سيرا» لي وهي تعقد حاجبيها كأنها تكتشف الذرة، ثم تقترب مني في خطوات ملهوفة وهي تبتسم وتحتضنني..

تعجبتُ للحظة من ذلك الاشتياق في عناقها، شعرت بشيء من الدفء يتسلل إلى قلبي، أغمضت عينيّ وأنا أرد الحضن بضغطة أشد..

أفتقدها حقًا..

طال العناق وسكون المكان حولي يُريح قلبي قليلًا، وجدت شعورًا غريبًا بالسكينة يتملّكني..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة ؟

٣ - «تخرج منها غير قابلٍ لتصديق أي لحظة أمان تأتيك في الطريق.. بل أسوأ.. تخاف أن تصدق فتتألم ثانية»..

لذا، خشيتُ أن أطيل في العناق حتى لا أعتاد راحته، ربتُّ على ظهرها وابتعدت مبتسمًا في سخرية، هززتُ كتفي بلا معنى وأنا لا أجد الرد المناسب، لكنها صمتت تنتظر ردي، فتنحنحت وقلت ردًّا على جملتها:

- إحنا ماشوفناش بعض من ١٨ سنة.. كلنا لها بقى..

بالطبع اختلف شكلي منذ ثمانية عشر عامًا.. هي أيضًا تغيَّرت كثيرًا.. كانت تلك الفتاة الرفيعة التائهة.. الآن أصبحت سيدة لا يبدو عليها عمرها على الإطلاق.. هي تبدو في منتصف العشرينات بجمالها الهادئ وعينيها البنيتين الواسعتين وشعرها البني الذي أصبح أشقر الآن.. في حين أبدو بوجهي الكئيب الأسمر وجسدي الرفيع كمن يودع الأربعينات بسلام..

ضحكت «سيرا» على الرغم من سخافة الجملة.. منذ محادثتنا الهاتفية وأنا لا أصدِّق أنها كلمتني.. «سيرا البنداري».. صديقة الدراسة رغم أنها تصغرني بعامين، التي تحوَّلت إلى ممثلة شابة رائعة لها جمهور ومعجبون في كل البلاد.. انتابني شعور غريب وأنا واقف أمامها.. أشعر أنها محاطة بهالة «الكيان المشهور».. أشعر أنني أحمق فجأة ولا أدري لماذا..

مرة، وسط شجار سخيف مع طليقتي، كانت تصرخ كعادتها، رأيت «سيرا» في مشهد تمثيلي مبدع، فتركتُ الشجار وابتسمتُ لزوجتي وقتها وقلت مشيرًا إلى التلفاز ببلاهة:

- «أسماء».. «سيرا» دي كانت صاحبتي في المدرسة.

لتنفجر «أسماء» صارخةً بصوت أعلى؛ لأنني تركت عريضة الصراخ وشردت في شيء آخر..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٤ - «يمنعك الشريك من الاهتمام بأي شيء آخر في وقت الغضب.. لا بُدَّ أن تدعهم يغمرونك بغضبهم وألمهم وثورتهم حتى يهدؤوا.. لا بُدَّ أن تشعر بما بداخلهم لأنهم لا يطيقون أن يشعروا به وحدهم.. لا بُدَّ أن يكسروك به حتى ينتهي ما بداخلهم؛ لذا وقت الشجار والغضب.. لا تتنفَّس.. أنت مسخَّر لهم فقط».

فكيف أجرؤ؟

- رحت فين؟

قالتها «سيرا» بصوتها المرح، تضيِّق عينيها وهي تضحك بأسلوب ساحر.. حدقت فيها لحظات في عدم فهم، ثم أدركت أنني شردت أمامها فقلت بسرعة:

- سرحت بس شوية..

رفعت عينيها إلى السماء في ملل وقالت ضاحكة:

- لسَّه فيك العادة المهببة دي؟

حقًّا؟ فاجأني ردها فسألت مبتسمًا:

- هو أنا كنت بعمل كدا فعلًا؟

قالت وهي تنظر حولها وقد بدأت تتململ من الوقوف:

- يا ساتر.. دا انت كنت عيل بيض.. تبص للواحد في عينه وترد عليه وأصلًا سرحان في مليون حاجة تانية..

وأشارت إلى صدرها الرائع في فخر وقالت:

ـ بس أنا الوحيدة اللي عرفت أقفشك.. دايمًا باسألك وأنا باحكي عشان ما تسرحش مني.. المهم...

وأشارت حولها متسائلة:

ـ هتقعّدني فين؟

تلفتُّ حولي لحظات، كنا واقفين في مكاني المفضل، اكتشافي أنا و«آن» منذ أعوام، عندما سألتني في الهاتف: «أين نلتقي؟»، ارتبكتُ قليلًا.. لم أدرِ أي مكان يليق بالخروج مع ممثلة معروفة.. قلت مكاني المفضل الذي أجلس فيه يوميًا من دون تفكير.. محطة وقود تطل على مول شهير في التجمع الخامس..

ابتسمتُ قائلًا وأنا أتوقع إحباطها:

ـ هو هنا بس..

تلفتت حولها وقالت بحيرة:

ـ هنا فين؟

أشرت إلى المكان بطرقه الواسعة المريحة.. المول البعيد يبدو في الأفق.. الصمت والهدوء ونسمة الهواء الباردة والأرض الواسعة أمامنا.. بقعة هادئة وسط ضوضاء الحياة بأكملها، تشعر بالطاقة الإيجابية داخلها، هناك براح لأن آخذ نفسًا عميقًا يدخل صدري من دون أن تمنعه ذكريات مؤلمة..

ابتسمتُ ساخرًا مشيرًا إلى المكان:

ـ زرع وأشجار وعواميد نور شيك طول الطريق.. جنبك ستار بكس لو عاوزة تشربي حاجة.. ولو عاوزة تاكلي عندك مكانين تاكلي فيهم أحلى أكل.. والدائري هنا في ثواني بعيد عن الزحمة.. فيه أحلى من كده؟

نظرت إليَّ بدهشة، ثم ضحكت وعيناها بدأتا تستمتعان بما أقول:

ـ وهنقعد فين؟

مددتُ يدي في ثقة إليها، فاقتربت مني في حيرة، لأحملها فجأة وأجلسها على حقيبة عربتي العالية، صرخت لحظة من المفاجأة ثم انفجرت في الضحك..

ابتسمت أنا وضحكتها الصافية تذكّرني بماضٍ لم يزُر ذاكرتي منذ زمن..

هزت «سيرا» قدميها في طفولة وقالت:

ـ طب والله حلو الجو دا قوي..

جلستُ جانبها على حقيبة العربة، وأشرت للسماء فوقنا وقت الغروب، وقلت بابتسامة صافية:

ـ بذمّتك فيه أحلى من كدا؟

تلفَّتت «سيرا» حولها وقد بدأ سحر المكان يتسلل إلى روحها، ابتسمتْ ابتسامة حانية وهي تستمتع بنسمة الهواء الباردة والسكون، تذكرتْ شيئًا فنظرت لي وقالت:

ـ ناقص حاجة واحدة بس..

قلت بخبرة من دون أن أنظر إليها:

ـ عيب عليكِ..

وضغطت على زر في هاتفي.. ليصدر صوت أغنية أجنبية من كاسيت عربتي.. ضحكَتْ لأنني فهمت من دون أن تتحدث.. قالت وهي تميل بكتفها عليَّ:

ـ يابن اللعيبة..

ونظرت لي نظرة تحمل ألف معنى:

ـ ماتغيرتش يا «شواف»..

لأبتسم في شرود وأنا أنظر إلى السماء..

كيف لم أتغير وأنا لا أذكرني في الأساس؟

صفقت بيديها في حماس جعلني أنظر إليها متعجبًا، هبطَتْ من على حقيبة العربة واتجهت بسرعة إلى عربتها المركونة بجانب عربتي، أخرجَتْ منها علبة مغلفة وعادت بخطوات سريعة، على وجهها بهجة طفلة صغيرة وجدت عروسة أحلامها، تأملتها محاولًا فهم أي شيء ممَّا يحدث، وقفت أمامي

ونظرت لي نظرة فيها مشاعر لم أفهمها، مزيج من الحنين والأمل والحزن، شردت في غرابة نظرتها وعمقها، فقالت:

- أنا نفِّذت الوصية بعد السنين دي كلها..

فردت ذراعيها لتعطيني العلبة، مددتُ يدي وأنا لا أفهم شيئًا، لكنها سحبت يدها ثانية وقالت بصرامة مازحة:

- بس ليا شرط.. أول فيديو هاتفرج عليه معاك..

لم أفهم أي شيء، لكن الحالة التي تملَّكتها أسرتني، فأومأت برأسي أنني موافق، فاقتربَت مني وقبَّلتني قبلة في خدي هامسة:

- كل سنة وانت طيب يا «شواف»..

ثم مدت يدها ثانية وسعادة ضحكتها تبث طاقة إيجابية في أوصالي، ما إن أخذتُ منها العلبة حتى أمسكت هاتفها وبدأت في تصويري «فيديو»، فتحت العلبة بسرعة لأجد داخلها علبة أسطوانات قديمة جدًّا، مكتوبًا عليها جملة واحدة:

- لا تُفتح قبل مرور ثمانية عشر عامًا.

لم يُثِر كل ذلك داخلي أي نوع من الذكريات، لم أفهم ما هذا الذي أراه، نظرت إليها لحظة في عدم فهم، لتنظر «سيرا» إليَّ بتعجب، كانت كل أسطوانة مضغوطة عليها رقم، قلَّبت فيها داخل حافظة الأسطوانات، نظرت إلى «سيرا» ثانية في عدم فهم، قلت وإحباط ملامحها التدريجي يوتِّرني:

- إيه دا؟

ذبلت عيناها فجأة، قالت باستنكار غير مصدقة:

- انت مش فاكر بجد؟!

أومأت برأسي أنْ لا في حيرة، لتتحول نظرتها إلى حزن غريب، اقتربت مني وأمسكت يدي، وقالت بحزن:

- أنا مش مصدقة.. آخر واحد تخيلت إنه يتغير وينسى..

هل تلك دموع بدأت تظهر في عينيها؟ شعرت بالتوتر المفاجئ، قلت بأسلوب دفاعي بحت:

- لا مش موضوع اتغيرت.. بس طبيعي إن لما حد يجيبلي هدية يقولي إيه هي أو يشرحها..

ابتسمت في حنان، ربتت على يدي، وبدأت تجذبني قائلة:

- مافيش مشكلة.. هتفتكر كل حاجة ماتقلقش.. تعالى معايا..

قفزت لأسفل في سرعة وأنا أسأل السؤال المنطقي:

- هنروح فين؟

لتجيب هي الإجابة غير المنطقية:

- بيتك طبعًا.. هنشوف أول فيديو مع بعض..

نظرت إلى الساعة لأجدها العاشرة مساءً، أعلم أنني فاتن، لكن ليس لتلك الدرجة التي تجعل فتاة بهذا الجمال تطلب مني أن نذهب إلى بيتي بتلك السرعة.. لكن نظرتها المصرة وعينيها الحزينتين جعلتني أطيعها..

* * *

- بعدين؟

سألت «آن» السؤال في فضولٍ كان أساس صداقنا وتشابهنا، نبيع أنفسنا من أجل أن نُرضي فضولنا.. قلت وأنا أنظر حولي في شرود:

- مافيش.. طلعنا البيت.. قالتلي إنها لما لقت إن موضوع السيديهات دا بيقدم، حطِّت كل الفيديوهات على فلاشة.. وشوفنا أول فيديو.. وسابتني ومشيت من غير كلمة..

وتنحنحتُ قليلًا وأنا أذكر معلومة بلا قيمة، لكنها مهمة بالنسبة لي:

- بعد ما باستني في خدي..

ضحكت في خبث وقالت ما أتوقعه:

- أيوه بقى..

ثم سألت ما لا أتوقعه:

- هي حلوة بقى على الحقيقة؟

نظرت إليها مستخفًا، لكنها ظلت تنظر النظرة المتحمسة نفسها غير مبالية بنظرتي، فابتسمت مستسلمًا وقلت:

- قمر.

ضحكت «آن» في مرح، ثم قالت بفضولنا الذي لا ينتهي:

- طب عاوز أشوف الفيديوهات.. الفكرة حلوة فشخ أصلًا..

نظرت إليها نظرة قلقة لاحظتها هي، قلت بجدية:

- مش عاوز افتح أي باب بعيد عني.. ما صدقت آلاقي حتة هادية أركن فيها نفسي لحد ما الحوارات اللي جوايا تخلص..

الخطوة الثالثة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تتمهَّل قليلًا.. أنت الآن كالجبيرة لقلب مكسور.. تحرَّكْ في أقل الحدود حتى لا ينكسر شيء آخر.. لا تأخذ قرارات سريعة في العلاقات والمشاريع.. تريث تمامًا حتى تتخلص روحك من السم تدريجيًّا.. تحرك بخطوات بطيئة ثابتة للأمام فقط..

كانت تفهم ما بداخلي، هزت كتفيها ببساطة وقالت بنبرة حيادية:

- ومين قال إن الباب دا حاجة وحشة؟ ما يمكن لما تفتحه من غير ما تفكر ينسيك كل حاجة وحشة..

نظرت إليها وحاولت أن أقول أي شيء..

أن أخبرها أن لا شيء يتحرك داخلي..

صمت القبور..

أن أخبرها أنه لم يعُد هناك يا صديقتي ما يثير فضولي..

ما يجذبني بعيدًا عن خطوط واقعي.. ما يسحبني إلى عالم غامض يسحرني بالنشوة مع اكتشاف تفاصيله.. ويذيب ملل عقلي في ألغازه.. لم يعُد هناك ذلك السحر داخلي..

فاتركيني.. حتى أستطيع أن أجد تلك الحالة وحدي..

فأنا بلا فضول يحيِّرني أعيش جسدًا بلا قلب يحركه..

لكني صمتُّ تمامًا..

كعادتي الأثيرة.



(٢)
الأمر الأول

خرج ابن آدم للعدم قلت: ياه
رجع ابن آدم للعدم قلت: ياه
تراب بيحيا.. وحي بيصير تراب
الأصل هو الموت ولا الحياة؟
عجبي!

صلاح جاهين

قال «عيسى» ذو الثمانية عشر عامًا وهو ينظر إليَّ بصرامة:

ـ بطلت ترقص؟

قال «عيسى» ذو الثمانية عشر عامًا كأب يعنف ابنه:

ـ لو بطلت ترقص هابهدلك..

* * *

نظرت إلى منامتي المعلقة على شماعة صغيرة في غرفة نومي، محاولًا تجاوز كابوسي السخيف، حدقت في المنامة وقتًا طويلًا..

دائمًا ما أشعر عندما أرتديها أنني شخص آخر تمامًا..

دائمًا ما كنت أرى التفاصيل بطريقتي، وأضع لكل شيء أسماءه الخاصة بي؛ لذا أبتسم وأنا أضع قدمي في ما أطلق عليه «بنطال الحب»، وأضع ذراعيَّ في أكمام المسؤولية، ثم أدخل رقبتي في ياقة الاهتمام والاحتواء، لأصبح بعد أن أرتديها شخصًا آخر تمامًا..

الزوج المثالي..

نظرت إلى نفسي في المرآة لحظات، فردت يديَّ على ملابسي كي أفردها قليلًا، صنعت هذه الملابس من أجل الراحة، لماذا أشعر بكل ذلك الضغط والكراهية لمن أراه أمامي في المرآة؟

اللعنة على الذكريات.. منذ فترة، اعتدت أن أترك نفسي أتذكَّرها وأعيشها تمامًا.. حتى تنتهي مني أو أنتهي أنا منها تمامًا..

أغمضت عينيَّ قليلًا..

نفس عميق..

زفرة طويلة تُخرج كل ما أشعر به في ثوانٍ..

فتحت عينيَّ لأجد أمامي في المرآة الزوج الذي عرفته واعتدته منذ سنين، ذلك الشاب ذا العينين الملولتين، نصف الابتسامة والنظرة الحانية، تهدلت كتفاه كأن هناك من يجذبه للأرض رغمًا عنه..

خرجت من غرفتي ولم أُطِل النظر أكثر من هذا كي أبتعد دومًا كما اعتدت أن أفعل.. خرجت إلى صالة منزلي لأجدها تضع الطعام على المائدة.. ابتسمت كعادتي كلما أراها.. في عيني ما زلتُ أراها أجمل ممَّا تتخيَّل هي، ما زلتُ أراها كأول مرة رأيتها فيها..

تلك الفتاة العابثة التي لم تهتم بأي قدر من القواعد والقوانين، تلك الحرة في كل تفاصيلها، من عينيها إلى أخمص قدميها، الفتاة التي كانت لديها الثقة أن لو انقلب عليها العالم لن تتغير لحظة، ستظل هي كما هي..

لم ينقلب العالم وتغيرت هي..

عندما عرفتُها ظننت أنها وصلت إلى حكمتي وذاقت من الدنيا ما لم يذُقْه أحد، واختارت أن تكون حرة على الرغم من كل هذا..

لكنني أدركت، بمرارة السنين، أنها لم تكُن حكمة..

بل حماقة طفلة لم ترَ العالم بعدُ..

وما إن رأته.. ماتت..

جلستُ على المائدة الطويلة، جلست بجانبي مبتسمة ابتسامتها التي كنت أعشقها، قالت تجر الكلام مني كما اعتادت حتى أصبحت لا تبالي:

- اليوم كان حلو في الشغل النهارده؟

أومأت برأسي إيجابًا، لا أدري منذ متى أصبح الكلام المعتاد ثقيلًا لتلك الدرجة! أشعر بالزيف وأنا لا أستطيع أن أزيف تفاصيلي أكثر من هذا، قلت بهدوء:

- كان ناقص بس وجودك معايا..
هي أيضًا لم تعُد تصدّق كلامي المعسول، تعرف أن به بعضًا من الحقيقة وليس كلها، لكنها طبيعتي التي ورثتها عن والدي، الكلام المعسول الجميل الذي يقع على الأذن فتُشعر مَن أمامك أنه مميز، لكن مشكلة الكلام المعسول أنه بعد فترة يصبح خاويًا، معتادًا، بلا معنى..
أومأت برأسها إيجابًا بعدم تركيز، نظرتُ أنا إلى التلفاز أشاهد بلا روح، متفاديًا الكلام في أي شيء قد يثير المشكلات..
منذ سنين، تم سحبها من عمري عنوة، كنت أرى أحبَّ شخص لقلبي وهو يذبل يومًا بعد يوم.. أراه قد استسلم لخوف قاتل من غدر الدنيا.. يبحث كالمحموم بين جدران الأمان الصماء كي يرتاح قليلًا.. أرى المرأة التي عشقتها، تتحوَّل إلى زوجة يائسة تنظر إليَّ وعيناها تقولان مباشرة: «أنت سبب كل هذا»..
وأتقبل أنا التهمة بنفسٍ راضية.. بل أعترف بها مستسلمًا..
يئستُ..
أمسكَتْ يدي قاطعة تسلسل أفكاري، انتزعت عينيَّ من على شاشة التلفاز، نظرت «أسماء» إليَّ بحب أعلم أنه داخلها على الرغم من كل ما حدث، قالت بابتسامة متفائلة:
- وحشني إنك تفضفض معايا.. انت مابقتش تقولي اللي جواك خالص..
كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟
٥ - «سيصيبك الخرس.. ستكتشف يائسًا أن شريك الحياة لا يريدك أن تحكي أسرارك ليسمعك.. لكن ليسجل في ذاكرته نقاط ضعفك ليستغلها فيما بعدُ ويتحكم فيك أكثر.. يذاكر كلماتك عن ظهر قلب.. وعندما يأتي الشجار وتبدأ في لومه.. يضعفك في قمة قوتك بما قلته في ضعفك»..
ابتسمتُ رغمًا عني في سخرية، وجدتُ من يصرخ بداخلي بكلمات خشيت

إليها وابتسمت ابتسامة محبة، وقلت بصدق:

- مافيش حاجة أتكلم عنها.. أنا زي الفل..

رأيت إحباطها على وجهها، فربتُّ على يدها وقلت الكلمة الوحيدة التي كنت أقولها بصدق في تلك العلاقة:

- بحبك..

لتشعر هي بصدق الكلمة في قلبها، فتبتسم وتقبّلني في وجنتي، أغمضت عينيَّ مستمتعًا بقبلتها، ثم فتحت عينيَّ..

ولم أجدها..

انتهت الذكريات وانتهى وجودها اللحظي في خيالي..

نظرت حولي ببطء..

منذ ذلك اليوم الذي تشاجرنا فيه وبدأت حياتنا تنهار..

ابتعاد بطيء محتم..

نظرت إلى ذلك البيت الذي اختفت منه تفاصيل امرأة كانت تعشق هذا البيت أكثر من رجله.. امرأة دهستُها بقطار جنوني ومرضي وكآبتي المريرة.. وسجنتني هي بقضبان خوفها وألمها وماضيها.. ذلك البيت الذي رأى مقاومة الاستمرارية أكثر من متعة الحب.. فانصرفت «أسماء» بحقيبتها مع لقب طلاق تقاسمناه معًا.. تاركة في قلبي فراغًا لا يُحتمل.. التهم ما تبقّى من روحي..

كانت هي أول أمل لي في الحياة أن هناك من قد يفهم.. أن هناك من سيحتوي كل ذلك الظلام..

وكانت أول إحباط ذقت علقم مرارته بأسوأ طريقة ممكنة..

نظرتُ إلى البيت البارد، إلى الأكل السريع الذي طلبتُه، إلى الساعة التي تجاوزت الثانية ظهرًا، ربتُّ على صدري ثلاث ربتات وابتسمت في حزن هامسًا:

- معلش..

ووقفت أنظر إلى كل شيء، لتقع عيناي على التلفاز الكبير والفلاشة في ظهره تومض بلون برتقالي مستفز..

لا بد أن أخرج من تلك الحالة المملة البائسة..

لا بد أن أفعل أي شيء لأنسى..

أمسكت هاتفي المحمول، وضعته على قائم الكاميرا الخاص بي، ثبتُّ الهاتف عليه ونظرت إلى الكادر الذي راق لي، ضغطت زر تسجيل الفيديو، وذهبت بإصرار وفتحت التلفاز ووقفت أمامه منتظرًا تحميل أول فيديو..

أرتدي مثل «عيسى الصغير» منامة..

منامة الزوج المثالي..

* * *

بدأ «عيسى» الكلام مباشرة من دون تضييع وقت، كان يجلس على كرسي المكتب ذي العجلات الأربع، كنت أحب أن أتحرك به في غرفتي كما أريد في هذا الوقت، لم أحترم أبدًا المقاعد الثابتة، مملة وكئيبة ولا تترك فرصة لأن تطلق لخيالك العنان..

أكره كل ما لا يثير الخيال..

هذه المرة ابتسمتُ عندما رأيت «عيسى» الذي يرتدي منامة مثلي، مكتبي القديم المعدني، كان مكتبًا قديمًا في شركة أبي فلم يُلقِه وأعطاه لابنه كي يذاكر عليه، هذا المكتب المعدني هو السبب الرئيسي في «نتش» كل ملابسي بسبب أدراجه المعدنية البارزة..

قال «عيسى» بصرامة ناظرًا إلى روحي مباشرةً كعادتنا:

- بطلت ترقص؟

ورفع إصبعه مهددًا كأنما سيستطيع تنفيذ تهديده بالفعل:

- لو بطلت رقص هابهدلك..

أمسك ذقنه مفكرًا، نظر إلى تلك النوتة المكتبية القديمة التي كنت أدوّن فيها أفكار أفلامي كلها، نظر إلى الكاميرا ثانيةً وقال:

ـ أول حاجة معظم الناس بتبطَّلها لما بتكبر إنهم يرقصوا.. ماعرفش ليه.. انت دلوقتي في سنك دا عندك إجابة؟

وصمت ناظرًا إليَّ، كانت حركة ذكية منه، عند تسجيل الفيديوهات يترك مساحة من الوقت للرد، فابتسمت وقلت بصوت هادئ:

ـ عشان لما تبقى في سني بيبقى فيه حاجة اسمها وقار..

وهززت كتفي كأنما سيراني:

ـ نضج.. بقى فيه ناس كتير أصغر مني في السن.. فلازم تحافظ على مظهرك قدام الناس كلها..

قال «عيسى» بابتسامة خبيثة انتقلت إلى شفتيَّ بسرعة:

ـ يمكن، بس أنا مش مقتنع..

اتسعت ابتسامتي، تلك الإجابة الذكية، وقتها لم يكُن لديه ـ أو لديَّ ـ أي من ردود المستقبل؛ لذلك حافظ على الردود العامة التي تحيي الحوار ولا تميته، ردود تسمح بأن يكمل حواره حتى لو لم يعرف الرد..

لكنه قال ما جعلني أتأمله وأبتسم لذكائه:

ـ بس معنى إنك جاوبت بالسرعة دي إنك بقيت واحد منهم..

وأشار بإصبعه رافضًا وهو يقول بابتسامة صارمة:

ـ وأنا مش هاسمح لك بِدَا..

نظر إلى الكاميرا ثانيةً، وهو يريح ظهره على المقعد الجلدي، قال:

ـ أنا وأنا بعمل المشروع دا كان عندي مستقبلين.. مستقبل انت فيه بتعمل كل حاجة صح زي ما أنا عاوز.. ومستقبل تاني انت بقيت منهم.. عشان كدا ـ زيادة في المجهود مش أكتر ـ عملت من كل حاجة فيديوهين..

رفع إصبعيه ليوضح الرقم، لا بُدَّ أن أكفَّ عن تلك العادة المزعجة

بالحديث بيدي أكثر من فمي، قال هو بثقة:

- كل أمر هأمرك تنفذه، عملت منه فيديوهين.. فيديو لـ«عيسى» اللي عرف ينجح وعرف يحافظ علينا.. وفيديو تاني فيه أوامر تانية لـ«عيسى» المكتئب.. عشان أسهّلك الدنيا.. هتلاقي ملفات، خُش على الاسم اللي يناسب حالتك..

وأشار إليَّ بالسلام قائلًا:

- يلا.. حالًا.. تخش على الملف وتكمل كلام معايا.. ماتكسلش..

انتهى الفيديو بغتة، شعرت بانتهاء سريع لحالةٍ ما استطاع أن يُدخلني فيها هذا الوغد، بسرعة فتحت الملف لأجد ملفين، ابتسمت عندما قرأت أسماءها.. أول ملف فيها اسمه «عيسى حبيب قلبي».. والثاني ببساطة اسمه «سنفور كئيب».. رغمًا عني ضحكتُ من تفاهة ما كنت أفعل، ساورني الفضول أن أفتح «عيسى حبيب قلبي»، لكني شعرت أنني يجب أن ألعب اللعبة بقواعدها.. إكرامًا لهذا الكم من المجهود لفتى في الثامنة عشرة، أراد أن يستمر، قبل أن أهرب أنا منه بقية حياتي..

فتحت «سنفور الكئيب»، لأجده يجلس الجلسة نفسها، ينظر إلى الشاشة بضيق، ويقول كأنه يكمل كلامه من الفيديو السابق:

- كنت عارف إنك هتبيعني وتبقى زيهم يا كلب..

ضحكت هذه المرة بملء فمي، نسيت هاتفي الذي يسجِّل كل ردود فعلي هذه، توحدت معه لدرجة غريبة، لا بُدَّ أن أعترف: كان لديَّ كاريزما غريبة فيما مضى..

قال وهو يهز رأسه بأسف:

- بس كنت متوقِّع..

وابتسم بحنان لأول مرة وهو ينظر إليَّ نظرة استطاعت أن تحتضن قلبي وتهوِّن عليه:

- ومش زعلان منك والله.. ولا حتى خيّبت ظني.. اللي زينا يا «عيسى» بيبقوا حساسين قوي.. طبيعي نقع ونهرب وننسى ومانعرفش نقوم تاني.. باللي أنا وانت بنعدي بيه إحنا كويس قوي إننا واقفين على رجلينا أصلًا..

سرت قشعريرة في جسدي.. ثلاثة أشهر كاملة منذ الطلاق ولم يستطع أحد أن يهوّن عليَّ بهذا الشكل المتقبل الهادئ..

قال هو بعد لحظة صمت:

- بس يا «سبعاوي»، لو مافيهاش رذالة يعني.. عندي سؤال..

ابتسمتُ من وقع كلمته وطريقته في قولها؛ لهذا كانوا يطلقون عليَّ لقب «عيسى الشواف»؛ لعشقي في ذلك الوقت مسرحية «وجهة نظر»، وشخصية «عرفة الشواف».. ذلك الكفيف ذي التعليقات الذكية، الذي رأى بعقله كل شيء فاختلف.. ومن عشقي تلك الشخصية تقمَّصتها تمامًا في تلك الفترة.. سخريته.. كلامه مزدوج المعنى..

كان هذا قبل أن أكره مزاح الأفلام..

ما هذا التناقض؟!

تلاشت ابتسامتي تمامًا، حينما بدا عليه الجدية، اختلفت نظرته لحزن وهو يسأل سؤاله:

- لسَّه ما لاقوش علاج؟

ثم تنحنح وهو يسأل بأمل:

- يعني إحنا خفينا ولا لسَّه تعبانين؟

هبط سؤاله ثقيلًا على قلبي، تذكرت هاتفي فنظرت إليه بجانب عيني، لا أريد أن أجيب، لكني نظرت إليه ثانية وقلت باقتضاب متناسيًا كل شيء كعادتي:

- آه لسَّه..

ابتسم هو، لا أذكر لماذا ابتسمت لحظتها، لا أذكر ما كنت أنتظر أن أسمع من مستقبل، هل كان لديَّ الأمل فيما مضى أم فقدته منذ زمن أبعد

من حياتي؟ شرد «عيسى الصغير» لحظات، ثم صفق بيديه ليتحمّس فجأة، اختفت نظرة الحزن في عينيه في ثوانٍ، نظر إليّ وقال بحماس غريب:

- مش مهم خالص.. المهم إني مش زعلان منك.. بس هازعل لو ضيّعت وقت أكتر من كده.. اوعدني يا «عيسى» إنك هتنفذ كل حاجة.. كفاية إنك وصلت لحد سنك دا ولسّه مابدأتش..

وصمت لحظة وهو يقول بصرامة، أعرف أن داخلها رجاءً شديدًا:

- اوعدني..

نظرت إلى هاتفي ثانية، تبعثر كل شيء داخلي ولم أدرِ بماذا أجيب، لكني ابتسمت، ونظرت إلى عينيه الصارمتين وقلت بهدوء:

- وعد..

عاد بظهره للوراء بارتياح، كأنما كان يثق أنني سأعده، ابتسم وقال بثقة غريبة:

- أنا قريت كتير قوي ازاي أخرَّج واحد بدماغي لما يكبر من الاكتئاب.. أصلنا مش أي حد يا «عيسى».. أنا وانت ناس بتحرق نفسها تفكير.. مافيش حاجة بتعدي على عنينا إلا وبنلقطها وبنحاول نفهم معناها.. مابنعرفش نتكلم ونقول اللي حاسينه.. ودا اللي بيخلينا نبعد ونكتئب أكتر..

ورفع إصبعه وقد تقمص شخصية الناصح:

- عشان كدا أول أمر لازم تنفذه هيبقى سهل قوي..

ومال على الشاشة قائلًا:

- زي ما عمك «جاهين» قال: «الأصل هو الموت ولا الحياة؟».. انسى كل الحجج.. انت هترجع ترقص.. الرقص حياة..

وابتسم ابتسامة جذلة وهو يقول:

- هترقص في كل حتة.. كل ما تسمع مزيكا حتى لو في كافيه.. حتى لو في عزا.. هترقص.. الرقص هو أول حاجة بتطلَّع الطاقة السلبية القذرة اللي

جوَّه البني آدم.. وبتخليه يخرج من سجن كل الناس اللي حواليه.. واحنا دلوقتي هنرقص..

نظرتُ إليه باستنكار حقيقي، فأشار إلى الشاشة كأنها كان يتوقَّع:

- يلَّا!

ونهض من مقعده، ليقف مثلما أقف الآن.. ضغط على زر ما في جهاز الكمبيوتر القديم.. لتصعد نغمات أغنية، ما إن سمعتها حتى ابتسمت في حنين.. كانت أغنية لفرقة اختفت الآن.. «back street boys».. أغنية كنت أعشقها، اسمها «larger than life»..

أكبر من الحياة..

وقف «عيسى» يستعد للرقص، وضع رأسه على الأرض وفرد جسمه منتظرًا..

وما إن بدأت الأغنية حتى بدأ هو في الرقص..

لأنظر أنا إليه مذهولًا..

كان يرقص حقًّا..

كل حركة يفعلها يؤديها بدقة بالغة، حركة قدميه وجسده وذراعه المتناسقة، بدأ بحركة صعبة لو شُوهدت في فيلم لارتفعت أعين المشاهدين إعجابًا، بدأت أهز رأسي وأبتسم رغمًا عني.. تأملت رقصه - أو رقصي - في إعجاب حقيقي، دار حول نفسه وأشار إليَّ فجأة وهو يتوقَّف عن الرقص.. ويصيح بصوتٍ عالٍ:

- ارقص..

وقفتُ لحظات مترددًا، نظرت حولي وإلى النوافذ كأنها أتأكد أن لا أحد يراني، هززتُ رأسي قليلًا ثم بدأت أرقص..

“All you people can’t you see, cant you see..

How you love affecting on reality”.

كل شيء في جسدي شعرت أنه صدئ، حركة يدي البطيئة وعدم تناسق حركاته، لكني قاومتُ، نظرت إليه وهو يكمل رقصه معي، للحظات نسيت نفسي وتوحّدتُ معه.. بدأت أتذكر بعض الحركات التي كنت أحفظها فيما مضى..

اللعنة على بطء جسدي وارتجاف يدي..

لكني نظرت إليه وإلى سلاسة حركاته، نظرته المستفزة لي وهو يرقص، فتحوَّل الأمر إلى عِناد غريب داخلي، أغمضت عينيَّ كي لا أراه وتركت الموسيقى تدخل ثنايا روحي بصخبها.. شعرت بقلبي يتناغم مع دقاتها العالية.. بدأ جسدي بالتعرُّق لكني لم أبالِ.. قاومتُ كل الأفكار الصدئة التي أثقلت جسدي وبدأت أحرِّكه رغمًا عنه..

الخطوة الرابعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تعود إلى كل ما كنت تحبه فيك قبل أن تتسمم روحك..

ورقصت كما لم أرقص من قبلُ..

(٣)

ما بعد الأمر الأول

رقصت طول الليل في راحة حقيقية، حتى بعدما انتهى الفيديو، ظللت أرقص على الأغاني التي أحبها..

نمت نومًا عميقًا، استيقظ عقلي فجأة على تأخُّري عن العمل في البنك، ذهبتُ مسرعًا محاولًا لحاق ما تبقَّى من مرتبي الذي يُخصم ربعه في الفترة الأخيرة، من سخرية القدر أن «أسماء» هي من كانت تعمل في هذا البنك، في كل شجار قديم بيننا كانت تقول إنها من أسهمت في نجاحي..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٦ - «سيذكر شريك الحياة كل شيء فعله لأجلك، ستجده يهوِّل من كل شيء يفعله، ابتداءً من التضحيات المنطقية لأي علاقة، نزولًا إلى أنه يعمل من أجل توفير نقود لك لو كان ذكرًا، وغسيل الملابس والقهوة لو كانت أنثى.. سيحكيه لكل من تعرفه، حتى يظن الناس أن لهم الفضل الأول والأخير لنجاحك في الحياة، بل سيقنعك أنت أيضًا بهذا حتى تشعر دائمًا عندما يهدد بالابتعاد أنك ستصبح تائهًا بلا أدنى فرصة للنجاح»..

كنا صديقين قبل الزواج، وهي مَن وجدت فرصة عمل لي في هذا البنك، تركَتْهُ هي وقت زواجها الأول، وظللتُ أنا فيه، أضطر للذهاب إليه كل يوم.

كنت في حالة من عدم التركيز، لكن عملي لا يحتاج إلى تركيز من الأساس، ظللتُ محافظًا على ألَّا تتم ترقيتي طول السنوات الماضية لأنني أكرهه ولا أريد المزيد من المسئوليات، إجراءات روتينية على شباك الاستقبال لأناس يلهثون خلف نقودهم وحقوقهم، في دائرة طالما كرهتها، ليست لأنها سيئة، بل لأنها إلزامية..

رسالة قصيرة من الدنيا تخبرك بشرطها الدائم: «إن أردت أن تحيا، الهث خلف كل ما تريد»..

طول الوقت لم يكُن يشغل بالي إلا الفيديو الثاني.. أريد أن أراه.. هناك حالة ما تجذبني وأنا سعيد باستسلام روحي لها..

أنهيتُ عملي وعدت إلى بيتي مسرعًا، فتحت كاميرا هاتفي وثبتته على الكادر المفضَّل، ونظرة المخرج داخلي راضية عنه. وقفتُ أمام التلفاز، فتحته في حماس، لأجد في الملف الثاني ملفين، ملفًّا باسم «حلم بيتحقق»، والثاني كالمعتاد «حلمنا يابن الكئيبة».. لم أتردد وفتحت الثاني مبتسمًا..

لأجد «عيسى» في غرفتي القديمة يبتسم ابتسامة شامتة، لم أدرك معناها إلا عندما قال:

- فتحت الفيديو التاني على طول، صح؟

حسنًا، كنت أحب أن أبدو ناصحًا فيما مضى، لا بأس، مر يوم كامل لكنه ظن أنني سأفتح الفيديو بعد الرقص مباشرة، قلتُ في هدوء:

- لأ طبعًا.. عشان فيه حاجة في حياتنا اسمها شغل دلوقتي ولازم أرتاح..

سأحذف هذا الجزء من المونتاج بيني وبينه، لم يكُن له داعٍ ولن يصح أن يظهر «عيسى الصغير» بشكل غير احترافي..

نظرت إلى أعلى لحظة في إدراك.. هل أفكر في الفيلم حقًّا وفي تنفيذه؟ لقد وصل خيالي إلى مرحلة المونتاج..

قال «عيسى» مقاطعًا أفكاري بابتسامته الواثقة:

- أول حاجة فيا وفيك لازم نعترف بيها.. إننا بنكسّل حتى نفكر.. عشان كدا أكيد مش هاقضي الموضوع كله فيديوهات..

ورفع إصبعه الثانية، مكملًا:

- تاني حاجة لازم نعترف بيها.. إن أنا وانت بنعشق اللعب.. بنعشق التحدي.. وبنحب اللي يستفزنا.. وده اللي خلاني أخترع لك مخصوص لعبة «إِذْمَا»...

شعرت بإحباط مفاجئ، هل يمزح؟ لقد انتظرت اليوم كله لأسمع الأمر الثاني.. لماذا لا يقوله وينتهي من دون إطالة؟!

قال فجأة بجدية وقليل من الحزن، ليجعلني لأول مرة أبدأ في رؤية شيء مشترك بيننا:

- أنا حاسس إني شايفك.. شايف الدنيا اللي حواليك.. شايف إنك لوحدك ومافيش حد من اللي بتحبه حواليك.. شايفك قاعد في مكان كئيب ومش عارف تقول اللي جواك لحد.. وأنا وانت بنكره الوحدة يا «عيسى».. إحنا روحنا بتكمل بالناس.. ولو انت اخترت فيديو الاكتئاب.. يبقى أنا مش هاكمل هنا.. لازم تتحرك شوية.. ولازم تغير المكان..

وقال فجأة بصرامة:

- كلم «سيرا» وهي هتفهِّمك كل حاجة.. الفيديو انتهى..

أظلمَتِ الشاشة فجأة، لأشعر مع ظلامها بشيء ينطفئ داخلي، ياللسخافة! لقد كنت متحمسًا بشدة لأسمع الأمر الثاني..

نظرت إلى هاتفي المحمول الذي يصوِّرني، انتابني إحساس أن أنسى كل شيء، لكني ذهبت بعناد لم أشعر به منذ زمن، أمسكت الهاتف وأغلقت تسجيل الفيديو، كلمت «سيرا» على الفور، لأجد صوتها يرد بفرحة:

- كنت مستنياك..

قلت لها بنبرة آمرة لم أعتدها في شخصيتي:

- نتقابل فين؟

لتقول هي بضحكة:

- البنزينة طبعًا.. عجبتني قوي المرة اللي فاتت..

واتفقنا على ميعاد المقابلة، لألتقط مفاتيح عربتي وأخرج من الشقة مسرعًا..

نظرت للحظة إلى باب الشقة المقابلة لي.. ترددت للحظة.. ثم تجاهلت

بالخاطرة وهبطت مسرعًا..
على الرغم من أنه ما زال أمامي على الموعد ساعتان..

* * *

- لا طبعًا.. إيه الهبل اللي بيتقال دا؟!
قلتها بكل إحباطي، وأنا أنظر إلى «سيرا» التي انطفأ الحماس في عينيها بعد جملتي الأخيرة..
لكزتني «آن» في كتفي بذراعها، كنا جميعًا نقف أمام محطة الوقود، المكان الذي عثرنا عليه أنا و«آن» بالصدفة، وأصبح مكاننا المفضل بعيدًا عن الدنيا بأكملها، ظللنا أعوامًا ثابتين فيه، يرحل من يرحل ويأتي من يأتي من الأصدقاء، من أخلص فيهم ومن خان، لكننا ثابتان فيه لا نتزحزح..
نظرت إليهم في استنكار، «هيثم» و«ياسين» و«شمس» و«درية».. هذه المرة معنا «سيرا» التي استقبلوها جميعًا بترحاب وانبهار.. في النهاية هي تلك الممثلة المشهورة التي لم يتوقعوا أن تأتي لتجلس معهم هنا..
في محطة الوقود..
قالت «آن» وقد لاحظت إحباط «سيرا»:
- أنا مش فاهمة انت بترفض للرفض ولا عشان نقعد نتحايل على أهلك إنك توافق..
نظرت إليها في عدم فهم، ليقول «ياسين» بجدية:
- يابني غيَّر المكان اللي انت فيه.. مكان كله كآبة وذكريات وحشة.. وانت قاعد مكتئب وقافل على نفسك..
ثم ابتسم بسخرية وهو يقول ناظرًا إلى الفتيات كعادته كلما يلقي دعابة:
- أنا شاكك إنه مابيستحماش واللـه..
ضحكوا ضحكة خافتة، لتقول «درية» كأنما شعروا جميعًا أنهم لا بُدَّ أن يثبتوا نظرية «سيرا» فقط لمحبتهم إياها:

- كمان هتروح تعيش مع القمر دا.. حد طايل؟

لماذا لا يشعر أحد بي؟ ولماذا لا يبهرني نجاح «سيرا» وشهرتها كما يبهرهم؟ في نظري هي صديقة عمري، رفيقة أيام الدراسة.. لا أكثر ولا أقل..

ما قالته «سيرا»: إن «عيسى» القديم اشترط أن أغيِّر مكان إقامتي حتى يكتمل المشروع.. وعندما سألتها كيف لطفل ساذج أن يعرف أين سأكون بعد ثمانية عشر عامًا؟!

ردت ردًّا أفحمني، قالت بابتسامة خجول:

- ساعتها كنت بتقول إن مستقبلك مش هايتساب في حاله.. يا إما هتكون عايش مع أهلك يا إما متجوز وعايش جنب أهلك..

شعرتُ بالإحراج للحظة، لا أتذكَّر أي شيء من هذا، لكن من الواضح أنني كنت مراهقًا واقعيًّا لدرجة الملل، بالفعل ظللتُ مع أهلي حتى تزوجت وأجَّرت الشقة التي أمامهم.. لا أعرف متى ولا كيف تركت الأمور تسير في هذا الاتجاه.. كل ما أذكره أن هذا كان طبيعيًّا وقتها.. حاولتُ تجاهل الأمر وسألتها أين سأقيم؟

لتخبرني بما اعترضت عليه في البداية:

- هتعيش في الفيلا بتاعتي، في شقة على الروف، أوضة وصالة..

لأرد بعدها ردي العنيف الذي أحبطها، ويبدأ الأصدقاء في إحياء ما تبقَّى من رماد روحي، قالت «سيرا» بعد ابتسامة لـ«درية» على المجاملة اللطيفة:

- انت ساعتها كان نفسك في مكان عالي يكون مفتوح..

لأنظر لها ولا أعرف كيف أرد..

قالت «شمس» وهي تنظر إليَّ نظرة هادئة:

- انت محتاج تغير مكان يا «عيسى».. اسأل نفسك سؤال واحد.. هتخسر إيه أكتر من اللي خسرته؟

نظرتُ إلى «شمس» نظرة طويلة، كانت أقلهم كلامًا، لكن أكثرهم ذكاءً، دائمة المراقبة لما يحدث حولها، ولا تتحدث إلا عندما تشعر أنها ستقول شيئًا

مهمًا، من هؤلاء الناس الذين يحبون بأفعالهم الجادة، ليس بالكلام المعسول والوعود الزائفة..
هذا أحترم دائمًا كلامها..
نزلت من على حقيبة عرشي، نفضت يدي من ترابها، كنا نستند جميعًا إلى حقائب سياراتنا، بل وصل بـ«آن» الأريحية أن تأتي بمقعدين لكي نجلس جميعًا ونكون جلسة مريحة، في محطة الوقود التي أصبحت بيتنا تقريبًا ولا أدري لماذا.. لا ينقصنا إلا حجران من الشيشة ونجلس جميعًا نتسامر ونلعب لعبة «بدون كلام»!
أغمضت عينيَّ لحظات كعادتي كلما أتوتر.. نفس عميق..
ثم زفير يُخرج ما تبقى من الجنون..
يكفي الاستمرار في هذا الأمل الزائف..
كان إحساسًا ظريفًا وانتهى، رسائل تأتيني من الماضي، لكني لن أمضي في هذا الجنون، لن أغيِّر مكانًا عشتُ فيه قرابة الأعوام السبعة، مكانًا فيه كل تفصيلة مريحة نفسيًّا وأشعر فيه بأمان غير محدود..
حتى لو رافق المكان بعض الذكريات السيئة، أماني النفسي أهم من كل شيء..
قلت هازًّا كتفي في استسلام معلنًا قراري:
- أنا مش مكمِّل في اللعبة دي.. مش رايح في حتة.. لو تحبي تديني الحاجة ونخلص يبقى زي الفل.. مش عاوزة يبقى خلاص الدنيا دي..
زفرت «آن» وهي تنظر إليَّ بغضب، تكتم غضبها لأنها تريد أن تحترمني أمام «سيرا» وأنا أصعِّب الأمور عليها فعلًا، قالت من تحت ضرسها بطريقة تجيدها عندما تعنِّف أحدًا:
- «عيسى».. أنا أستاذة في قلب الترابيزة.. يا ريت ماتلعبش في الحتة دي..
قلت بنفاد صبر وقد بدأت العصبية تتخلَّل نبرات صوتي:
- أنا مش بقلب الترابيزة.. أنا مش عاوز الحوار دا.

شعرتُ فجأة بصدري يضيق، أن هناك ألمًا خفيفًا فيه، وأنني أتنفس بصعوبة..

إحساس يأتيني دائمًا عندما أشعر أن هناك شيئًا أنا مُجبَر عليه، ذلك الإحساس الذي جعلني أتوهَّم أن لديَّ أزمة قلبية وظللتُ مريضًا بهذا الهوس فترة.. هوس أتاني بعد زواجي بعام واحد..

عندما...

عندما حاولت «أسماء» الانتحار يومًا أمام عيني..

تزاحمت الأفكار في عقلي.. كانت «آن» تتحدَّث وتقول لي شيئًا ما لكني لم أسمعه.. صورة دم رسغ «أسماء» هاجمتني فجأة.. عندما تشاجرنا شجارًا عنيفًا بسبب شكها أنني على علاقة وأخوتها للمرة الألف.. غضبتُ من هذا الظن الحقير وأخبرتها أنني لن أتقبَّل هذه الحياة.. لتختفي في دورة المياه فترة.. شعرت بالقلق وذهبت لأطمئن.. فتحت باب الحمام لأجدها جالسة والدم يملأ رسغها الأيسر.. وتنظر إليَّ نظرة هادئة وتقول أغرب جملة سمعتها في حياتي:

ـ أنا مش عارفة أقطع جوَّه قوي.. ممكن تساعدني أقطع العروق؟

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٧ - «الشريك يريدك أن تتقبَّل مرضه وجنونه وضعفه.. بالنسبة له هو ليس جنونًا من الأساس، بل نتيجة طبيعية لكل ما مرَّ به من مآسٍ، لقد تآمر العالم أجمع على بؤسه، وأنت الوحيد الذي لا بُدَّ أن تتحمله من دون شكوى، في الوقت نفسه يحاسبك بالشعرة على مرضك وجنونك وضعفك.. لا يجد لها مبررًا ويستهين بها.. لسان حاله يقول إنك مهما شعرت لن يكون بقسوة ما رأى.. بالنسبة له.. أنت خُلقت كي تتحمله هو فقط».

نظرت حولي، لا أحد فيهم يشعر بما أنا فيه، شعرت بصدري يضيق أكثر، قلت فجأة كي أهرب من ذكرياتي قبل أن أهرب منهم:

ـ أنا لازم أمشي..

ولم أنظر إلى أحد، مشيت مسرعًا ودخلت العربة، سمعت من بعيد صوتهم وهم ينادونني، يظنون أنني غاضب، لا يفهمون شيئًا، لا أحد يفهم مهما قلت ومهما حكيت، حمدت الله أن عربتي كانت خارج الدائرة ولا يسد خروجها عربة من عرباتهم، انطلقت مسرعًا..

لا بد أن أهرب..

رغمًا عني، رأيت عينيها الباردتين وهي تمد لي ذراعها الملطخة بالدماء، وتناولني القطعة الزجاجية التي استخدمتها للانتحار، لم أدرِ لحظتها ماذا أفعل..

في كل خبرات الحياة، لا يعلمك أحد وأنت في عمر الرابعة والثلاثين كيف تتعامل مع واحدة هي أقرب لك من روحك، تطلب منك أن تساعدها في انتحارها!

ضغطت دواسة البنزين أكثر عسى أن يلهيني الطريق، لكني رأيتني عندما أمسكت منها قطعة الزجاج، وابتسمت في عدم تصديق، احتضنتها وعقلي يرفض فكرة أنَّ هذا يحدث لي، لتقول «أسماء» في حضني بصوت مريض فيه مزيج من الحنان والشرود:

- ماتخافش.. أنا مش موجوعة.. أنا مبسوطة إني هاموت.. عشان خاطري بس، لو بتحبني.. ساعدني..

انتفضت عندما رأيت كلبًا كان يركض في عرض الشارع وكدت أدهسه، انتزعني فزعي من ذكرياتي ونظرت حولي على الطريق، أوقفت العربة بجانب الرصيف وخرجت منها لاهثًا..

بدأت الدموع تحتشد في عينيَّ، أحاول أن ألتقط أنفاسي بصعوبة.. استندت إلى العربة وانحنيت قليلًا.. لا بُدَّ أن أهدأ..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير طويل يُخرج ما تبقى من الذكريات...



* * *

«انت فين يابني؟ لولا إنك «عيسى» كنت ماعرفتكش تاني.»
رسالة من تطبيق «واتساب» بجانبها رقم «٢٠٧».. مئتا وسبع رسائل من «آن» ومن «سيرا» ومن بقية الأصدقاء.. وأكثر منها اتصالات لم أرد عليها..
استلقيتُ على مرتبتي الوثيرة على الأرض.. في ظلام غرفتي المحبب..
وابتسمت في ارتياح..
الخطوة الخامسة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: بدّل الأماكن التي تثير داخلك الذكريات.. غيِّر من المحيط الكئيب الذي رسم شريك الحياة فيه وجوده.. لا تجعل عقلك يذكِّرك دائمًا بوجوده في كل تفاصيل حياتك..
لكني لن أستطيع أن أترك بيتي المريح حتى لو هاجمتني ذكريات العالم أجمع.. أنا هنا بعيد..
في مكاني الآمن..
كم مرَّ من الأيام؟ قد يكون يومان أو ثلاثة أو ربما شهر.. لا أتذكر.. بل للحظة نسيت تمامًا كل ما له علاقة بـ«سيرا» والـ«فيديوهات» و«عيسى» القديم.. لا أدري لماذا تحمست من الأساس وأنا لا أذكره.. ونضجت كثيرًا عن تلك المرحلة الحالمة المتفائلة، كبرت لأتعلم الواقعية الجميلة..
الحياة هي تدريب متواصل لتعليمك معنى الخسارة..
لكن الخيال الذي كان يعيشه في عمره المراهق.. لا يمت إلى الواقع بصلة..
الحلم.. والأمل.. والحياة الكاملة..
ما هذا السخف؟
أضاء الهاتف، ووجدت رقم أبي هذه المرة، رددتُ في هدوء لأجده يقول قبل أن يسمع كلمة «ألو» التقليدية:
- تعالى حالًا..
قالها بلهجته الآمرة، أعلم من تلك اللهجة أن هناك مصيبةً ما قد حدثت، إما أزمة صحية يتعرَّض لها، وإما شجار عنيف، سواء مع أختي أو أمي،

شعرت بتثاقل يجتاحني، منذ الطلاق لا أشعر بالارتياح، طول عمري كنت في صراع معهم على كلمة «لو كنت سمعت كلامنا».. لم يحب الاثنان «أسماء» على الإطلاق، لكنهما تقبلاها من أجلي؛ لذا عندما تم الطلاق، سمعت الكلمة التي تجعلني أغلق كل أبواب روحي العنيدة: «ماحنا قلنالك وانت ماسمعتش الكلام»..

ثم إن هناك أحداثَ كلّ ما قبل الانفصال، كل المفاوضات والادعاءات لتحميل الأخطاء على الآخرين؛ فالطرف المخطئ يدفع ويتنازل أكثر.

ذهبت متثاقلًا، دخلت شقتهم بمفتاح معي منذ أن كنت مراهقًا، لأشعر بالطاقة المشحونة في الجو على الفور، دخلت ببطء لغرفة المعيشة حيث يقضون تسعة وتسعين في المائة من الوقت فيها..

نظرت إلى أمي الواقفة في منتصف الغرفة أمام التلفاز، تنظر إليَّ بعينين متسعتين غاضبتين، في حين جلس أبي على مقعده يشاهد مباراة كرة قدم ما بين فريقين غير معروفين في الدوري المصري.. قلت وأنا أنظر إليهما مبتسمًا في عدم فهم:

ـ فيه إيه؟

قال أبي من دون أن يحوِّل نظره من على التلفاز:

ـ اقعد..

جلست ونظرت إليهما مترقبًا، هناك أمر جلل، من ملامح أمي القلقة وهدوء أبي، هناك شيء يخصني أنا، نظر إليَّ أبي نظرته التي يحاول بها كتمان معظم ما يشعر به:

ـ أنا صدقتك زمان لما قلتلي إنك ماختنتش «أسماء».. ومشيت في إجراءات الطلاق كلها مصدقك.. هاسألك لآخر مرة: انت كنت بتخونها؟

قلت الجملة التي كررتها ثلاثة أعوام من عمري في نفاد صبر:

ـ واللـه ما خنتها..

أومأ برأسه إيجابًا، ثم سأل سؤالًا آخر أكثر غرابة:

ـ انت بتتكلم وحش عن «أسماء» مع ستات تانية؟

عقدت حاجبيَّ، ثم هززت كتفي في لا مبالاة وقلت:

ـ مش فاكر..

لتتحوَّل نظرته إلى نظرة تكذيب، كنت بالفعل لا أتذكَّر؛ فأنا لا أتذكر أي شيء عن «أسماء» وما حدث معها طول الأعوام الثلاثة، أتذكر فقط الأشياء الخارجة عن المعتاد: انتحارها، شجارنا المتواصل واختناق روحي، كل الأوقات التي قضيتها خائفًا من أن أموت بجانبها فتلتهم قلبي خوفًا من أن يخفق لأحد في العالم الآخر، غير هذا لا أتذكر كيف كنت ولا ماذا فعلت طول هذا الوقت..

سألتُ «آن» عن سلامة عقلي، لترد «آن» وقتها وتطمئنني أنني فقط دفنت الأمر، قالت بنبرتها العملية:

ـ انت عملت «بلوك» بس لكل حاجة ليها علاقة بالفترة دي.. دا طبيعي..

اطمأننت قليلًا، كان سيتحوَّل هوس أزمتي القلبية إلى هوس فقدان الذاكرة؛ لأنني بعد الطلاق أيضًا لا أتذكَّر شيئًا من الأشهر الثلاثة الماضية، أقضي اليوم بطوله وأستيقظ كأنه يوم جديد ولا أتذكر شيئًا عن البارحة..

قال أبي ليعيدني إلى أرض الواقع:

ـ خد اقرا..

وأمسك رزمة أوراق مطبوعة وأعطاني إياها، نظرت إليه في غير فهم، أمسكت الورق ونظرت إليه لأجد أنه ورق مطبوع عليه صفحات من حديثي مع إناث مختلفات، كلها أحاديث بيني وبينهم على «فيسبوك» و«إنستجرام»، تم طبعها في هذه الرزمة خصيصًا..

شعرت بفوران يغلي داخلي..

انعقد حاجبيَّ وأنا أقرأ كلامًا كثيرًا لا أذكر أنني كتبته في الأساس..

بعد انصراف «أسماء» من البيت شعرت بخواء غير طبيعي.. دخلت

كالمجنون أحدِّث أيَّ امرأة تقبل الحديث معي.. وأترك الحديث يتطور في أي اتجاه.. صداقة كانت أو جنسًا أو حتى حديثًا فارغًا بلا هدف.. فقط لتمر الدقائق من دون ألم..

كنت أبحث عن أنيس في هذا الظلام القذر الذي أُلقيت فيه وحدي.. أبحث عمَّن يُنسيني ولو لثوانٍ منظر الذراع الغارقة في الدماء والنظرة المجنونة..

«ممكن تساعدني أقطع العروق؟»..

حرَّكت رأسي بعنف لأطرد صوتها اللعين من عقلي، شعرت أنني عارٍ تمامًا أمام أبي وأمي.. هل قرآ هذا الكلام القذر؟

نظرت إليهما في عدم فهم.. وضعت بصعوبة وجهي البارد الذي أتقنه في الأزمات، وجهًا باردًا بلا أي انفعال، قلت:

- دي كلها حاجات بعد الطلاق..

ليبتسم أبي مكذِّبًا للمرة الثانية ويقول:

- بص على التواريخ..

نظرت إلى التواريخ ثانية في الورق كله، لم أفهم، نظرت إليه ثانية وكررت بإصرار:

- دي كلها حاجات بعد الطلاق.. بعد ما «أسماء» سابت البيت..

ليومئ أبي برأسه ويشير إليَّ بنبرة هادئة:

- بالظبط.. بعد ما سابت البيت.. مش بعد الطلاق..

نظرت إليهما في استهجان.. وما الفارق؟ منذ أن طلقتها وتركَتْ هي البيت كنت أعرف أنها النهاية.. كنت أعرف أنها لن تعود ثانية مهما حدث.. انتهت علاقتنا بالنسبة لي وتم استهلاك كل جزء في.. فما الفارق بين نهايتي ونهاية الورقة الرسمية التي جاءت بعد شهر أو أكثر؟ هل يقصد أنني خائن لمجرد أنني لم أنتظر ورقة رسمية تفيد موظفي الحكومة أكثر مما تفيدني؟!

قال أبي بنظرة لائمة، تخبرني بمنتهى الوضوح أنني السبب في كل ما يحدث:

- ما سألتنيش جابوا الحاجات دي منين!

أدركت فجأة هذا السؤال البديهي، لكن أمي هذه المرة أجابت بغضب:

- فيه حد سرق حساباتك كلها.. وبعتها لينا من غير ما يقول مين..

للمرة الثانية شعرت أنني عارٍ تمامًا، منذ يومين أو أكثر لم أطالع أيًا من حساباتي على التواصل الاجتماعي لكرهي ما تبثه من طاقة سلبية، أمسكت هاتفي وفتحت كل التطبيقات، والرسالة واحدة فيها كلها: «لقد تم تسجيل خروجك من هذا الحساب».. كل حسابات التواصل الاجتماعي الخاصة بي سُرِقت..

هل من سرق الحسابات وأرسل تلك الأوراق لأهلي هي «أسماء»؟

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٨ - «الشريك السام عادة ما يكون نرجسيًّا.. يرغب في السيطرة التامة.. ويصل به الهوس إلى أن يرغب في السيطرة حتى بعد الانفصال.. يخاف على مظهره بشدة؛ لذا يُبقيك تحت سيطرته، سواء بالاستجداء العاطفي أو البكاء أو التهديد.. وقد يصل إلى الإيذاء.. الشخص النرجسي يريد أن يشعر أنك لا تستطيع الحياة من دونه.. يريد أن يثبت للناس كلها أنك ذبلت من بعده؛ لأنه يظن أنه مصدر حياتك.. فكيف تتجرأ وتتنفس من دونه يومًا؟».

والخطوة السادسة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تبتعد تمامًا..

نظرت إليهما بغضب، أدركت لماذا يلومني أبي، فهمت فجأة أنني لم أغيِّر أيًا من كلماتي السرية لكل تلك الحسابات.. قال لي مرارًا أن أفعل.. لكني رفضت.. لقد وعدتني «أسماء» أنها لن تفعل ذلك مهما حدث..

لن تؤذي عندما تنتهي قصتنا..

هذا لو كانت هي من فعلت كل هذا، ومن يهدد أماني الآن ليس شخصًا

أصدق الصورة الوهمية في خيالي عنها حتى الآن..

شعرت أنني أختنق..

أريد أن أهرب من كل هذا..

أريد أن أبتعد قدر استطاعتي عن كل تلك القذارة..

شعرت فجأة بهدوء غريب والقرار يأتيني، لا أدري لماذا، لكني نظرت إليهما فجأة وقلت:

ـ أنا هاسيب البيت شهرين كدا.. محتاج أبعد شوية..

لتخبرني أعينهما المصدومة أن هذا هو آخر شيء يتوقعان سماعه..

(٤)

وثاني الكنوز

البط شال عدى الجبال والبحور

ياما نفسي أهج.. أحج ويّا الطيور

أوصيك يا ربي لما اموت.. والنبي

ما تودنيش الجنة.. للجنة سور

عجبي!

صلاح جاهين

وقفنا بسيارتنا أمام فيلًا ضخمة في «كومباوند» بالسادس من أكتوبر..

كان «ياسين» يتحدَّث في الهاتف بعيدًا عنَّا قليلًا، فقالت «آن» وهي تستند إلى سيارتها ناظرةً إليَّ:

- مش طايقاك..

ابتسمتُ في هدوء، طول الطريق تلومني لأنني تجاهلت اتصالها، لدينا أنا وهي مبدأ واحد، نتجاهل الجميع وقت حزننا لكن لا نتجاهل بعضنا أبدًا، مهما حدث، حكيت لها ما حدث في الطريق فهدأت قليلًا.. لكنها ما زالت غاضبة..

أخرجت «آن» من حقيبتها علبة السجائر وأخرجت سيجارة، أخذتها من فمها من دون استئذان، لتنظر إليَّ في حزن، أخذت الولاعة منها وأخذت نفسًا عميقًا..

وأخرجت زفرة طويلة..

قالت بلهجة متسائلة لكنها تحمل بداخلها الكثير:

- انت مبطَّل بقالك حبة كويسين.. ليه كدا؟

أومأت برأسي أن نعم.. منذ أن أصابني ذعر الأزمة القلبية.. قررتُ أن أعيش حياة صحية من دون تدخين حتى أقنع نفسي أنني لن أصاب بنوبات قلبية.. لكن لا أدري لماذا الآن لا يبدو الموت فكرة سيئة لتلك الدرجة..

قال «ياسين» وهو ينظر إلى الفيلا ويضع ذراعه حول عنقي:

- يا بختك يا عم.. هتعيش في القصر دا..

لو يعلم ما يحدث لي الآن لما حسدني على الإطلاق، ابتسمتُ مجاملًا، سمعنا جميعنا صوت مزلاج معدني يُفتح، وتخرج «سيرا» على شفتيها ابتسامة سعيدة أُحبها منذ أن كنا طفلين..

قالت مشيرة إلى فيلتها بأداء استعراضي:

ـ مرحبًا بك في عالمك الجديد..

عقدت حاجبيَّ في تعجُّب وأنا أبتسم، لتقول هي ضاحكة:

ـ انت اللي وصتني أقولك كدا أول ما تيجي.. والنبي ما تتريق..

ضحكنا جميعًا، صعدنا معها في هدوء، كنت في الدور الثالث، فتحت بابًا معدنيًّا أسودَ كبيرًا، لأجد نفسي على سطح الفيلا، على الرغم من الليل، لكني كنت أرى مساحة واسعة من الفراغ أراحتني نفسيًّا، نظرت إليَّ «سيرا» في ترقُّب منتظرة رد فعلي، في حين تركتهم رغمًا عني ومشيت شاردًا حتى سور السطح ونظرت إلى كل شيء حولي، هناك حالة من السكون والهدوء تُنزل السكينة على القلب..

شيء ما داخلي ينتمي إلى هذا المكان..

بل ينتمي إلى أي مكان واسع لا يحده أيٌّ من الأسوار..

ـ يا «شواف»..

قالتها «سيرا» منادية، ما زلتُ لم أعتَد بعدُ أن يناديني أحدٌ بـ«الشواف» ثانية، نظرت إليها لأجدها فتحت باب الشقة الصغيرة، يقف بجانبها «آن» و«ياسين» ناظرين إليَّ بسعادة، ذهبت مبتسمًا وأنا في حالة من الهدوء النفسي لم أشعر بها منذ فترة طويلة..

دخلنا الشقة لتتسع ابتسامتي أكثر.. شقة صغيرة للغاية، غرفة واحدة وصالة واسعة، لكنها كانت راقية، والمثير للدهشة والحيرة أن «سيرا» زيَّنت كل تفصيلة فيها بما كان يحبه «عيسى» القديم..

حوائط بلون رمادي، وحوائط أخرى مرسوم عليها رسومات بديعة،

هناك حائط كامل في غرفة النوم البسيطة عليه أقوال كل الأفلام التي أحبها والتي كنا نسجلها أنا وهي في نوتة خاصة بنا.. إضاءة غير مباشرة كما أحب..

ابتسمتُ عندما وجدت في الحوائط حائطًا كاملًا عليه رسمة كبيرة لـ«محمد صبحي» في شخصية «عرفة الشواف» مرتديًا نظارته السوداء وينظر إلى أعلى، مكتوبة تحته جملة ذكَّرتني بكل شيء أحارب أن أنساه:

«ياتجنن من يقينكم»..

كانت جملتي المفضلة، عندما أسروا «عرفة الشواف» لأنهم يرتابون في عماه ويظنونه مبصرًا، ليصرخ بتلك الجملة العبقرية في بساطتها.. التي ضربت قلبي قبل أن تضرب عقلي.. ذلك اليقين الذي يتحدث الجميع به كأنهم وصلوا إلى الحقيقة الكاملة، ذلك التعالي في فرض القوانين وما يصح وما لا يصح.. يثير جنوني ذلك اليقين.. يكمل بعده «عرفة الشواف» الجملة بما أشعر به دائمًا طول حياتي:

«وأقول إيش عرفني إنكم ما بتكذبوش عليا..

أو يمكن تكون الحقيقة فاتتكم»..

وقفت أمام الحائط أنظر إلى الرسمة وداخلي أشياء كثيرة تتحرَّك رغمًا عني، «سيرا» تنظر إليَّ كطفلة منتظرة انبهاري، نظرت إليها وقلت كل ما كان في عقلي وقتها:

- انتِ حلوة قوي يا «سيرا»..

ضحكت وهي تقترب مني واحتضنتني.. ربتُّ على ظهرها في حنان.. وأنا أنظر لـ«آن» التي غمزت لي في خبث، فرفعت لها إصبعي الوسطى، في ردٍّ جعلها تنظر إلى «ياسين» في إحراج، فضحك «ياسين» في مرح.. فيما مضى - وحتى الآن - كانت تلك الإشارة لها معنى قمة في السوء، لكن مع تطور الزمن أصبح الجميع يستخدمونها كإشارة أقرب للاعتراض أو اللوم، ليست بمعناها البذيء الحقيقي؛ لذا أستخدمها أنا و«آن» دائمًا..

ودَّعوني في مرح، للحظة كنت أمزح معهم ونسيت كل شيء، لكن عندما تركوني وحدي وانصرفوا، شعرت فجأة بكل شيء يأتيني ثانية.. ونفَسي يضيق في صدري قليلًا..

* * *

لكني استيقظت اليوم التالي بعد نوم متقطع بلا أحلام..

استيقظت على صوت جرس الباب، نهضت مسرعًا فوجدتها «سيرا»، يبدو عليها النشاط، دخلت الشقة الصغيرة، وأمسكتني من يدي لتجلسني على كنبة وثيرة، ووقفت لحظات تتأمل المكان، ثم علَّقت الهاتف على قائم الكاميرا الذي أتيت به من منزلي، صوَّبته نحونا وضغطت على زر التسجيل..

نظرَتْ إلى الكاميرا وقالت بلهجة حماسية:

- هانبدأ لعبة «إِذْمَا».. النهارده أول يوم في رحلة الـ«Treasure hunt»..

"إِذْمَا"، اسم قاله عيسى قبلًا وتقوله سيرا الآن ولا أذكره على الإطلاق، ذهبَتْ "سيرا" لتقف أمامي، أردت أن أخبرها أنني ما زلت بـ«عماص» عيني، وأن الكادر الذي اختارته سيئ للغاية، لكني تركتها بحماسها، مدت لي يدها بظرف كروت عيد الميلاد، نظرت إلى الظرف، مكتوب على غلافه: الكنز الثاني..

توقَّف عقلي لحظة عندما قرأته، ونظرت إليها متسائلًا:

- مكتوب هنا الكنز التاني.. فين الأول؟

أشارت إلى نفسها وقالت بفخر:

- أنا طبعًا..

ابتسمت مصدقًا؛ لأن الإجابة منطقية، لكنها ضحكت وقالت مصححة:

- الهدية اللي جبتهالك والفيديوهات.. دا الكنز الأول..

أومأت برأسي أن نعم، قالت بحماس وهي تصفق:

- يلا افتحه واقرا..

فتحت الظرف بتكاسل، لكن هناك طفلًا داخلي أثاره الفضول فتحمَّستُ قليلًا، فتحت الظرف لأجد بالفعل بطاقة معايدة من بطاقات عيد الميلاد، كانت الإمكانات فقيرة جدًّا وأنا في الثامنة عشرة، كنت أقتطع ثمن تلك البطاقات من مصروفي بالتأكيد.. فتحت الكارت لأجد رسالة من «عيسى الصغير».. بخط يدي الذي لا بُدَّ أن أعترف أنه كان منمقًا كثيرًا عن الآن..

رفعت حاجبيَّ في إعجاب وقلت:

- دا بالفصحى..

لتقول «سيرا» بنفاد صبر:

- زمان كنا بنكتب جوابات لبعض بالفصحى لازم.. يلَّا كمِّل..

نظرت إليها وابتسمت ساخرًا من تعجُّلها، وقرأت:

- **«كل لعبة بحث عن كنز تبدأ بلغز يا (عيسى).. القواعد بسيطة.. سأعطيك لغزًا يدلك على مكان.. في المكان ستجد شيئًا ما.. ستعطي هذا الشيء لـ(سيرا) فتعطيك الجائزة.. الجائزة هي الفيديو الثاني.. تنفِّذ الأمر الذي أعطيك إياه في الفيديو الثاني.. عندما تنفذه ستعطيك (سيرا) الكارت التالي فيه لغز ثانٍ.. وهكذا».**

عقدت حاجبيَّ، ياللمراهقة المعقدة، لماذا كل ذلك المجهود؟ أكملت قراءة لأجده يجيبني - اللعين - عمَّا يدور في عقلي:

- **«متعة اللعبة يا (عيسى) في صعوبتها..**

اسم اللعبة "إذْمَا".. منذ شهور قال لي مدرس اللغة العربية، عندما اكتشف أن جدي "عبد الآخر العسال" كان معلمه وصاحب أفضال عليه، أن هناك أداة شرط جازمة لكنها نادرة الاستخدام، "إذْمَا"، وهي ببساطة دمج لـ"إذا ما".. تجزم فعلين مضارعين بعدها.. أعجبتني المعلومة وظلت عالقة بذهني، حتى وقت تخطيطي للعبتنا معًا.. اكتشفت أن لعبتنا معًا يا (عيسى) تعتمد على أداة الشرط تلك، لا بُدَّ أن تتحرك قليلًا.. حتى تستطيع

أن تجد كل شيء تركته لك... حتى تجدني داخلك..

لا أدري في أي وقت نسيتني.. لا أعلم ما الذي حدث لك.. لكني أعرف أنك استسلمت لسببٍ ما، أقوى منك ومني، داخلك.. الذي يجعلك تنساني لا بُدَّ أن يكون شيئًا أكبر من احتمالك.. شيئًا لم تخبر به أحدًا كعادتنا.. سجنته داخلك، وكي تجد مساحة تكفيه نسيتني؛ لذا أرجوك.. تحرك معي.. لديَّ كلام مهم جدًّا في الفيديو الثاني.. في النهاية أنا وأنت نكره الخسارة في اللعبة.. فلتلعب بقوانيني قليلًا.. اترك كل شيء داخلك يخبرك أن ترفض.. واقرأ اللغز الأول الذي لن يحله سوانا».

قالت «سيرا» عند هذه النقطة:

- اقرا اللغز بس بصوت عالي..

نظرت إليها لأجد عينيها في بطاقة المعايدة معي، لم أبالِ، قرأت بصوت عالٍ:

- «عمك (جاهين) قال:

أوصيك يا ربي لما أموت.. والنبي..

ما تدخلنيش الجنة.. للجنة سور..

ونحن مثله يا (عيسى) لا نحب الأسوار.. يزرعون فينا فكرة "السور" منذ الصغر.. كيف تضع حدًّا لكل شيء تريده أو تحلم به.. لهذا نكره السور حتى لو كان يحمينا من كل ما هو آت في المستقبل.. وسنظل طوال عمرنا إما نريد أن نهده..

أو نحلق عاليًا فوقه..

وفي نهاية اللغز أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذْمَا يبدأ.. يجدني.»

انتهى الكارت، ابتسمتُ في شجن، عدَّلت «سيرا» من جلستها بجانبي ووقفت تنظر إليَّ بترقُّب، كان اللغز سهل الحل، لكني تذكرت كل ما يتعلق بتلك الفترة الطويلة من حياتي.. قالت «سيرا» بابتسامة حانية وعين تربت

على روحي الكئيبة مهوِّنة:

- عرفت الحل؟

ابتسمت ونظرت إلى كاميرا الهاتف، قلت بابتسامة وأنا أغلق بطاقة المعايدة:

- المدرسة..

صفقت «سيرا» بيدها، وقالت مشيرة إلى الكاميرا كأنها تريد أن أوضّح للجمهور الذي سيتابع عند انتهاء الفيلم:

- وعرفت ازاي؟

هززت كتفي وأنا أتذكر بصعوبة، قلت بابتسامة:

- أنا وهو كنا بنكره سور المدرسة عشان بيحدد الخروج من الباب بس.. وأول مرة أنط من على السور في حياتي عشان كاره فكرته كانت في المدرسة..

ثم قلت ساخرًا وأنا أشير إليها بالبطاقة:

- بس هو خاف إني مافتكرش موضوع السور.. فكتب جملة هبلة بتاعة «بيحمينا من المستقبل»..

نظرت إليَّ في عدم فهم فضحكتُ قائلًا:

- أنا وانتِ كنا في مدرسة المستقبل..

نظرت إليَّ باستخفاف، لم تتوقع سذاجة اللغز، فأشرت إليها معتذرا، ضحكت «سيرا» معي لحظات، ثم ذهبت لتنظر إلى الكاميرا قائلة بابتسامة:

- الكنز الأول في المدرسة.. هنروح دلوقتي نشوف «عيسى الصغير» سايب لنا إيه هناك..

تأملتُها بابتسامة، لم يكُن يعجبني ما تفعله من أداء استعراضي مباشر، بالتأكيد سأحذفه في مونتاج الفيلم التسجيلي بعد الانتهاء.. اتسعت ابتسامتي رغمًا عني.. مونتاج الفيلم؟ هل بدأت أفكر في تنفيذه فعلًا؟

الخطوة السابعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تنغمس

في شغف جديد.. أيًا ما كان نوعه.. لا تُبالِ بعرف ومجتمع وقيود.. انغمس في شغف يسرق عقلك ولو للحظات قليلة..

لأذهب إلى مدرسة المستقبل..

* * *

وقفنا أمام المدرسة ننظر إليها..

كم تغيَّر كل شيء فيها!

عندما دخلت المدرسة كانت مدرسة تجريبية جديدة، كانت دفعتنا أول دفعة تطأ أقدامها محرابها التعليمي، كانت كالشابة النضرة بطلائها الجديد ومبانيها المتميزة وقتها.. الآن، شابت أطرافها ودهستها آلاف الأقدام، يبدو عليها الكبر، وتهدلت أكتافها وضربت التجاعيد ذلك السور العالي.. بدا عليها القدم مقارنة بالمدارس الحديثة ذات النظام التعليمي الأحدث..

مثلي تمامًا..

كان الوقت قرب غروب الشمس، انتهت مواعيد الدراسة الرسمية.. جلسنا أنا و«سيرا» في العربة أمام البوابة الرئيسية.. قالت «سيرا» وهي تنظر إلى المدرسة بصوت حائر:

ـ هنعمل إيه؟

كانت تسجِّل كل شيء بكاميرا هاتفها المحمول الحديث، نظرتُ إليها بجهل حقيقي، ما الذي سنقوله كسبب منطقي للدخول؟! الآن المدارس ـ الحديث منها والقديم ـ تبالغ في التأمين.. والآن على ما أتذكَّر هو مواعيد المجاميع الدراسية التي تحاول الحكومة محاولة فاشلة استبدالها بالدروس الخصوصية، نظرت إليها لا أدري ما أفعل، ثم غمزت بعيني فجأة وقد خطرت لي فكرة:

ـ هادخلها زي ما خرجت منها..

نظرت إليّ في استفهام، قلتُ لها مبتسمًا:

- آخر يوم ليا في المدرسة بعد ما ثانوية عامة خلصت، حلفت إن آخر مرة أخرج منها لازم تبقى مميزة..

ثم صمتُّ قليلًا لأبتلع ريقي وضحكت قائلًا:

- نطيت من على السور.. عشان مش أنا اللي أخرج من الباب عادي زي كل الناس.. وفعلًا مادخلتهاش من بعدها..

لتسأل السؤال المتوقَّع:

- وانت عاوزنا دلوقتي ننط من على السور؟

أومأت برأسي بحماس، على الرغم من حماقة الفكرة، لكن انتابتني حالة لم أستطِع تفسيرها، قلت بسرعة:

- تعالي معايا بس..

خرجتُ من العربة في خطوات سريعة، لتتبعني هي في استسلام، وصلت إلى المكان الذي اعتدت أن أقفز من على السور منه، كان سور مبنى الحضانة، كان أقصر من بقية الأسوار، وهناك بعض الأحجار البارزة التي تساعد في التسلق. كانت «سيرا» تصور كل هذا ممسكة هاتفها على ما يسمونه «selfie stick»، تصورني معظم الوقت وتصور نفسها معي أحيانًا أخرى.. بدأت في التسلق لتقول هي أغرب شيء توقعت سماعه:

- أنا لابسة كعب!

لأقول وأنا أتسلق بصعوبة وارتجاف جسدي كله يهز صوتي:

- اقلعيه..

تعثرت في طوبة بارزة فكدتُ أقع، سمعت شهقتها، لكني تماسكت، فيما مضى كنت أتسلقه بقفزة واحدة، لكن ثمانية عشر عامًا كفيلة بذهاب اللياقة البدنية للجحيم، ألصقت جسدي بالسور، وقبل أن أفقد توازني وأجد وجهي يصافح أسفلت الطريق من تحتي، استندت بيدي العالقة في

العرق في جذبة أخيرة، دفعت بقدمي نتوءات السور لأصل لاهثًا إلى قمته..
شعرت بانتصار غريب، تأملت ما حولي من أعلى السور وضحكت، صافحتني نسمة هواء باردة فأغمضت عيني..
نفس عميق..
وزفير يخرج من شفتين مبتسمتين..
نظرت إلى «سيرا» المبتسمة التي قالت:
- ربنا معاك بقى.. أنا هاستناك هنا..
أشرت لها بيدي أن لا، مِلتُ بجسدي كله بحيث نمتُ بعرض السور على بطني، مددت يدي لها وقلت:
- يلّا.. ولا نسيتي زمان؟!
قالت ضاحكة وهي تناولني عصا التصوير:
- يابني عندي تصوير حلقة في برنامج مع منى الشاذلي كمان أسبوع.. أروحلهم رجلي متجبِّسة؟
لكن مع جملتها كانت تقترب، أعجبتها الحالة كما أعجبتني، خلعت حذاءها ذا الكعب العالي، أمسكته في يدها اليسرى وركضت فجأة لتستند على السور بقدمها وتدفع نفسها لتمسك يدي، تشبثَتْ بيدها اليمنى في يدي، آلمني ذراعي بشدة فقلت ضاحكًا:
- انتِ تخنتي عن زمان قوي..
لترد لأول مرة بطريقة «سيرا» القديمة مع «عيسى»:
- انت اللي بقيت مكحكح..
وتسلقت بقدميها ببطء، معتمدة على يدي، ثم تسلقتني لتمسك بيدي الأخرى وتهبط من الناحية الأخرى، لأقفز جانبها..
آلمتني القفزة للغاية لأدرك حماقتي، فيما مضى كانت الأرض رملية، الآن

تحولت إلى أرض صلبة، سمعت صوت ارتطام أسناني ببعضها، لكني تجاهلت الألم المبرح حفاظًا على ما تبقّى من رجولتي أمام «سيرا»..

على الرغم من عرقي الغزير، فإنني ابتسمت وأنا أنظر حولي متأملًا المكان الخالي..

لقد أصبحنا داخل المدرسة..

قالت «سيرا» وهي تلهث مثلي ناظرة إلى الحوش الواسع أمامنا، خلفه مبنى الحضانة:

-ها بقى.. «عيسى» كان عاوزنا نيجي هنا ليه؟

نظرت إليها في حيرة، لم يقُل شيئًا عن المكان الذي سأجد فيه ما يسميه الكنز، عقدت حاجبيَّ في حيرة.. ثم تذكرت..

* * *

-يابني مش منظر، لو حد من صحابنا دخل علينا ولقانا في كابينة واحدة جوَّه الحمام مش هانخلص..

قالها «صالح» لي في غضب، كنا في الثانوية العامة، وكنت واقفًا على المرحاض بقدمي بالزي الرسمي للمدرسة وهو يسندني من الخلف، أشبُّ بجسدي كي أنظر من النافذة العالية كي أرى شرفة شقتها من خلال النافذة، وكان هو يسند ظهري كي لا أقع، قلت وأنا أضحك:

-ما هو أنا مش هامشي غير لما تطلع «نسمة» تطمني عليها. إحنا متفقين إنها لو غابت تطلع تطمِّني من البلكونة..

قال في غيظ:

-تطمنك عليها ليه؟ هي بتحارب؟ دي قاعدة في بيتها بتذاكر زي الناس المحترمة..

وأكمل غاضبًا:

- مش قاعدة في حمام ريحته زي الزفت..

لم تكُن الهواتف المحمولة منتشرة وقتها، كنت أنا الوحيد الذي أمتلك هاتفًا وسط أصدقائي وكان ممنوعًا في المدارس، كما كنت أكبرهم سنًا بعامين كاملين، ألحقتني أمي بالمدرسة متأخرًا فكنت أكبرهم جميعًا - حتى «سيرا» - وكانوا يحترمونني لهذا السبب..

لم أعبأ بكلامه، تشبثتُ بإطار النافذة الألوميتال بحماس، عندما وجدت باب شرفتها يُفتح، وتخرج «نسمة» منه متدثرة بغطاء، كانت تسكن في المبنى المقابل للمدرسة مباشرة، والشباك الوحيد الذي يطل عليها هو شباك هذا الحمام.. ابتسمت في سعادة عندما خرجت وهي تنظر إليَّ، كانت المسافة بعيدة نسبيًّا، لكننا كنا نرى بعضنا جيدًا..

لوَّحتُ لها في سعادة.. لترسل لي قبلة في الهواء.. مثَّلت أنني آخذها لأضعها على قلبي كأي مراهق يحترم نفسه.. لكن تلك الحركة المفاجئة فعلت شيئًا ما في النافذة، لأجد الإطار الخارجي ينخلع فجأة، وأفقد توازني..

وأسقط فوق «صالح» مباشرة..

* * *

ابتسمت فجأة وأنا أتذكر، نظرت إلى «سيرا» بحماس وقلت:

- تعالي معايا..

وأمسكتُها من يدها، أمسكَتْ هي عصا التصوير مني؛ لأني لم أكُن بالبال الرائق لأصوِّر، دخلنا مبنى طلاب الثانوية العامة، منذ ثمانية عشر عامًا وهو مميَّز بأنه من الطوب الأحمر، يحدُّه إطار مدهون باللون الأبيض بطول المبنى، صعدنا إلى الدور الرابع، بدأتُ ألهث من الدور الأول، كنت فيما مضى أقفز سلمتين معًا حتى أختصر الوقت، قالت «سيرا» كي تملأ ذلك الصمت في فيديو التصوير:

وصمتت لحظة ثم قالت بفضول:

- بس انت ليه بتتكلم عنك زمان كإنك واحد تاني؛ «عيسى» عاوز.. «عيسى» قال.. ليه مابتقولش: «أنا كنت عاوز»؟

قلت باقتضاب:

- عشان هو فعلًا واحد تاني..

لم تعرف بماذا ترد، فقالت:

- طب إحنا طالعين فين؟

ابتسمتُ في خبث، قلت لها وأنا أحاول أن أتغلَّب على لهاثي كي لا أبدو عجوزًا في الفيديو:

- عارفة إيه الحاجة الوحيدة اللي عمرها ما بتتجدد في المدارس التجريبية؟

لم تُجِب، وصلنا إلى الدور المنشود، الدور الرابع، الأخير، نظرت إلى الفصل الذي أخذ من عمري ثلاث سنوات، ثم تجاهلته وذهبت إلى الحمام مباشرة مكملًا:

- المباني..

فتحتُ باب الحمام، هاجمتني الرائحة السيئة نفسها لتعيدني ثمانية عشر عامًا للوراء، رائحة بسيطة وغير محيرة، هي مزيج من تزاوج غير شرعي بين «الفنيك» والبول..

أضأتُ نور الحمام، ذهبت إلى الكابينة التي كانت تطل على بيت «نسمة»، خلفي «سيرا» التي قالت مبتسمة:

- أول مرة أخش حمام الولاد في المدرسة..

ثم أكملت ضاحكة:

- كنا بنتخيله أنا والبنات دايمًا إنه كله البتاعة اللي بتعملوا فيها حمام وانتو واقفين دي..

قلت وأنا أنظر إلى النافذة الألوميتال بعد كل تلك السنين:

- مبولة..

قالت باشمئزاز:

- أنا عارفة اسمها، بس مش باحب أقوله..

ابتسمتُ في انتصار وأنا أنظر إلى جانب إطار النافذة..

* * *

عندما وقعت فوق «صالح»، الذي صرخ من الألم عندما ارتطمنا معًا بالأرض، لاحظتُ وأنا نائم على ظهري تلك الطوبة الحمراء التي تحركت من مكانها عندما خلعتُ إطار النافذة، نهضت مسرعًا ونهض هو خلفي يصرخ وينفض ملابسه:

- اللـه يحرقك يا أخي..

وانصرف غاضبًا، لكن تلك الطوبة أثارت فضولي، صعدت ثانية على المرحاض، زحزحت الطوبة من مكانها لأجدها تخرج معي بسلاسة..

كانت نصف طوبة فقط، تم شطرُها نصفين بالطول، ولا وجود للنصف الآخر، وضعتها ثانيةً لأكتشف ذلك التجويف الكبير الذي أحدث النصف المفقود..

لتأتي في عقلي فكرة عبقرية..

* * *

قالت «سيرا» في تساؤل عندما وجدتني أشير إلى الطوبة:

- إيه دي؟

قلت لها مبتسمًا:

- الطوبة دي هي السبب إني بقيت أكتر واحد عبقري في الدور كله..

اتسعت عيناها وهي تتذكر فجأة:

كان مصطلحًا قديمًا تم إطلاقه على [illegible]
كان لا يخلو دائمًا من علبة سجائر توزَّع على الأصدقاء دائمًا، فباكتشافي هذا وجدت مكانًا يجعلنا نشرب السجائر من دون الحاجة إلى الخروج من المدرسة، ندخل الحمام، نزيح الطوبة ونجد العلبة سليمة، تلبّي النداء.. وصل التقدير من الأصدقاء أنهم أطلقوا عليه «زخنوق عيسى».. لأصبح أنا أكثر الأولاد المحبوبين وسط الشلة الفاسدة والشلة الطيبة..

أومأت برأسي أن نعم، وقفت على المرحاض الذي تم تجديده فأصبح أكثر ثباتًا، زحزحت الطوبة التي لم يمسها أحد لمدة ثمانية عشر عامًا، خرجت من مكانها بسلاسة كما كانت تفعل دائمًا، لأجد وراءها علبة معدنية داخل كيس بلاستيكي شفاف مغلق بإحكام، شهقت «سيرا»، في حين نظرت أنا إلى الكيس الذي امتلأ بالأتربة وتغيَّر لونه وأصبح مهترئًا للغاية..

انتابني إحساس غريب لم أفهمه، شعرت أنني أقترب من شيء ما لا أدري كنهه..

قلت لـ«سيرا» بهدوء:

ـ افتحي حنفية الحوض بسرعة..

نفَّذت «سيرا» من دون تفكير، لأمسك الكيس بأطراف أصابعي وأهبط مسرعًا على الحوض وأضعه تحت الماء مباشرة..

وكما توقعت.. كمُّ النمل الذي خرج من الكيس مع الأتربة كان غير طبيعي.. كنت في صغري مقتنعًا أن النمل لا يخترق الأكياس البلاستيكية، الآن كبرت وفهمت، حمدت الله أنني وضعتُ ما أريد في علبة معدنية مصمتة.. صدئت تمامًا من الخارج..

قرَّبت «سيرا» الهاتف من العلبة، انتهت عملية التنظيف، أمسكتُ العلبة، نظرتُ إلى الكاميرا وابتسمتُ، قالت «سيرا»:

ـ انت فاكر سبت لنفسك إيه؟

[illegible] نظرت إلى العلبة وفتحتها في

هدوء لأجد ما نسيته تمامًا..

قلم «يونيبول» جاف، أزرق اللون..

* * *

- القلم دا هيبطلوا إنتاجه خلاص.. مش هينزل تاني..

قلتها لـ«نسمة» بحزن شديد، فنظرت إليَّ في حب وهي تمسك يدي، كانت هي أول من أهداني هذا القلم في أول سنة في الإعدادية، قلم «يونيبول Laknock» ذا الخط بسمك «١ , ٠».. أكملوا إنتاج الخط الأكثر رفعًا والأكثر سمكًا، لكن هذا النوع بالذات أوقفوا إنتاجه..

عندما أهدتني «نسمة» القلم، ظللت أمسكه في يدي طول الوقت ولا أتركه، أكتب به كل أفكاري ومذكراتي، حتى اشتهر أيضًا وسط أصدقائي المقربين بقلم «عيسى».. وصل الأمر إلى أنني كنت أبتاع علبة كاملة منه حتى تنتهي وآتي بغيرها..

وأتى اليوم الذي يخبرني فيه صاحب المكتبة، الذي يعلم أنني لا أكتب إلا به، أن القلم سيتم وقف إنتاجه واستبدال نوع آخر به..

لأشعر أنني أفقد جزءًا من روحي..

قالت «نسمة» مهوِّنة بعقلية فتاة في السادسة عشرة:

- ماتزعلش.. أنا بحبك.. وهاجيبلك غيره..

لم أستطِع أن أخبرها أن القلم أصبح أكثر أهمية منها، كانوا يقولون إن الجماد يأخذ من طاقة صاحبه، وهذا القلم كان فيه من طاقة روحي كثير، ابتسمت لها مجاملًا ونظرت إلى القلم بحزن..

* * *

نظرتُ إلى القلم بحنين..

آخر نسخة تم إنتاجها من المصنع لذلك النوع من الأقلام في يدي الآن..

آخر نسخة بالنسبة لي على الأقل..
مددتُ أصابعي المرتجفة وأمسكته، شعرت أن هناك شيئًا يتسرّب داخلي من خلاله، مشاعر غريبة فقدتُها منذ زمن بعيد، استكان القلم على الفور داخل يدي التي اعتادت حمله، كنت أقول ساخرًا وقتها إن يدي تشكّلت على هيكله، أدرتُ القلم بين أصابعي في حركة احترفتُها في ذلك العمر، ليستجيب القلم لأصابعي ويدور في سرعة، تاركًا نفسه لتلك الرقصة البسيطة التي رقصها بين أصابعي مرارًا..
اتسعت عيناي في حنين، ضغطتُ عليه، ليخرج سنه الذي طالما طفح في جيبي، كان أنبوبه فارغة؛ لأنني وضعته هنا بعد أن انتهى حبره، ضغطت عليه أكثر من مرة ليصدر صوت التكتكة المحبب إلى قلبي..
ابتسمتُ ابتسامةً من قلبي لم أبتسم مثلها منذ زمن..
نظرت إلى «سيرا» التي كانت تنظر إليَّ دامعة، قالت مبتسمة:
- «عيسى الصغير» كان حلو قوي..
أومأت برأسي أن نعم، لتبتسم «سيرا» وتقول:
- انت دلوقتي تستاهل الجايزة، وهتشوف الفيديو التاني..
كدت أخبرها أن عودة هذا القلم بكل ذكرياته تكفيني، ابتسمت وقلت بصوت متهدِّج:
- أنا مش مصدق..
للحظة اعترفت بيني وبين نفسي أن «عيسى» القديم كان عبقريًّا.. كان يعرف تمامًا أهمية هذا القلم..
سمعنا صوت صدى خطوات تصعد السلم، نظرت «سيرا» حولها في خوف وقالت:
- نور الحمام..
قلت لها وأنا أضع العلبة الصدئة في جيبي:
- عارفة إيه تاني أحلى حاجة في المدارس؟
لم أنتظر إجابتها وأنا أقول مسرعًا وأطفئ نور الحمام:



- إن كل الأدوار ليها سلمين..

أمسكتُ يدها مسرعًا وركضنا خارجين ذاهبين إلى السلم الأبعد، هبطنا مسرعين ليلاحظنا رجل الأمن من الناحية الأخرى، فصرخ شيئًا لم نسمعه لكننا ركضنا بسرعة أكبر..

لن يفهم أحدٌ أن رجلًا في السادسة والثلاثين وامرأة في الرابعة والثلاثين تسللا إلى المدرسة في الليل فقط ليعثرا على قلم قديم..

ركضنا الحوش كله مسرعين، وصلنا إلى السور، شبكت يديَّ لـ«سيرا» التي لم تضيع الوقت وقفزت برشاقتها لتعتلي السور، تبعتها مسرعًا وكدت أقع مرات كثيرة من صعوبة التسلق، لكنني فعلتها في النهاية وهبطت سالمًا إلى الناحية الأخرى، ركضنا للعربة، وما إن دخلناها حتى انطلقنا مسرعين..

خلفنا يركض رجل الأمن صائحًا، يسمع ضحكاتنا العالية من العربة وهي تذهب مبتعدة عنه..



(٥)

الأمر الثاني

وراكل شباك ألف عين مفتوحين

وانا وانتي ماشيين يا غرامي الحزين

لو التصقنا نموت بضربة حجر

ولو افترقنا نموت متحسرين..

عجبي!

صلاح جاهين

ـ لقيت القلم؟

قالها «عيسى الصغير» متسائلًا في أمل حقيقي..

أومأت برأسي إيجابًا، اشتعل فضولي، فأخذت الفلاشة من «سيرا» فور عودتنا، استحممت بسرعة، انتظرتها حتى صعدت إلى السطح كي ترى معي الفيديو الثاني، وضعت الفلاشة في التلفاز الجديد ـ الذي كان أكبر من تلفازي ـ وبدأت تسجيل الحدث على الهاتف كالمعتاد، ووقفت أمام التلفاز، وجدت ملفًّا مكتوبًا عليه «الأمر الثاني».. وملفًّا آخر مكتوبًا عليه اسمها.. «نسمة»..

فتحت الفيديو الأول لأجد «عيسى» يسأل سؤاله..

مددت يدي لأريه القلم، ضحكنا معًا، فهمت أنه كان يريد وقتها أن يبدو الفيلم كأننا نُحدِّث بعضنا، أن هناك تفاعلًا ما؛ لذا ضحك هو ضحكة مفتعلة، في حين ضحكتُ أنا ضحكة حقيقية من قلبي..

قال هو غامزًا بعينه:

ـ معنى كدا إن زخنوق «عيسى» هيفضل بتاعنا لحد ما نموت..

ثم رفع إصبعه وقال:

ـ طبعًا هتسألني كان إيه اللي هيحصل لو المكان اتجدد أو قفلوا الزخنوق أو عوامل التعرية حصلت، ساعتها هاقولك: عشان أنا عبقري حاجة زي كدا ماتفوتش عليا، فيه نسخة تانية مع «سيرا».. كانوا آخر قلمين محتفظ بيهم.. و«سيرا» ما كانتش هاتديك القلم إلا لما كنت تروح المدرسة برضه..

ابتسمت في هدوء، شعرت بالغيظ من «سيرا» قليلًا، قالت «سيرا» في خجل:

- بس احمد ربنا إنك لقيته عشان هو ضاع مني..

نظرتُ إليها بدهشة، قالت معتذرة:

- واللـه غصب عني..

قلت بابتسامة مهوِّنة:

- يا بنتي إيه الهبل دا؟! كفاية كل اللي بتعمليه أصلًا..

لهذا سمعت شهقتها عندما رأت «سيرا» الكيس البلاستيكي، كان طوق نجاة للمشروع كله بالنسبة لها..

اعتدل «عيسى» في جلسته، بدأ يتحدَّث وهو يشير بيده كثيرًا، فعرفت أنه سيكون جادًّا في كلامه القادم:

- القلم فيه كتير قوي مننا.. كان أول حاجة قريبة قوي كدا وتروح مننا.. أول خسارة اللي بعدها جت الخساير كلها.. بس دا مش موضوعنا.. الأمر التاني اللي لازم تعمله إنك تكلم الشخص اللي اتربط بالقلم دا.. هاتدوَّر على «نسمة» وتكلمها.. عشان تسجل معاها الإنترفيو..

عقدت حاجبيَّ في حيرة، كيف سأصل إلى «نسمة» الآن؟

أكمل «عيسى» بهدوء وهو يبتسم:

- عارف إن الموضوع صعب.. بس لو هي ما رضيتش تصوَّر عشان أي سبب.. اسألها سؤال واحد بس..

ومال على الشاشة أكثر لينظر إليَّ بعينيه الحانيتين اللتين تخترقان كل الحواجز:

- أنا كنت عامل ازاي في عينيها؟

واعتدل ثانيةً وابتسم، ولوَّح لي بيده مودِّعًا، لتظلم الشاشة كلها..

تاركًا إياي في حيرة كما يفعل دائمًا..

* * *

لاحظت أنني لم أترك القلم، وطول الوقت أديره بين أصابعي في حركة معتادة اشتقتُ إليها، نظرت إلى «سيرا» التي بدت في عينيها نظرة واثقة، فسألتُها وأنا أضيّق عينيّ:

- فيه إيه؟

قالت بفخر وهي ترفع شعرًا متناثرًا على جبينها:

- مابحبش أتكلم عن نفسي كتير..

ثم قالت بابتسامة:

- بس هي لسّه عندي على «فيسبوك»..

ابتسمت في ارتياح، نسيت تمامًا أن الحل الأسهل دائمًا هو «فيسبوك»..

تذكرت كل حساباتي المسروقة.. نفضت الفكرة بسرعة حتى لا يضيق صدري وقلت لها:

- انتِ بقالك قد إيه بتحضَّري للموضوع دا؟

رفعت رأسها للسقف كأنها تتذكَّر، قالت بابتسامة:

- يعني من سنة سنتين كدا.. بعد انفصالي على طول..

لتجبرني إجابتها أن أنسى كل شيء عن «نسمة» وعن «عيسى الصغير»..

«سيرا» مطلقة؟!

أدركتُ أنني في قمة الأنانية.. كيف لم أسألها حتى الآن عن أي شيء عنها؟! كل ما أعرفه عنها يخص «سيرا» صديقة المدرسة.. لكن مستقبلها لا أعرف عنه سوى أنها ممثلة مشهورة ناجحة..

قلت معتذرًا:

- أنا زبالة قوي.. أنا ما سألتكيش عن أي حاجة عنك.. انتِ اتطلقتي؟

لم أكُن أعرف أنها تزوجت في الأساس، أومأت «سيرا» برأسها إيجابًا، قالت بنبرة هادئة:

- فكّك، أصلًا أنا مش حابة أتكلم عن حاجة نكد في المود الحلو دا.. أنا رجعت هنا عشانك وعشان مشروعك.. مش عشان نقعد نرغي في كلام مش هيقدّم ولا يأخّر..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٩ - «تخرج منها واهنًا غير قادر على الحكي للآخرين.. يصيبك الخرس خلال العلاقة وتلازمك اللعنة بعد انتهائها.. كثرة التفاصيل المرهقة التي استنفدتك، تجعلك غير قادر على الكلام.. هناك يقين داخلك أنه لن يفهم أحدٌ مقدار التشوه.. فتصمت وتحاول أن تبقى وتستمر وتستجمع روحك ثانية»..

ابتسمت ناظرًا إليها، فاهمًا ما تقوله، لتخبط هي بيدها على قدمها، وتقول مغيرة للموضوع:

- المهم دلوقتي.. هنعملّك أكاونت جديد.. وتخش تكلمها منه..

وأكملت شارحة:

- أصل أنا كنت عارفة حل الكنز التاني.. بس التالت هاموت وأعرفه..

حسنًا..

لأنفّذ الأمر الثاني حتى أستطيع أن أكمل تلك الرحلة..

* * *

لم أكُن أرغب في أن أنشئ حسابًا جديدًا على مواقع التواصل الاجتماعي، ربما لأملٍ داخلي أن «أسماء» ستستعيد عقلها وتعيد كل الحسابات، هي عصبية لكنها طيبة وحنون، أو هذا ما كنت أعرفه عمَّن كانت زوجتي.. الكائن الغاضب الذي يدمِّر كل ذكرى جيدة بيننا الآن لا أعرف عنه شيئًا..

الخطوة الثامنة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تنسى ما أظهروه من مميزات في شخصياتهم.. وتبدأ تذكُّر مميزاتك التي تم محوها في أثناء العلاقة.

تولت «سيرا» الأمر، أرسلت رسالة لـ«نسمة» على تطبيق الفيسبوك، تخبرها بالأمر كله، أن «عيسى الشواف» يريد أن يحدثها قليلًا، رحَّبت «نسمة» بشدة.. عندما أخبرتها «سيرا» أننا ننفِّذ هذا المشروع القديم بالفعل، ضحكت «نسمة» بشدة، وقالت ما جعل قلبي يخفق في إحساس لم أفهمه..

كتبَتْ:

- والله واحشني جنانه..

ابتسمتُ في تعجب عندما قالت ذلك بأريحية، تبادلتا أرقام الهاتف وأخبرتها «سيرا» عن ميعاد مناسب للاتصال، لتكتب أن أتصل الآن.. تعجبت للحظة من سرعة استجابتها، أخبرتها «سيرا» أن المكالمة ستكون مسجلة لوضعها في الفيلم التسجيلي، فلم تمانع «نسمة»..

خفق قلبي في خوف لم أفهمه، توقعتُ أن يكون الأمر أصعب من هذا قليلًا، ثم إنها «نسمة»، أول علاقة حب في حياتي بأكملها.. أول شعور جارف يجتاحني.. أول بطلة من لحم ودم تحتل خيالي وأحلم بها.. أول كل شيء في قلب بريء يفيض بالمشاعر..

كل ما عرفته عن «نسمة» أنها تزوجت وأنجبت طفلين، هذا كل ما أعرفه..

شعرت بالتوتر وأن الهاتف المحمول ثقيل في يدي قليلًا، لكني خرجت للسطح وطلبت الرقم، كان تطبيق تسجيل المكالمات يعمل تلقائيًّا عند أي اتصال، ضرب الهواء وجهي فشعرت برجفة تجتاحني..

صوت الجرس..

أغمضت عيني..

نفس عميق.. ثم زفير يعيد كل الذكريات العاشقة..

- «شوااااااف»!

سمعت صوتها الفرح يرد على المكالمة، ما زال صوتها رائعًا لم يتغير، كانت «نسمة» هي الوحيدة في حياتي التي تشعر بضحكتها في صوتها وهي

تتحدث، ابتسمت في سعادة حقيقية، قالت:

- انت مختفي فين يابني؟ عامل إيه؟

ابتسمتُ ونظرت إلى الأرض، مشاعر متضاربة ضربت قلبي، بين حنين واشتياق لتلك الفترة، وبين أنني أحدث شخصًا عرف عني كثيرًا واختفى، قلت بصوت خافت، يرتجف:

- عايش..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٠ - «بعد فترة لن تجد أي رد مناسب على سؤال (كيف حالك؟).. إلا أنك ما زلت تتنفَّس.. لأنك بالفعل لم تعُد تعرف أكثر من هذا عن نفسك»..

ساد الصمت، ردي المقتضب جعلها تصمت متسائلة؛ لذا قلت وأنا أمشي ببطء على السطح:

- أنا عارف إن فيه سنين كتير قوي عدت.. وأكيد ناسياني.. بس لازم أسألك سؤال، «عيسى الصغير» قالي إني أسأله..

ضحكت بشدة، ما زالت ضحكتها تطرب قلبي، ضحكة مرحة رائقة، قالت:

- مين «عيسى الصغير» دا؟ ما انت «عيسى» يابني ماتلخبطناش..

ضحكت تلك الضحكة التي تخرج في شكل تنهيدة قصيرة، قلت مقاومًا أن يبدو على صوتي الحزن:

- الدنيا مش سهلة قوي كدا..

شعرت هي بالجدية في صوتي، خرج صوتي متحشرجًا، تحولت نبرتها إلى الجدية وهي تقول:

- بس انت عمرك ما تتنسي..

أشعلت سيجارة وأنا أنظر لكل ما حولي بعين شاردة، لا أدري ما تلك الحالة من الشجن التي اجتاحتني، إحساس بالألفة، أنني أخيرًا أحدث

شخصًا يعرفني حقًا، أول من آمنته على ضعفي في شكل حب لا يعرف الخوف، قلت بصوت تائه:

- طب لو مافيهاش رخامة.. تقدري تقوليلي أنا كنت عامل ازاي؟ لما كنا صحاب ولما حبينا بعض أربع سنين من عمري.. كنت عامل ازاي؟

ما هذا الذي أقوله؟ كيف أتحدث بهذا الأسلوب المباشر الذي يفتقر إلى أبسط قواعد الذوق والأدب؟

وكيف تهت عن كل شيء في لحظة بسيطة كتلك؟

قالت «نسمة» بجدية:

- مش فاهمة!

نظرت حولي ثانية، سمعت صراخ «أسماء» في أذني..

انفتح باب كنت قد أغلقته تمامًا ولا أريد أن أفتحه..

* * *

- انت أوسخ راجل عرفته في حياتي..

قالتها «أسماء» صارخةً، ناظرةً إليَّ بعينين تريدان أن تقتلاني، وأكملت باكيةً فجأة:

- انت بتوجعني ببرودك دا..

لتركض ناحيتي وتحتضنني..

فأحتضنها مهوِّنًا، بعينين مثبتتين على الضمادة التي لفَّتها حول رسغها..

ضمادة تخفي جرح انتحارها الذي فشل منذ أسبوعين فقط..

* * *

قلتُ لـ«نسمة» وأنا أكاد أكسر الهاتف من قوة ضغطي عليه:

- أنا بعدك عشت عادي.. حبيت واتحبيت ووجعت واتوجعت.. اتجوزت وطلقت.. كل دا خد مني كتير.. طاقة مستهلكة غيَّرت في روحي بطريقة

سخيفة.. أنا نسيت أنا كنت عامل ازاي..

ثم أكملتُ كطفل تائه:

- أنا مش فاكرني خالص يا «نسمة»..

* * *

قالت «أسماء» يومًا ما:

- أنا مش مستحملة.. أنا كنت كويسة قبل ما أعرفك.. أنا بقيت بني آدمة بشعة.. أنا عمري ما كنت كدا.. أنا حاسة إني قرفانة من نفسي..

عندما يخبرك أحد ينام معك ويشاركك كل لحظة في حياتك بأكملها أنك رجل قذر، رغمًا عنك تصدقه..

لذا فقد ابتسمت لحظتها وقلت مُلغيًا كل ما يتعلق بما أعرفه عن نفسي:

- أنا مصدقك.. أعمل إيه عشان حياتنا تبقى أحسن؟ أنا ممكن أعمل إيه؟

لترد باكية ردها القاتل:

- بعد إيه؟ مافيش فايدة.. عمرك ما هتتغير.. انت مافرقتش حاجة عن جوزي الأولاني...

* * *

هبطت دمعة من عيني، أريد أن أهرب من ذكرياتي اللعينة، قلت لـ«نسمة» وأنا أعرف أنها لا تشعر بكل ما يحدث داخلي:

- انتِ أول حد عرف يحبني بجد.. فكَّريني البني آدم اللي حبك دا كان عامل ازاي.. يمكن أعرفني تاني..

ليجيبني صمتها، سحبت أنا نفسًا طويلًا من السيجارة وخرج من شفتيَّ مهزوزًا، رقص الدخان المتهالك كروحي أمام عيني رقصة مرتبكة تائهة، لأسمع صوت نحنحتها، وهي تقول بصوت حنون:

- بص.. انت أكتر واحد في الدنيا فهمني.. لحد دلوقتي مافيش حد فهمني زيك.. لما كانت الدنيا بتبهدلني بلاقيني بجري عليك وعارفة إنك

هتعرف تطبطب وتفهم وتحتوي.. انت أكتر حد عرف تفاصيلي.. أكتر حد عرفني أكتر من نفسي..

ثم ضحكَتْ مكملةً:

- كان عندك قوة إقناع رهيبة.. وحلم مصدقه ونخلي كل اللي حواليك مصدقينه..

صمتُّ تمامًا، هذا ما كانت تقوله «أسماء»، هذا ما كان يقوله كل من أحببته وأحبني يومًا، لكنها لم تفهم السؤال الذي يحيِّر عقلي في كل مرة يقتل قلبي من ألم فراقهم..

ما الذي يتغير عندما يقتربون بشدة؟

ما الشيء البشع داخلي الذي يجعلهم عندما يرونه يركضون بعيدًا داهسين قلبي في الطريق؟

قالت «نسمة» بصوت متسائل:

- سكتّ ليه؟

لن يفهم أحد..

قلت محاولًا أن أعيد مشاعري خلف الباب لأغلقه تمامًا:

- مافيش.. أي حاجة فاكراها عني تانية؟

قالت بصوتها الهادئ الذي يغريني أن أحكي، وأنا لا أريد هذا..

- بصراحة لأ.. انت بتتكلم في ١٨ سنة..

- طيب.. تمام..

قلتها في هدوء، لقد أكثرت في الحديث و«عيسى الصغير» كان يريدني أن أسأل سؤالًا واحدًا فقط، أنا الذي طمعت في أكثر من هذا، وكأنها شعرَتْ «نسمة» بإحباطي، سألَتْ في نبرة مَن يعلم ما بداخلي:

- الإجابة ماعجبتكش؟

* * *

قلت لـ«أسماء» بعصبية:

- انتِ مش مبسوطة معايا.. أنا مش بعمل فيك حاجة عدلة.. تلات سنين متجوزين وحياتك مابتتقدمش خطوة.. وبتلومي فشلك عليا من ساعة ما جمعنا بيت..

آخر شجار بيننا قبل الطلاق..

كجثة هامدة، رقدت «أسماء» بجانبي تنظر إلى السقف بلا مبالاة.. غرفة نومنا كانت مظلمة كالمعتاد.. على فراشنا الواسع رقدنا.. ضوء خفيف يتسرب من شباك نافذة مكسور.. لا يسمح بمرور ضوء الفجر، وكذلك لا يعتم الغرفة بالقدر المطلوب..

كحياتنا تمامًا..

ظلت كما هي، فقط تحرك بؤبؤ عينها البارد لينظر إليَّ نظرة جانبية باردة، لأكمل:

- انتِ عمرك ما حبتيني.. بس بتحبي فكرة إنك جنبي.. متعلقة بيا زي أي مدمن بيستقتل إنه يكمِّل في إدمانه وهو بيموت.. أنا حاسس إني محبوس في الدنيا بتاعتك ومش عارف أتنفّس..

- ماتقلقش..

قالتها ببرودها العجيب.. شعرتُ بيدها الرفيعة تربت على ظهري فأردت أن أبتعد عن لمستها لكني لم أستطِع.. اشمئزاز غريب سرى في جسدي.. كيف أتقبَّل لمستها وأنا أشعر أنها ذلك السجان الذي حكم على روحي بالموت البطيء؟

اعتدلت «أسماء» من رقدتها الميتة ووضعت رأسها على كتفي.. أردتُ أن أخبرها أن تبتعد.. أن تتركني.. لكني منعت نفسي.. في النهاية أنا من لبست ثوب الحبيب المنقذ والزوج المسؤول والأب الحنون.. في النهاية، لا بُدَّ أن أحتملها مهما حدث.. هكذا وعدت ولا بُدَّ أن أنفذ.

هكذا وعدتُ وهكذا سجنتُ عقلي في قيد مميت..

قالت وهي تحدّق في اللاشيء:

- إحنا كويسين يا «عيسى».. أنا ماليش غيرك وانت مالكش غيري..

وعمري ما هاسيبك أبدًا..

كانت تلك جملتي الدائمة لأطمئنها..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١١ - «يتقمص الشريك السام شخصيتك تمامًا.. في كلامك ومزاحك ووعودك وقناعاتك وفلسفتك.. ينحّي شخصيته الحقيقية جانبًا ويأخذ منك.. حتى تملأ عقلك فكرة أنكما خُلقتما لبعضكما.. ثم تظهر الحقيقة بالتدريج عندما تكتشف أنه جرَّدك من أهم صفاتك وانتقدها حتى تغيَّرت داخلك.. وزيَّن بها نفسه للإيقاع بضحايا آخرين»..

نظرتُ إليها باستنكار..

هل كانت تسمع شخصًا آخر؟ هل هذا كل ما فهمته من كلامي؟ أردت أن أنهض وأصفعها على وجهها كي تستيقظ وتسمعني لمرة واحدة في حياتها.. أن تكفَّ عن سماع عقلها وتسمعني أنا..

لكني لا أستطيع..

شعرت بشيء ما ينسحب من جسدي ببطء.. ثم يموت داخلي..

الأمل..

الأمل في أن يسمعك ويفهمك من أمَّنته على قلبك..

هدأت شهقاتي.. تبدلت نظرتي الخائفة الباكية إلى نظرة ميتة..

كنظرتها..

سكن جسدي تمامًا كأنها عندما حضنتني نقلت لي عدوى موتها القاتل.

مال رأسي يمينًا وأخذت نفسًا عميقًا، وقلت كمن يعترف بجريمة ستؤدي إلى إعدامي:

ـ بحبك..

* * *

أغمضت عينيَّ..

نفس عميق.. ثم زفير يمنع صراخ قلب يتألم..

قلت لـ«نسمة» من دون أن أفكر فيما أقول لأول مرة في حياتي:

ـ لا واللـه مش كدا.. بس أنا اتعودت أصلًا على الموضوع دا.. الناس مش بتحب تفهم حد تعب عشان يفهمها.. ما بيصدقوا يلاقوه.. بيفرحوا بيه ويحبوه ويعشقوه عشان بس فهمهم كإنه عمل إنجاز ابن كلب.. ليه بقى يتعبوا نفسهم أكتر ويركزوا في تفاصيله؟ ليه يحاولوا يفهموا أكتر؟

سألَتْ «نسمة» بنبرة هادئة تُخرج الكلام من لساني:

ـ وانت عاوزهم يفهموا إيه؟

قلت بغضب فاجأني شخصيًّا:

ـ يفهموه..

ثم صمتُّ لحظات، وأكملتُ بغضب:

ـ يفهموا إنه بيتعب قوي كدا عشان نفسه حد يفهمه.. حد ياخد باله من وجعه.. من تفاصيله اللي نفسه يصرخ بيها بس مش قادر.. بيكتم اللي جواه عشان حاسس بيهم وبيصبَّر نفسه بكلمة همَّ كويسين ودا كفاية..

نظرت حولي لحظات، التفتُّ خلفي لأجد «سيرا» تنظر إليَّ في حزن، أدركت أن صوتي قد ارتفع، شعرت بتلك القدم العملاقة تدهس كل ما بداخلي وتكتمه فجأة، قلت معتذرًا:

ـ أنا آسف..

قالت «نسمة» بصوت رقيق:

- ما لك يا «عيسى»؟ إيه اللي حصلك؟

قلت بانفعال فشلت في كتمانه:

- أنا بس نفسي أعرف أنا راجل وسخ ولا راجل نضيف، أنا اللي أنا شايفه عن نفسي ولا اللي كل اللي حواليا شايفينه؟

فقدت سيطرتي على الأمر، أغلقت المكالمة فجأة ونظرت إلى «سيرا» التي استندت إلى إطار الشرفة، فهمت «سيرا» نظرتي، ابتسمت مودعة وانصرفت خارجة..

أشعلت سيجارة أخرى..

نفس عميق..

ثم زفير يخرج من دون جدوى..

* * *



(٦)

وثالث الكنوز

يا خالق الكون بالحساب والجبر
وخالقني ماشي بالاختيار والجبر
كل اللي حيلتي زمزمية أمل
وازاي تكفيني لباب القبر؟
عجبي!

صلاح جاهين

لم تضيّع «سيرا» الوقت..

استيقظتُ في اليوم التالي لأجدها في الصالة وقد حضَّرت كل شيء، ممسكةً في يدها الظرف الثاني..

لم أعتَد المكان الجديد بعدُ، لم أنم جيدًا؛ لذا فقد احتل الصداع عقلي ودلدل أقدامه على عينيَّ في أريحية، «سيرا» كانت بالذكاء الكافي كي لا تفتح معي أي موضوع له علاقة بمكالمة البارحة، كل ما قالته وهي ترتِّب الوسائد الصغيرة على الكنبة الوثيرة:

- «نسمة» مش هتعرف تعمل الإنترفيو.. عشان جوزها وولادها وكدا.. بتسلِّم عليك وبتقولك إنها فرحت بالمكالمة جدًّا..

هززت رأسي مُستقبِلًا المعلومات، إذًا فقد تحدثنا معًا في الهاتف بعدما أنهيتُ المكالمة، أكملت «سيرا» وهي تقف ناظرة إليَّ:

- بتقولك برضه لو هتعمل المكالمة في الفيلم، يبقى غيَّر اسمها..

احترمت خوفها على مشاعر زوجها، لكنها حمقاء، صوتها هو أكثر صوت مميز في التاريخ، سيعرفها الجميع من تسجيل المكالمة فقط لو نجح الفيلم الوثائقي، لم أبالِ كثيرًا، في النهاية دور «نسمة» انتهى تمامًا، أمر «عيسى الصغير» كان أن أكلمها وأسألها السؤال وأحصل على الإجابة..

نقطة ومن أول السطر..

أمسكتني «سيرا» من يدي وأجلستني على الكنبة، أعطتني الظرف الثاني. كان مكتوبًا عليه «الكنز الثالث»، لم أسألها وقد لمحت هاتفها على قائم الكاميرا يسجِّل ما يحدث..

فتحت الظرف لأجد بطاقة معايدة أخرى، فبدأت أقرأ بقليل من الفضول:

- «(عيسى) الكبير..

أظن أن هذا هو أجمل عيد ميلاد لك في حياتك.. أنا وأنت نعشق أعياد الميلاد ولا نخبر أحدًا بهذا أبدًا.. أنا وأنت نحلم بذلك الشخص الذي يحاول أن يحتفل بعيد ميلادنا بطريقة مميزة.. لا يهم قيمة الهدية.. لكن ما يهم هو أن يفهم تفاصيلنا ويعرف ما نحبه.. لكني لا أعتقد أننا سنجده.. سنظل ندور في دائرة أناس لا يهتمون بأعياد الميلاد أو يظنون أنه هدية تساوي كثيرًا من النقود وانتهى الأمر»..

كنت بالفعل أومن بهذا لوقت طويل، بل كل هدية أتتني عليها بصمة صاحبها أو فيها من علاقتنا كنت أحتفظ بها، احتفال عيد الميلاد لا بُدَّ أن يكون فيه شيء واحد إنساني مميز؛ لذا كنت أومن دائمًا ببطاقات المعايدة ورسائل التهنئة التي تُكتب من القلب، وليست تلك الديباجة السخيفة المعتادة، وأعتبرها الهدية الحقيقية الصادقة وسط كل الهدايا، الكلمات الرقيقة هي التي ستظل معك حتى النهاية..

حتى عرفت «أسماء»..

كرهت أعياد ميلادي وميلادها وأعياد ميلاد العالم أجمع..

كل مناسبة بشجار يحرق الطاقة الداخلية للاستمرار..

الخطوة التاسعة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: امحُ خوفك من أن تعيش اللحظات السعيدة بكامل طاقتك، لقد ذهبوا للأبد، لن يستطيعوا أن يسلبوها منك الآن..

أكملت قراءة مبتسمًا..

- «المهم، أردت أن أخبرك أن تعود وتهادي الناس بطريقتنا، لا تستسلم وتحتفل مثلهم بـ(تورتة) ودائرة من المقربين حول المائدة، احتفل بهم بطريقتنا أنا وأنت، وابذل المجهود الكافي ليجعلهم يبتسمون ويتذكرون دائمًا أجمل ما

فيهم.. هديتي لك في عامك السادس والثلاثين هو لعبة الكنوز بكل المجهود المبذول فيها.. فكِّر من الآن في الهدية التي ستهديها نفسك العام المقبل.. هذا ليس أمرًا.. ولكن طلب.. لا تخذلني فيه.. وتذكر دائمًا...».

عقدت حاجبيَّ في آخر جملة؛ لأنه وضع نقاطًا ليكملها في الجهة الأخرى من البطاقة، تحت عنوان «اللغز الثاني»..

اضطررت أن أقرأ بصوت عالٍ منفذًا قواعد اللعبة:

- «اللغز الثاني..

... وتذكَّر دائمًا.. أن احتفال الميلاد أفضل بكثير من ذكرى يوم المهات في نهاية اللغز الثاني والكنز الثالث أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذَمَا يتذكر.. يجدني.»

عقدت «سيرا» حاجبيها، فغمزتُ لها قائلًا:

- بيصيع في اللغز وكدا..

ضحكت «سيرا»، فأكملتُ قراءة:

- «بص يا (عيسى).. عمك وعمي صلاح جاهين قال: (كل اللي حيلتي زمزمية أمل.. وازاي تكفيني لباب القبر؟).. أنا وانت بنكره الموت.. كل الناس بتقولك إننا لازم نحبه وإنه سُنَّة الحياة.. بس إحنا مابنحبوش.. عشان كدا بنبعد عنه وعن كل حاجة بتفكَّرنا بيه.. بس انت بتبدأ دلوقتي كل حاجة من تاني.. وعشان تبدأ حياة جديدة لازم تشوف الموت بعينيك»..

حسنًا، جملة مفتعلة تمامًا، يريد أن يوصِّل بها رسالة واضحة، قلت لـ«سيرا» مبتسمًا:

- كنت متأثر قوي بصلاح جاهين..

قالت وهي تجلس جانبي، بعد زفرة طويلة:



- يوووه.. كنت قارفنا بيه..

قلت لها وأنا أتذكَّر:

- كنت مقتنع إني شبهه جدًا؛ لأنه بيقول اللي جوايا بكلامه.. الحزن اللي متغلِّف بطفولة واستهزاء بكل حاجة حواليه.. قلت أكيد دماغه شافت زي اللي باشوفه ونفسي أقوله..

وضحكتُ ساخرًا وأنا أكمل:

- وبعدها اكتشفت لما كبرت إنه عشان عبقري كان بيلمس الناس كلها..

قالت «سيرا» متسائلةً وهي تنظر إليَّ:

- عرفت الحل؟

أومأت برأسي إيجابًا، وابتسمتُ قائلًا وأنا أشير إلى فقرة معينة في البطاقة:

- القصيدة دي فِضلت تضرب في دماغي في يوم معين عمري ما هانساه..

نظرَتْ إليَّ متسائلة، في حين شعرت أنا بكل المشاعر المتضاربة التي تجاهلتها حتى يومنا هذا:

- يوم وفاة جدتي اللـه يرحمها..

بدا على «سيرا» التأثُّر، فأكملتُ مبتسمًا وأنا أشعر بخفقات قلبي المضطربة، لما سأضطر أن أفعله الآن:

- «عيسى» عاوزنا نروح نزور قبرها..

لتعقد «سيرا» حاجبيها ويبدو عليها القلق، قالت وهي تضع يدها على صدرها:

- أنا قلبي انقبض..

هززت رأسي بلا مبالاة، نظرت إليَّ وقالت هامسة:

- أقولها بحماس ازاي في الفيديو دي؟

اقتربت منها وهمست وأنا أقلِّد أداءها الحماسي المفتعل وأشيح بيدي:

- اقفي قدام الموبايل وقولي: «هانروووووووووح قبر جدته»..

ضحكَتْ من تقليدي لها، ونظرت إليّ بتحدٍّ ثم نهضت وذهبت أمام الهاتف وفعلت تمامًا ما قلت..

لأتأملها مبتسمًا وأنا أهز رأسي بمعنى «مافيش فايدة»..

* * *

ـ اشمعنى؟

قالتها أمي بتوتر وهي تنظر إليّ، كانت أول مرة أقابلهما منذ أن واجهاني بالرسائل؛ لذا فوجئا عندما وجداني أدخل الشقة، وقبل أن أجلس مددت يدي وقلت لأمي بهدوء:

ـ عاوز مفتاح المقابر بتاعتنا..

لترد عليّ بسؤالها المنطقي، لا أدري لماذا لكني أردت إنهاء وجودي هنا في هذا المكان بأقصى سرعة؛ لذا قلت بنفاد صبر:

ـ عاوز أروح أقرا الفاتحة على تيتة وجدو..

قال أبي وهو ينظر إلى جهاز «الآي باد» الخاص به ولا ينظر إليّ، يلعب لعبة ما تجعله ينظم تفكيره الدائم في كل شيء:

ـ ما تقرا الفاتحة من برَّه.. إيه اللي يخليك عاوز تدخل يعني؟!

كلام منطقي مفحم، قالت أمي بخوفها وتوترها الدائمين:

ـ انت بتفكر في الموت يا «عيسى»؟ اوعى تبقى أهبل وتفكَّر تنتحر وشغل العيال بتوع جيلك دول..

لم أرد وإن ظهر على وجهي نفاد الصبر، قالت بقلق:

ـ طب تاخد أختك معاك؟

قلت وقد أدركت أن بعض الصراحة لا بأس بها:

ـ من ساعة ما ماتت تيتة وأنا عمري ما روحتلها.. عاوز أزورها أقرالها الفاتحة وأطمّن على المكان..

وأكملت وأنا أعرف رد الفعل:

- وكمان هابدأ أصوّر فيلم كدا..

لتشهق أمي وتقول بغضب:

- انت في إيه ولا في إيه؟ بدل ما تيجي تكلمنا هتعمل إيه مع طليقتك والفضيحة اللي مستنياك.. تقولي هاصوّر فيلم؟

ضاق صدري فجأة، لا أريد أن أفتح موضوع «أسماء» وسرقتها الحسابات وكل المكتوب في الرسائل الآن، قلت مستجمعًا أكبر قدر من الطاقة كي لا أنصرف:

- معلش.. حاجة لازم أعملها..

همّت أمي بالاعتراض، لكن أبي رفع عينيه من على «الآي باد» وقال بلهجة حاسمة:

- مافيش مشكلة يابني..

ثم نظر لأمي، وأشار إلى غرفة نومهما باللهجة القاطعة نفسها:

- طلّعيله المفاتيح..

نظرَتْ إليه أمي معترضة، لكن مرَّ ما بينهما من العمر ليجعلها تدرك أن لا أهمية لاعتراضها الآن، ما دام أبي قد قرر، سينفذ الأمر.. نهضت متثاقلة وهي تستند إلى كل شيء في الطريق.. تجاهلت علامات كبر السن التي بدأت تظهر عليهما.. حدَّثتهما كثيرًا عن كل الأشياء التي لا بُدَّ أن يفعلاها حتى يستردَّا طاقتهما.. لكنهما تجاهلا الحديث ولديهما قناعة واحدة: «نحن في آخر أيامنا.. لننتظر النهاية في رضا»..

وأنا أكره هذا المنطق بشدة..

أتتني أمي بالمفتاح، أخذته منها على عجل وابتسمت.. قالت بقلق:

- أنا مش عارفة إيه اللي بيحصلنا دا بس.. هاستناك ترجعهولي النهارده..



قلت وأنا أقبّل رأسها مودّعًا:

- إن شاء اللـه.. سلام..

وخرجت مسرعًا لـ«سيرا» التي تنتظرني في عربتها..

* * *

سرت على الأرض الترابية.. بخطى بطيئة وقت الغروب وكل شيء ينطفئ، نظرت إلى لوح الرخام الكبير المكتوب عليه «مقابر عائلة عبد الآخر العسال وأولاده».. وأنا «عيسى محمد عبد الآخر العسال».. أنا الامتداد الوحيد لهذا الاسم الطويل.. هنا دُفن جدي قبل أن أولد بعام واحد.. ودُفنت جدتي بعده بتسعة عشر عامًا..

تُوفيت جدتي بعدما ودّعتُ قلمي الخاص.. لتكون ثاني خسارة حقيقية أعرفها في حياتي..

فتحت باب المقبرة المعدني الكبير بالمفتاح.. خلفي «سيرا» تصوّرني وقد ارتدت فستانًا أسود اللون، عندما سألتها: «لماذا؟»، هزت كتفيها وقالت إن هذا هو الزي الرسمي للمقابر في عقلها..

نظرت إلى السلم الرخامي البسيط الذي يقود إلى الحوش، وهناك ظلام شديد في أعماقه..

نظرت إلى «سيرا» في قلق بسيط، لتبتسم مشجعة..

فتحت «فلاش» الإضاءة في هاتفي المحمول، وهبطت السلم الرخامي القصير في بطء..

* * *

- «حج حجيجة بيت اللـه..

والكعبة ورسول اللـه»..



نظرت إليها بانبهار طفل ساذج..

كانت تضعني على قدمها القوية التي دارت تخدم بها بيتًا مكونًا من ستة أفراد بإخلاص، ضحكتُ وأنا أشعر بقوة هزة قدمها.. لتنظر إليّ بحنان.. وتحملني بيديها اللتين حمت بهما أولادها من قسوة الدنيا.. وتقول ناظرة إلى عيني مباشرة:

- أيوه كدا، اضحك ومايهمكش حاجة..

ضحكت وأنا أنظر إليها وهي تحملني عاليًا، عيناها تضحكان بحنان على الرغم من قسوة التجاعيد حولهما، وابتسامة لا تظهر إلا قليلًا، قالت لي هامسة وهي تحتضنني:

- عارف يا «عيسى»! جدك كان نفسه يشوفك قوي..

كانت تحاول أن تشغلني قليلًا، كنت في السابعة من عمري، عندما انفجرتُ في البكاء وأبي وأمي قد ذهبا إلى مستشفى ما في ظرف طارئ لأحد الأقارب، لأجلس أنا وجدتي وحدنا، أصابني خوف مبهم فظللتُ أبكي، لتحاول هي أن تطمئنني على الرغم من كبر سنها..

أكملت كلامها وهي تجلس وتُجلسني على حجرها، بنبرة منبهرة كي تجعلني أنبهر مثلها بما أسمع:

- جدك «عبد الآخر» كان مدرس لغة عربية قد الدنيا، بس وهو لسَّه بيبدأ كان عنده طالب اسمه «عيسى».. كان ولد حلو زيك كدا ونبيه.. كل ما جدك يشرحله حاجة يسأله عن معناها.. ويقولّه: ليه؟ واشمعنى؟ ومين اللي حط القواعد دي؟

وصمتت لتأخذ نفسًا قصيرًا، وعيناي تنظران إليها بفضول، أكملت وهي تبتسم:

- جدك ساعتها زهق من أسئلته الكتير.. لحد ما جه في مرة قاله تعالى المكتب بعد الحصة.. ولمَّا الولد جاله جدك سأله..

وعقدت حاجبيها وغلَّظت من صوتها قليلًا، مقلِّدةً جدي:

- أنا عارف إنك نبيه وبتفهم بسرعة.. ليه بتقعد تسأل أسئلة كتير وتعطل الحصص على زملاتك؟

ثم غيَّرت من أدائها لتقلِّد التلميذ:

- الولد قاله: يا أستاذ «عبد الآخر»، أنا عندي مشكلة إني مش فاهم.. أنا دلوقتي في الثانوية ومش فاهم.. ماحدش في المدرسين بيقولي «ليه».. كلهم بيقولولي «هي كده».. وأنا عاوز أعرف ليه.. ليه المبتدأ مرفوع بالضمة.. ليه كانَ بتنصب الخبر وبترفع المبتدأ.. بلاش في العربي يا أستاذنا.. ليه كل حاجة بتتعمل أصلًا؟ بنتولد ونموت ليه؟ بنحب ونكره ليه؟ كل حاجة ليه؟

جدك استغرب كلامه قوي.. جدك كان عارف طبعًا كل حاجة.. بس استغرب لأن دا أول ولد يسأله «ليه؟».. بقية الطلاب اللي علِّمهم جدك طول عمره ماحدش فيهم كان بيسأل «ليه؟».. عشان كدا ضحك وبص للولد وقالّه...

ثم قلَّدت جدي بطريقتها المضحكة:

- انت هتعمل حاجة في دنيتك يا «عيسى».. مش هتبقى زي الناس اللي حواليك.. خليك دايمًا بتسأل وكتَّر من أسئلتك.. يمكن تفهم اللي ماحدش فينا فاهمه..

وأكملت وهي تمسح بيدها على شعري:

- وفضل جدك يحكي عن «عيسى» اللي قال «ليه؟».. الولد اللي كان نفسه «يفهم».. ولما عرف إن مامتك حامل فيك، قالي هيطلع ولد، وهنسميه «عيسى».. ومات بعدها بكام يوم..

وأكملت وهي تضع يدها على صدري:

- عشان كدا انت اسمك «عيسى».. ابن «محمد» ابني.. أغلى الغاليين..

لأسمع القصة بانبهار وأنا أنظر إليها، ناسيًا أنني كنت أبكي منذ دقائق بسيطة..

لتكون هذه هي الذكرى الوحيدة لي بيني وبين جدتي..
قبل أن تأتيها هجمة المرض..

* * *

ارتجفت قدماي ارتجافة قوية وأنا أدخل الحوش، قرأت الفاتحة في سري ورائحة الموت تملأ أنفي وتكتم صدري، جلست «سيرا» على مقعد خشبي كبير للزوّار، كان الحوش كما أتذكره تمامًا: شاهد كبير للرجال وآخر بعده بقليل للنساء، تم دفن من مات في حجرة من الحجرات.. مررت بشاهد جدي وألقيت السلام.. ثم تجاوزتها لحجرة جدتي ووقفت أمامها..
وابتسمت..

* * *

نظر إليَّ أبي بحنان، قال بصوت خافت:
ـ تعالى يا «عيسى».. جدتك عاوزاك..
كنت في السابعة عشرة، قبل عيد ميلادي بفترة قصيرة، أصابها المرض وكانت لا تستفيق منه إلا قليلًا، ذهبت مع أبي إلى غرفتها، تأملتها وهي جالسة على الفراش تنظر إليَّ وتبتسم، قال أبي بحنان:
ـ ها يا تيتة.. فاكراه؟
لتفتح ذراعيها المرتجفتين بشدة وتقول بفرحة:
ـ طبعًا.. «عيسى» حبيب قلبي..
ركضتُ ناحيتها واحتضنتها، أصبحَتْ متعبة بشدة، لكن ما زالت يدها قوية وهي تحتضن، كأنما تمت برمجتها على حماية كل من في حضنها من أي إحساس سيئ..
جلستُ بجانبها، فوضعَتْ يدها على صدري، وقالت بصوت عالٍ ما كانت تقوله لجميع أولادها وأحفادها:

- حصّنتك بالحي القيوم.. الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.. ودفعت السوء عنك بألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

* * *

قلت وأنا أنظر إلى شاهد قبرها:

- ازيك يا تيتة..

هذه المرة كنت قد تحضَّرت لما سأفعل، ارتديت قُفَّازًا أسودَ وشمَّرت أكمامي، ذهبت إلى ركن جانب السور القصير، قلت وأنا أنحني جانب السور الحجري بالضبط:

- معلش بقى يا تيتة، أنا مش قصدي أزعجك..

وبدأت أحفر بيدي في الرمال المتكومة، متغلّبًا على ضيق تنفُّسي الذي بدأ يزيد قليلًا:

- زمان كانوا بيقولولي إني ماورثتش حاجة منك..

حفرت حفرة صغيرة وأكملت حفرًا، أعلم أنني فيما مضى أخفيت شيئًا ما هنا، ثم قلت مُقِرًا وأنا أكمل حديثي معها، في تخيلي نظرتها الحنون:

- همَّ مش شايفين إني شبه حد أصلًا.. بس أنا عشان بحبك بقى يا ست الكل.. ورثت أهم حاجة..

لأجد أصابعي تلمس شيئًا معدنيًا صلبًا..

فأبتسم في انتصار..

* * *

وضعت يدها على صدري وأكملت الرقية:

- اللهم بارك فيه وكبده وكليتيه وأحب الناس إليه.. فارجع البصر هل ترى من فتور.. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير..

* * *

ارتطمت يدي بالعلبة المعدنية الثانية.. في ذلك الوقت - وقت «عيسى الصغير» - تم إصدار هذه العلب على أنها أكثر مكان آمن يمكن أن تحتفظ فيه بالأشياء فترة طويلة.. وقت تحضيري لهذا المشروع اشتريت تسعًا منها..

لقد بدأت أتذكَّر رتوشًا ممَّا كنت أفعل..

هذا جيد..

أكملت حديثي البسيط معها، وأنا أُخرج العلبة مبتسمًا في انتصار:

- ورثت عنك الحاجة اللي بعدتك عنا..

فتحت العلبة، كانت علبة ضخمة مستطيلة ككنز حقيقي، هذه المرة لم أعبأ بالتراب والعلبة التي صدئ سطحها، فتحت العلبة في سهولة لأجد داخلها ما كنت أنتظره..

نظرت إلى ملف التحاليل، ذلك الملف الذي أثبت بالدليل القاطع أن كل المخاوف كانت حقيقية..

أنني مصاب بمرض لا شفاء منه..

فتحت الملف، كلام كثير بالإنجليزية، لكني وجدت رسالة «عيسى الصغير»، مكتوبة بحبر قلمنا المفضل الذي يسكن يدي دائمًا الآن، بعرض الورقة كلها:

- «المعاد المتوقَّع من أول ٣٨ سنة لحد ٥٥ سنة»..

تذكرتُ فجأة عندما أتى خبر موتها على البيت ليلتهم ما تبقَّى من قوة التحمل لدينا، وقتها كنا قد عرفنا بمرضي، وهناك هالة كئيبة اجتاحت البيت، بكاء أمي وصمت أبي، وحيرة أختي الكبيرة، وعدم إدراك من أخي الصغير..

تذكرت لحظتها أنني لم أحزن..

كنت سعيدًا لأنها ارتاحت من الجحيم الذي كانت فيه..

الجحيم الذي سأصبح أنا فيه..

وقتها قررتُ أن أدفن شيئًا ما مني هنا، في مكان دفنها؛ لذا أمسكت أول ملف تحليل أثبت بالدليل القاطع أن لديَّ المرض، وذهبت لأدفنها، وقتها

اعترض أبي لصغر سني، فانصعت لكلامه..

ومع انشغالهم بوضعها، دفنت العلبة عند السور بجانب شاهد قبرها، وأهلت عليها ترابًا كثيرًا..

نظرت إلى الملف، ثم رفعته وأنا أنظر تجاه ما المفترض أنه كان مكان جثتها:

- ورثتُ مرضك..

ابتسمتُ، أرسلتُ لها قبلةً في الهواء، وابتسمت ابتسامة واسعة وأنا أقول:

- بس هافضل أضحك ومايهمنيش حاجة يا ست الكل.. زي ما انتِ هتفضلي واحشانا كدا ومش عارفين ننساكي..

ثم لا أدري لماذا شردت لحظة وقلت وأنا أضحك:

- واستنيني.. هاجيلك قريب أونّسك..

لا أدري لماذا، وما الذي جعلني أفعل ذلك، لكني فتحت شاشة هاتفي المحمول، كتبت رسالة مقتضبة لمديري في البنك:

- أنا مش جاي الشغل تاني.. مافيش وقت لأي حاجة مابحبهاش.. دا إخطار رسمي باستقالتي..

الخطوة العاشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: تيقَّنْ أن ما بداخلك من نور لن ينطفئ، قد يخبو قليلًا بفعل السم، لكن نورك لم يمُت.. سيضيء ثانيةً وتعود أفضل ممَّا كنت.. فقط خذ براحك من الوقت..

ابتسمتُ في راحة، نظرت ثانية إلى كل ما حولي، وضعت الملف تحت إبطي.. ولوَّحت لها مودِّعًا..





(٧)

الأمر الثالث

ياما صادفت صحاب وما صاحبتهمش
وكاسات خمور وشراب وما شربتهمش
أندم على الفرص اللي انا سبتهم
ولا على الفرص اللي ما سبتهمش؟
عجبي!

صلاح جاهين

لم نستطِع أن نقاوم التعب، فما إن عُدنا إلى فيلا «سيرا» حتى ودَّعنا بعضنا وذهبنا لنغط في نوم عميق..

سألتني عن الملف فقلت لها إنني لا أريد أن أخبرها الآن، غضبت قليلًا ثم تناست الأمر..

طيبة القلب كما كانت دائمًا..

استيقظت اليوم التالي على صوت الجرس المعتاد، لا أعرف شيئًا عن حياتها كممثلة، لكن واضح أنها من الشخصيات التي تعشق الصباح، تأتيني كل يوم مشرقة مبتهجة بنشاط غريب.. فتحت لها الباب متكاسلًا.. لتدفعني بيدها وتدخل قائلة:

ـ يلَّا عندنا فيديو نتفرج عليه..

ووضعت الفلاشة الجديدة في التلفاز، ووضعت هاتفها على حامل الكاميرا كي يظل الكادر ثابتًا، لأول مرة ألاحظ أنه «iphone 11» ذو الكاميرات الثلاث. كنتُ أخشى من جودة التصوير لكني أدركت الآن أن كل شيء على ما يرام..

لم يؤثر فيَّ أمر المرض، كما توقع «عيسى الصغير»؛ ربما لأني اعتدته طول الأعوام السابقة، أصبحت فكرته مستهلكة بالنسبة لي، أنا مريض، ما المشكلة؟ كل البشر مرضى بشكل أو بآخر.. فلأحمد اللـه أن علّتي جسدية وليست عقلية كمعظم من أعرف..

أو ربما أنا أكثرهم مرضًا في عقلي.. لا أدري.. ولا أريد أن أعرف!

أصبح معتادًا أن أرى على شاشة التلفاز ملفين: ملف بعنوان «أنا فخور

... ضحكت عندما رأيت

بيك».. والآخر بعنوان «سخسوخ ابن الكئيبة».. كنت ذلك الاسم.. كان هذا ما يطلقه عليّ أصدقائي في مراحل المراهقة.. أطلقوا المراهق ذا النظرة السوداوية في الحياة، أحاول أن أقنعهم بفلسفتي.. عليّ «سخسوخ ابن الكئيبة» وظل هذا الاسم يلازمني طول فترة الدراسة.. فتحت الملف الأخير ووقفت أنتظر حتى يتم تحميله، ممسكًا القلم في يدي..

هذه المرة كان «عيسى الصغير» يجلس على الفراش، يبدو عليه الحزن، لم يستطع أن يكون بطاقته الإيجابية كما كان يفعل في البداية، ابتسمتُ وأنا أنظر إليه.. أرى بداية ظهوري في حياته خلف عينيه الحزينتين.. بدأت أرى شبحي يطوف حوله..

أمسك «كشكول» كبيرًا وجلس مربعًا قدميه، ينظر إلى الكاميرا بحماس مفتعل وهو يقول:

- «لينين الرملي» قال على لسان «عرفة الشواف»: «ساعات أشوف كل شيء بوضوح: العطش والجوع، القسوة والرحمة، العدل والظلم، الحر والسقعة. واشوف الشمس لما يلسعني شعاعها، واعرف إنها غابت لما غروبها يرمي الكآبة في صدري.. وساعات عقلي يلهمني. أعرف الشيء اللي قدامي واللي ورايا واللي جنبي.. أعرف صاحبي من عدوي.. وألاقيهم بيقولوا دا مفتَّح وشايف، واحسّ بالزهو يملاني، لكن جوايا عارف حقيقتي.. بضبِّش بإيديا وأعد الخطاوي برجليا»..

بدأ «عيسى الصغير» ينسى كآبته وهو يقرأ الكلام بصوت متأثِّر:

- واتجنن.. أتجنن لما احس بيكم بتتحركوا من غير ما حاجة تحوشكم..

ونظر إليَّ من خلال الكاميرا، وقال من دون أن يقرأ جملتي التي كنت أعشقها:

- باتجنن من يقينكم..

نظرتُ إلى «سيرا» نظرة حانية، الجملة التي على حائط غرفة النوم، رفعت

حاجبها في ثقةٍ بأنها كانت تعرف ما تفعله جيدًا.. ابتسم «عيسى الصغير» ابتسامة حزينة وهو يكمل:

ـ وبقول إيش عرفني انكم ما بتكدبوش عليا.. أو يمكن تكون الحقيقة فاتتكم.. وأقول يمكن لو فتَّحت أشوف غير اللي انتم شايفينه.. ومتأكدين منه..

ثم ترك الكشكول، ونظر إليَّ مباشرة:

ـ صحابنا دايمًا بيتريقوا على انبهاري بـ«عرفة الشواف».. ماحدش فيهم يعرف السر..

قالت «سيرا» بفضول:

ـ أنا هاموت وأعرفه..

نظرت إلى الأرض في هدوء، في حين قال «عيسى الصغير» مكملًا كلامه:

ـ «عرفة الشواف» شاف الدنيا وهو أعمى.. شاف الدنيا بعين المرض.. عرف يعمل طريقة بتاعته، هي إنه يفهم الناس ويفهم كل حاجة حواليه.. أنا وانت برضه انكتب علينا نشوف الدنيا بعين المرض.. وعين المرض وحشة قوي يا «عيسى»..

نظرت إليَّ «سيرا» بقلق، وعندما نظرت إليها نظرة اعتذار زاد قلقها، ليكمل «عيسى» ما كان صعبًا عليَّ أن أقوله:

ـ أنا وانت عيانين بمرض مالوش علاج..

شهقت «سيرا» و«عيسى» يضحك ضحكة ساخرة مكملًا:

ـ إحنا من الناس المحظوظة اللي ربنا كتب علينا نعرف آخرنا قبل أوانه بكتير.. إحنا آه مش عارفين إمتى بالظبط.. بس عارفين ازاي وهنبقى تعبانين قد إيه..

لم يكُن أحدٌ يعلم على وجه الأرض سواي أنا وأهلي؛ لذا لم أفاجأ عندما حدَّقت «سيرا» في الشاشة بذهول ممزوج بالغضب، بدأت عيناها تدمعان وهي تقول:

- يعني إيه؟ مش فاهمة!

أمسك «عيسى» ملفًا كان ملقى على الفراش بجانبه، الملف نفسه الذي أحضرته من المقبرة، قال «عيسى» وهو يفتح الملف كأنما يقرأ منه، ثم نظر إليّ ثانية وقال:

- الدكتور قال إن الموضوع هيبدأ يزيد من أول ٣٨ سنة لحد ٥٥ سنة.. يا إما هييجي على طول يا إما هياخد وقته..

نظرت إليّ «سيرا» وقالت بصوت حاد:

- انت عندك إيه؟

كنت واثقًا بأن «عيسى الصغير» لن يقول ما المرض، كان يريد للفيلم أن يكون إنسانيًا أكثر من كونه عن المرض ذاته، تجاهلت حدة «سيرا» ناظرًا إلى التلفاز، ليكمل «عيسى» كلامه بنبرة قاسية قليلًا:

- عين المرض بتجيب آخر كل حاجة بسرعة قوي.. بتوضحلك إيه المهم وإيه اللي مش مهم خالص.. إيه اللي يستاهل تضيّع فيه وقتك وإيه اللي مالوش لزمة.. إيه المشاعر اللي تستاهل تحسها والمشاعر اللي تستاهل تنساها..

ثم زادت قسوته وهو يقول:

- عشان كدا أنا دي أكتر حاجة مزعلاني منك.. وقتك اللي ضيّعته مننا..

ركلت كلمته صدري.. «الوقت الذي ضاع»..

أكثر شيء نأخذه كأمر مسلَّم به هو الوقت، الزمن، يمر بهدوء وسلاسة بين أصابعنا فنتركه يفلت في سذاجة، على الرغم من أنهُ أكثر القاتلين احترافًا لكل شيء داخلنا..

بل لوجودنا ذاته..

زفرتُ في حزن، لأجد زفرة «عيسى الصغير» في اللحظة نفسها، وهو ينظر إلى الملف ثانيةً على الفراش، ويكمل:

- الأمر التالت إنك تكلِّم حد انت اللي زعلان منه وتعرف تسامحه.. حتى

لو حد قابلته بعد وقتي دا.. هتكلمه وتقابله وتعرف تسامحه.. الزعل اللي جوانا من حد بياخد كتير قوي.. بيفضل ينهش فينا ويغيرنا.. ومايتفعش نفضل شايلين من الناس كتير..

ولوّح بيده مودّعًا، وهو يقول بنبرة عملية:

- نفّذ عشان الكنز الرابع هيعجبك قوي.. انتهى الفيديو..

أظلمت الشاشة تمامًا، لتتركني في مواجهة لم أكُن مستعدًّا لها الآن، نظرت بطرف عيني إلى «سيرا» التي وقفت لا تدري ماذا تفعل، كنت أعرف أن «عيسى» سيتحدث عن مرضنا، لكن جزءًا بداخلي كره ذلك السر وأردت أن أخبر به أحدًا؛ لذا فلم أمانع أن تشاهد «سيرا» معي..

قالت بصوت يحاول أن يتماسك:

- فهّمني طيب إيه اللي عندك عشان دماغي ماتروحش في حتت وحشة..

نظرت إليها بهدوء وابتسمت، قلت برجاء:

- ينفع مانتكلمش دلوقتي في الموضوع؟ هييجي وقت مناسب وأقولك فيه..

عيناها الدامعتان، جسدها المتخشب من التوتر، وقفتها الخائفة، ذلك كله برر الغضب وهي تقول:

- لأ طبعًا.. أنا معاك في كل حاجة.. أنا المفروض أعرف عنك كل حاجة..

وأشارت إلى التلفاز، تقصد «عيسى» القديم، وهي تقول:

- يعني انت كنت عامل كل دا.. عشان عيان؟!

نظرت إليها، لا أستطيع أن أتحدَّث، ذلك الحاجز الرهيب داخلي يمنعني، فتحت شفتيَّ لأردَّ عليها، لكن جرس هاتفي ضرب فجأة بصوت عالٍ، نظرت إلى الهاتف لأرى ما جعلني أنسى كل ما يحدث، نظرت إلى «سيرا» وقلت بتوتُّر:

- خال «أسماء»..

توترت «سيرا» أكثر، وارتجف الهاتف في يدي..

* * *

خرجت إلى السطح حتى أستطيع أن أستنشق هواءً نقيًا، ضغطت على زر قبول المكالمة، يدي الأخرى تضغط على القلم بسرعة ليصدر صوت تكتكة تحاول أن تهدئني، لأجد صوته الخشن الذي لم أسمعه منذ فترة طويلة:

- كويس إنك رديت..

شيء ما في نبرة صوته تغيّر، هناك قوة ما أو شماتة خفيفة، لا أدري..

قلت بصوت ارتجف مني رغمًا عني:

- إزي حضرتك..

كيف أتحدث معه؟ لا أدري.. ثلاثة أعوام كان هذا الرجل في نظري له مقام ما.. خال زوجتي ووكيلها.. لكن الآن هو رجل غريب لا أعرف صلة تربطني به..

قال بنبرته الشامتة كمن رآني عاريًا:

- والله مش مبسوط يا «عيسى».. مش حاجة كويسة لما تعرف إن بنت أختك اتجوزت عيل..

ابتسمتُ في مرارة من تعليقه، الحيرة نفسها هي التي جعلتني لا أرد، هل هو رجل غريب عني يستحق أن أرد عليه بالإهانة نفسها، أم ذلك الرجل الذي أكلت في بيته يومًا وكنا أهلًا؟ قررت أن أتعامل في تلك المنطقة الرمادية حتى أعلم ما سبب المكالمة..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير يضع قناع الأدب والاحترام اللازم..

قلت كي أتجاوز أي فقرة من الشماتة حضَّرها هو قبل أن يحدثني:

- خير؟ حضرتك عاوز إيه؟

- ولا حاجة والله..

كان تاجرًا محترفًا، لديه الذكاء الكافي للتلوُّن، بدأ من الصفر ليتحوَّل بعد زمن إلى تاجر محنَّك ينظر إلى الدنيا كصفقة لا بُدَّ أن يستفيد منها، كانت لديه تلك الخصلة كأي تاجر محترف في قلب الحقائق، لديه ذلك الأداء المستهزئ بكل شيء كأنه لا يخاف أبدًا، كنت أعرف أن أداءه تمثيلي بحت، وأنه يخاف أكثر من أي شخص..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٢ - «الطرف السام غالبًا يرث السم من الأهل؛ ينقسم بعدها الأشخاص إلي نوعين، نوع يرفض السم ويحاول الهروب منه، والسام هو من يتقبله ويبرره، لهذا تكون هناك دائمًا قصص عن الماضي الصعب.. ولكن ليس بالمعنى الحرفي للوراثة.. هو يمتص السمية من البيئة المحيطة.. خيانة أب، تجاهل أم، تدليل مبالغ فيه، قسوة بلا مبرر.. كلها أشياء تُسهم في بث السم النفسي داخله.. يترجم عقله ذلك السم كنوع من الحب لأنه نشأ عليه»..

سمعت صوته وهو يقول بضحكة مستهزئة:

- عاوز حق «أسماء»..

لم أتوقع رده، عقدت حاجبيَّ وقلت في تساؤل حقيقي:

- حضرتك الطلاق تم بالتراضي بعد ما أخدتم حقوقكم كاملة... حق إيه؟

قال بنبرته المستهزئة:

- لا.. الحاجات دي لما انت ضحكت عليا وقلت «أسماء» هي اللي غلطانة.. بس بعد اللي اتبعت وشفناه وقريناه.. عرفت إنك كداب وبتكدب عليا أنا و«محمد» بيه..

دائمًا ما كان يصاحب اسم والدي بلقب «بيه» كحفظ للمقام، وقال إنني ضحكت على أبي حتى يقسم الجبهات، طرف يهينه وطرف يحترمه، قال وقد عادت الشماتة تطغى على صوته:

- ألا صحيح رأيه إيه في اللي اتبعتلك؟

قلت وأنا ما زلت في المنطقة الرمادية، محاولًا أن أستشف منه إذا كان هو المسئول عما يحدث أم شخص آخر:

ـ الحاجات دي حصلت بعد ما «أسماء» مشيت من البيت..

ضحك ضحكة عالية، صمتُ تمامًا حتى هدأت ضحكته، أكمل بهدوء التاجر الذي لا يخسر كل شيء في التفاوض:

ـ كان قبل الطلاق الرسمي..

تذكرت عندما كان يهز رأسه بنبرة الرجل العليم ببواطن الأمور، بلهجة من دهسته خبرة الزمن، ويقول لي في خبث:

ـ وانت لو حدك مع أي حد.. اعمل اللي تعمله.. اغلط واشتم واضرب وسب، ولا يهمك.. بعدها انكر كل دا.. في الآخر هتبقى شهادته قصاد شهادتك وماحدش هيعرف الحقيقة فين..

كان لحظتها يحاول أن يقنعني بضرب ابنة أخته ورد الإهانة بإهانة، حتى أستطيع تهذيبها من تمردها وتجاوزاتها المستمرة..

كان هذا هو قانونه، هذا كل ما تعلمه من الحياة، وهذا ما حاول أن يلقنني إياه..

بل هذا بالنص ما فعله في مفاوضات الطلاق، كان يذهب ليحدِّث أبي في مفاوضات الطلاق، ويعود لأهل بيته يقول كلامًا كاذبًا لا أساس له من الصحة.. ادَّعى أن أبي قال إن «أسماء» لا تستطيع الإنجاب.. كذب وقال إن أهلي كانوا يكرهونها، بل تمادى في كذبه وادعى كل ما تكره أنثى أن تسمعه.. وعندما تواجهه بالأمر.. يهز كتفه في لا مبالاة ويقول إن الطرف الآخر هو الذي يكذب..

فتوه الحقيقة تمامًا..

لحظتها، بررت له كذبه المستمر؛ لأنني كنت أعلم أن «أسماء» منهارة نفسيًا.. بالتأكيد «أسماء» استخدمت نبرة الاستعطاف واليوس بالتأكيد

انهارت نفسيًا وأظهرت لهم كم هي ضعيفة نقية لا تستحق وغدًا مثلي..
مثلما فعلت معي حتى أتغاضى عن كل ما كانت تحطّمني به؛ لذا فقد كان من الطبيعي أن يريدها أن تكرهني.. أن تكره ذلك الكيان حتى تستطيع أن تقف على قدميها ثانية..

لهذا كذب في كل شيء.. لكنه من دون أن يدري أشعل فتيلًا آخر انفجر في وجهي أنا..

لأنه لا يعرفها كما أعرفها أنا.. أثار هذا جنونها أكثر.. أثبت لها أن كل شكوكها كانت صحيحة.. الشكوك التي حاولتُ أن أنفيها طول ثلاثة أعوام.. أثبتها هو لها في ثوانٍ..

ربما..

الأهل هم أكثر البشر حماقة عندما يريدون أن يحموا أولادهم..

لكني الآن لا أستطيع تكذيبه، لا أملك حساباتي حتى أثبت براءتي، أشعلت سيجارة، هبطت عليَّ الشخصية اللامبالية التي أستخدمها عادةً في الهروب من المواقف الضاغطة، أضع كل مشاعري داخل ثلاجة ضخمة، ولا أبالي بأي شيء، قلت محاولًا إنهاء ذلك العبث:

- وإيه اللي حضرتك عاوزه؟

استندتُ إلى سور السطح ونفثت دخان السيجارة، ليقول هو بلهجة المساوَمة، وكأن ما يقوله أمر طبيعي تمامًا:

- يعني.. اللي انت عملته وجع «أسماء» قوي.. مافيش حاجة تعوَّضها عن اللي حسَّاه دلوقتي.. بس لو حسبنا تلات سنين ضاعوا من عمرها على واحد خاين زيك.. ممكن ١٠٠ ألف كدا..

صمتُّ تمامًا، ليكمل هو بنبرة قوية طول ثلاثة أعوام لم أرَه يتحدث بها:

- أنا مش بتناقش.. حقنا ييجي حاجتك ترجعلك.. لكن لو ما جاش..

وصمت ليعطي تهديده قوة ما، لا يدري أنني كنت أبتسم مستهزئًا بلا

مبالاة، هو الآن يقلّد أحد أدوار الشر الذي رآه في فيلم ما لـ«محمود المليجي»، لكن بطريقته التمثيلية بدا أشبه بـ«عبد السلام النابلسي»، أكمل بهدوء:

- أنا مش راجل مؤذي.. مش هاعمل حاجة ولا هافضح بنفسي.. بس هاعمل خير وأنبّه الناس اللي انت بتخش في أعراضهم.. أنا هابعت الحاجة لصاحب نصيبها.. لو ست متجوزة هابعت لجوزها.. لو بنت هابعت لأهلها.. وانت بقى تتصرف معاهم..

ارتفع حاجباي في إعجاب حقيقي، طريقة الانتقام جديدة، ظننت أنه سيهدد بالفضيحة، لكن فكرته كانت مبتكرة، لم أشعر بالغضب، لم أهتم، في حين قال هو عندما لم يسمع مني ردًّا:

- هاستناك تقولي آجي آخد الفلوس إمتى النهارده بليل..

وأغلق المكالمة من دون أن ينتظر ردًّا..

* * *

نظرتُ إلى هاتف لحظاتٍ في غضب، غادرتني اللامبالاة عندما أغلق الخط، شعرت بكراهية بشعة تملأ صدري لكل ما يتعلق بالحياة، غضب عاتٍ يحتل كياني، أردت أن ألكم سور السطح أو أركله، أي شيء يفرغ الشحنة داخلي، رفعت ذراعي عاليًا..

وألقيت الهاتف من السطح بقوة، وتابعت رحلة سقوطه حتى تهشّم على أسفلت الطريق وتبعثرت أشلاؤه..

كما تبعثر كل شيء داخلي الآن..



شعرت بارتجاف قدمي ويدي، عندما أغضب ترتجف أطرافي من دون أن أستطيع أن أتحكَّم فيها، بدأت أستوعب تهديده الخبيث، لن يعاقبني بفضيحة، لكنه سيجعلني أعيش حياتي في ترقُّب قذر، لا أدري من أين سيأتي الخطر، كم فتاة حدثتها وقتها؟ لا أذكر.. وهذا ما أراد هو أن يفعل بي.. أن أظل في حالة من التساؤل والترقُّب وانتظار انتقام الآخرين..

لعنة الله على هذا النوع من الزواج وعلى كل من أراد أن يؤذي وينتقم يومًا..

شعرتُ بنفَسِي يضيق، اللعنة، أنا أفقد السيطرة، وجدت فجأة يدًا تربت على كتفي، التفتُّ لـ«سيرا» التي كانت تنظر إليَّ بقلق شديد، قلت ما استطعت أن أتلفَّظ به لحظتها:

- همَّ عاوزين مني إيه؟

قالت «سيرا» محاولةً تهدئتي على الرغم من أن قلقها يزيد:

- عاوزين فلوس.. و«أسماء» عاوزة تنتقم منك.. عاوزة تثبت إنها كانت مهمة وإنك مش عارف تعيش من غيرها..

رفعت يدي للسماء، كأنني أشير إليها رغم بعد المسافات، وأنا أصرخ:

- وعاوزة تثبت ليه؟ ما هي اللي مشيت..

قالت «سيرا» بحذر، خوفًا من أن يُغضبني ردها:

- كانت بتهوِّش بس عشان عاوزاك تجري وراها..

نظرتُ إليها للحظة في عدم فهم، فقالت «سيرا» مهوِّنة:

- فيه ستات لما بتغلط وبتبوظ الدنيا، بتهدد إنها تمشي عشان تحس بقيمتها.. هي كانت فاكرة إنك مش هتعرف تعيش من غيرها.. فلمَّا هددت إنها ماشية وانت سيبتها.. حست إنك وجعتها وما تمسّكتش بيها..

نظرتُ إليها في ذهول، قلت:

- انتو مجانين؟ كل مرة كانت بتمشي كنت برجَّعها.. مليون مرة دُست على نفسي عشان تكمل معايا وماتبقاش مجروحة.. هي اللي باعت كل حاجة الأول..

ثم قلتُ وأنا لا أستطيع أن آخذ نفسي:

ـ أنا.. مش.. قادر..

لم تدعني أكمل واحتضنتني بقوة..

الخطوة الحادية عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: انفجر.. لا تكتم مشاعرك.. لا تتظاهر بالقوة.. ظللتَ كثيرًا مسلوب الإحساس بأي شيء ضدهم، ليس لديك حقٌّ في التعبير عمّا يدور بداخلك.. علاقتك السامة انتهت.. عادت لك حرية «أنْ تشعر»..

غمرني فجأة كل شيء كتمته طول السنين الفائتة.. لم أستطع أن أحتمل أكثر من هذا..

فانفجرت..

ومن دون أن أدري وجدتني أبكي في حضنها.. تهاوت قدماي فجلست أرضًا و«سيرا» تجلس معي ولا تُفلتني من ذراعيها..

دفنتُ رأسي في صدرها وقربتها مني أكثر، تاركًا كل ما يتماسك داخلي ينهار تمامًا..

* * *

عندما أتاني ما يطلقون عليه الـ«anxiety attack» بسبب خوفي من أمراض القلب، وضعت لنفسي قاعدة صارمة، هي قاعدة «الساعة الواحدة»..

لم أكُن أسمح لنفسي أن يطول الأمر عن ساعة، أترك نفسي أشعر بكل شيء، أخاف وأنهار وأقع في بئر الأفكار السوداء، ثم ينتهي الأمر تمامًا ولا أفكِّر فيه ثانيةً بعد ساعة واحدة..

لذا، فبعد مرور ساعة كاملة، ضمتني فيها «سيرا» ولم تتركني لحظة، تركت عناقها فجأة، نزلت للهاتف المُلقَى على أسفلت الطريق، تهشمت شاشته قليلًا لكن ما زالت تعمل، وتحطم ظهره تمامًا، أمسكته وفتحت قائمة الأسماء وبعثت لـ«سيرا» على تطبيق «واتساب» معظم الأرقام التي تهمني،

ثم أخرجت الشريحة من الهاتف، وألقيته بعيدًا ثانيةً في غيظ..

كنت صامتًا تمامًا، ولم تحاول «سيرا» أن تحدثني كثيرًا، كانت تراقبني من بعيد مقدرة ما أنا فيه، أمسكتُ هاتفها من دون استئذان ولم تعترض، ضغطت على أحد الأرقام التي أرسلتها إليها، ليضرب جرس طويل قليلًا، أسمع بعده صوتًا يرد بتكاسل:

- ألو..

قلت باقتضاب وداخلي كثير من المشاعر المتضاربة:

- «حسام».. عاوز أقابلك.. أنا جاي العباسية كمان ساعتين..

بدا على «سيرا» التعجُّب، عقدت حاجبيها عندما سمعت اسم «حسام»، كانت تظن أنني سأكلم أحدًا من أهلي أبلِّغهم بالكارثة، لكني لم أفعل..

الخطوة الثانية عشرة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا تسمح لهم بتشتيتك أبدًا.. يعود الشريك ويظهر دائمًا عندما يشعر أنك تمضي في حياتك.. أنك بدأت في تحقيق شيء ما.. أنك اقتربت لاستعادة نفْسِك ثانية؛ لذا فلا تسمح لهم بإرباكك.. انظر إلى الأمام فقط..

فوجئ من صوتي، ارتبك للحظة وهو يتظاهر أنه لا يعرف صوتي:

- مين معايا؟

قلت له وأنا في حالة لا تسمح بكل تلك التمثيليات المفتعلة:

- ساعتين وتقابلني على القهوة..

وأغلقت..

لأجده يدخل القهوة بعد ساعتين بالضبط؛ لأنني قُدتُ عربتي بسرعة جعلتني أصل قبله، وأبتاع هاتفًا جديدًا لأضع فيه الشريحة..

صافحنا بعضنا مصافحة باردة كأي اثنين غريبين لم يكُن بينهما أي نوع من أنواع العشرة..

كان مرتبكًا، أحفظه عندما يحاول أن يبدو قويًّا، ابتسمت في حزن وأنا

أنظر إليه، «حسام عامر»، لا يعرفه «عيسى الصغير»، كان بعد وقته بخمسة أعوام، صديقي المقرب منذ أن تخرجت في جامعتي، سنوات أطول من أن أحصيها..

حلمنا معًا حلمًا كبيرًا، هو يكتب السيناريو وأنا أعشق الإخراج، ظللنا نسعى في كل زاوية حتى عرفت أن أقابل منتجًا شابًا.. رأى أفلامي القصيرة وصدّق موهبتي الإخراجية.. لأنتهز الفرصة وأخبره أنني لن أعمل سوى مع صديق عمري «حسام عامر»..

عدتُ فرحًا وأخبرته أن الحلم اقترب أن يتحقق.. احتفلنا معًا.. أقسمنا لبعض إننا لن نترك العمل يؤثر على صداقتنا الطويلة.. ولو حدثت أي مشكلة بسبب العمل لن تؤثر على صداقتنا.. «حسام» تمت خيانته من قِبَل أصدقاء كثيرين بسبب العمل.. يأخذون مجهوده وينجحون هم؛ لذا فقد وعدته أن هذا لن يحدث بيننا أبدًا..

لأكتشف أنني كنت أحمق تمامًا..

قال «حسام» بعد أن طلب فنجانًا من القهوة:

- خير يا «عيسى»؟ اتفضل..

لم يكُن يشغلني إلا كيف اختلف شكله في عيني..

بدأنا العمل بطاقة رهيبة، نكتب معًا ونحاول أن نخرج فكرة عبقرية، لأجد أول عائق يواجهني معه..

«حسام» كان يشك في كل شيء، من كثرة خيانة الأصدقاء ينتظر الخذلان من كل البشر، لا أدري هل كان سامًّا منذ البداية أم تم تسميمه من قِبَل الآخرين..

في النهاية، مبدؤه كان معكوسًا، المتهم سيخذله دائمًا حتى تثبت براءته؛ لذا فقد وجدت جحيم الشك في كل تفاصيل العمل، يتهمني دائمًا أنني أقابل المنتج من ورائه، أنني أريد أن آخذ كل مجهوده باسمي، وكنت - تقديرًا لما

مرّ به - أفسّر دائمًا وأوضح له أن كل تلك الأفكار مجرد أوهام في عقله..
سألت «أسماء» - كنا في بداية زواجنا - ساخرًا: لماذا يشك أقرب الناس لقلبي في كل ما أفعل؟ لتجيبني بمنتهى الجدية أنني من أكثر الأشخاص إثارةً للشك في الحياة.. وعندما سألتها: «لماذا؟»، قالت بجدية لن أنساها عمري:
- أفكارك غريبة.. ساكت ومابتقولش اللي جواك.. صريح بزيادة، ومافيش حد صريح كدا في رأيه.. بتدافع عن الحرية بشكل غريب.. مش بتفكر زينا يعني..
عين الحب جعلتني أرى ما تقول نوعًا من أنواع المجاملة، أنها تقصد أنني مختلف..
عقدت حاجبيّ وأنا أنظر إلى «حسام»، يبدو متوترًا بشكل غير مفهوم، هناك شيء ما يخفيه عني، قلت منفذًا ما أمر به «عيسى» اللعين:
- أنا جاي عشان أصفِّي الدنيا..
نظر لي متعجبًا، ثم انعقد حاجباه في استهزاء، وهز كتفيه في لا مبالاة:
- أنا مش شايل حاجة.. أنا مش فارق معايا حاجة أصلًا..
لماذا ينسى الجميع أنني أحفظهم؟ لماذا لا يدركون أنني رأيتهم مرارًا وهم يمثلون تلك اللامبالاة مع آخرين، ثم يعودون ليبكوا لي عن مقدار الألم الذي كانوا يشعرون به؟
لماذا لا يدركون أنني لا أنسى؟
«حسام» كان السبب لأتعلم حقيقة مهمة في حياتي..
كثير الشك هو أكثر الكذابين احترافًا..
«أسماء»، «حسام»، كانا يكذبان على كل الناس في أدقِّ تفاصيلهما، هما لعنة أنفسهما.. بررا الكذب لأنفسهما بأن كل الناس مثلهما.. فأصبحا يشكان في كل شيء.. عقلاهما يخبرانهما الحقيقة التي يتجاهلانها.. نحن نكذب ونخون ونغتاب.. فمن الطبيعي أن كل من يعرفنا بنفس الصفات..

لحظاتها، كرهت الحلم الذي يفرق بين الصديق وصديقه.. كرهت كل شيء.. اعتذرت للمنتج ببساطة.. قلت له إنني لن أكمل في مشروع تلطخ بفراق من أحب..

لتمر الأعوام، تفعل «أسماء» ما فعله «حسام» قبلها، بتم الطلاق، وأكتشف بالصدفة أن «أسماء» و«حسام» أصبحا أعز صديقين بعدي..

- هو فيه حاجة مهمة؟ عشان للأسف عندي شغل ولازم أمشي.

تجاهلتُ جملته المستفزة وتجاهلت أفكاري، منذ أن رأيته وأنا أحاول أن أحدد شيئًا واحدًا داخلي..

هل أشتاق إلى صديق حمل أسراري وكان في كتفي قرابة عشرة أعوام؟..

لأدرك أن قلبي لا يحمل أي شيء له أو ضده..

قلت معتدلًا في مقعدي:

- أنا مش جاي أرجّع أي حاجة بينا.. اعتبر إني لعبت الشايب وحد حكم عليا إني آجي أقولك إني مسامحك..

ليعقد حاجبيه ساخرًا.. قال ما توقعتُ سماعه:

- تسامحني على إيه؟ أنا ماغلطتش في حاجة أصلًا.. كان سوء تفاهم بينًا وخلص باحترام..

أعلم أنه مثله مثل «أسماء» لا يتذكّر أي شيء من أخطائه، خدعة نفسية منطقية، في عقله أنني من خنتُ وأنني من جعلته يكذب؛ لأنني لم أكُن صديقًا جيدًا..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٣ - «يعشقون دور الضحية، وأجمل مَن يبرر كل شيء على شماعة العالم والبشر والمجتمع، لا يعترفون بخطئهم أبدًا.. الدنيا القذرة هي التي تظلمك طاهري القلوب الملائكة مثلهم»..

هززتُ رأسي مبتسمًا، حتى رده لم يستفزني، قلت بهدوء:

- مش مهم انت شايف إيه.. المهم إني جاي أقولك إننا لما نموت ونتحاسب..
أنا مش هابقى شايل منك حاجة..
زوى شفتيه بمعنى «لا فارق»، فجاءت في عقلي خاطرة، لأنظر إليه وأنا متأكد من الإجابة:
- بما انك انت وهي أعز صحاب دلوقتي.. انت عارف إن في حد عمل «هاك» على حساباتي وبعتها لكل الناس؟ أهلي وأهل «أسماء»..
شرد لحظة وهو لم يكُن يتوقع سؤالي المباشر، ارتبك لحظات وتلعثم وهو يقول متظاهرًا بالقوة:
- آه عارف..
وأكمل والكذب يصرخ في عينيه:
- بس انا ماليش دعوة بحاجة بينكم.. أنا وهي صحاب عشان هي طول عمرها كويسة معايا وماشفتش منها حاجة وحشة..
الحقيقة الثانية التي تعلمتها من «حسام»: لا يثق كثير الشك إلا بكثير الشك مثله، لا أدري لماذا، لكن هناك حكمة ما، عندما يجتمعون على كراهية شخص يصبحون أكثر الأصدقاء قربًا، يعاملون بعضهم بالحرص والشك أنفسهما، فيرتاحون في المعاملة لدرجة لا تُصدَّق، «حسام» يعلم بداخله أن «أسماء» كانت تكرهه، و«أسماء» تعلم أن «حسام» هو من كان ينتقدها ويحاول أن يقنعني أن أخونها دائمًا..
وأنا، الذي رفضتُ منطقها ورفضتُ نصيحته، أصبحت في نظرهما الصديق السيئ والزوج الأسوأ..
نهضتُ من مقعدي، تركتُ حسابي على المائدة، لينظر إليَّ هو بتعجُّب، مددتُ يدي وصافحتُه مودّعًا..
«عيسى الصغير» لم يكُن على حق هذه المرة..

ما فعلته لم يُشعرني بأي شيء، إلا بالحسرة على كل من نعطيه قطعة من قلبنا، فيدهسها ببرود ويمضي حياته كأن شيئًا لم يكُن، تاركًا إيانا نحاول أن نحيا بقلبٍ ناقص.. وحزن مكتوم..

بعين المخرج داخلي، رأيتني أنصرف، ورأيته يصغر في كادر حياتي شيئًا فشيئًا..

حتى يختفي تمامًا..

كأنه لم يكن..

* * *

(٨)

ورابع الكنوز

دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت

وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت

وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا

لكن حاجات أكتر بترفض تموت

عجبي!

صلاح جاهين

لم أكُن أريد أن أنام، ظللت أقود عربتي ساعات طويلة حتى سمعت أذان الفجر..

سجلت لقائي أنا و«حسام» احتياطيًا تسجيلًا صوتيًا، لم أهتم بالوازع الأخلاقي وأنني أسجل محادثتنا من دون أن يعلم، شعرت بخواء تام ناحية الأمر برمته، فلم أفكر فيه كثيرًا..

هاتفتُ «سيرا» وقلت لـها أن تنتظرني في شقة السطح، وأن تجهِّز كل شيء، لا أريد أن أضيِّع الوقت أكثر من هذا، لأعود وأجد كل شيء ينتظرني..

سألتني سؤالًا واحدًا فقط:

ـ الدنيا أحسن؟

سؤال عام، فأجبت إجابة عامة أكثر:

ـ مش فارقة..

لتومئ برأسها في تفهُّم، وتعطيني البطاقة الرابعة..

فتحتها بسرعة لأقرأ..

ـ «(عيسى الكبير)..

هل شعرت بفارق عندما سامحت؟ أعرف أنك لا تشعر الآن بشيء، لا تقلق، عندما تسامح أحدًا لا تشعر بشيء على الفور، بل تشعر به على المدى البعيد.. عندما تنام مطمئن القلب»..

كيف يشعر بي هذا اللعين؟ هل كنتُ بهذا الذكاء فعلًا وأنا في هذا العمر الصغير؟

أكملتُ قراءة متجاهلًا أفكاري، محاولًا الهرب من كل ما يتعلق بالواقع الآن:

- «قرأت أن الشيء الوحيد الأسوأ من المرض، هو الاكتئاب بسبب هذا المرض، واكتشفتُ أيضًا أننا كلنا ما إلا طاقة يا (عيسى)، طاقة تستقبل كل مشاعر البشر وترسلها إليهم؛ لذلك لا تسمح بأدنى قدر من الطاقة السلبية للدخول إلى قلبك يا صديقي، حب قدر استطاعتك وانظر إلى كل مَن حولك بعين تحتويهم، اجعل طاقتك فارقة في حياتهم، لن يسيطر مرض هزيل على حياتنا مهما حدث.. سنصبح ما نريد أن نكون حتى لو تآمر الكون كله على عدم تحقيق ذلك»..

لم أستطِع هذه المرة أن أمنع نفسي من الابتسام ساخرًا، لأول مرة منذ أن بدأت تلك اللعبة معه أرى مدى صغر سنه وقلة خبرته، أردت أن أرسل له رسالة أقول له: «لا يا صديقي، الكون لا يحتاج إلى أن يتآمر ضدك.. قذارة مَن حولك هي التي تأخذ منك كثيرًا».. شيء ما بداخلي منذ مكالمة خال طليقتي جعلني أشعر بغضب دائم، حتى من «عيسى الصغير» الآن..

لم أفكر في الأمر كثيرًا وأكملت قراءة:

- «أقسِم لي إنك لن تجعل الحلم يموت داخلنا يا (عيسى)»..

صحتُ هذه المرة بسخرية، غير عابئ بتصوير الهاتف ولا بوجود «سيرا»:

- يلعن أبو الحلم يا أخي..

لا أدري ما الذي حلَّ بي، لكني نظرت إلى «سيرا» القلقة، وقلتُ باستهزاء:

- حلم إيه دا؟ حلم إيه والناس بتفشخنا في أفكارنا كل يوم؟

ونهضت من جلستي وأنا ألقي البطاقة لـ«سيرا» قائلًا:

- كمِّلي عشان مش قادر أستحمل الهبل دا..

التقطت «سيرا» البطاقة قبل أن تقع من على الأرض، كنت فيما مضى أفهم جميع مَن حولي بمجرد أن أنظر إليهم، الآن وصلت إلى مرحلة من نفاد الطاقة، إنني لا أحاول حتى أن أفهم كيف تتحمل مني كل هذا، فتحَتِ البطاقة في هدوء، اقتربت «سيرا» من الهاتف وبدأت تقرأ بصوت عالٍ، متجاهلة غضبي وسخريتي واستهزائي:

- «اللغز الثالث.. لن أقول لك سوى أشهر رباعية لعمك (جاهين): (أنا اللي بالأمر المحال اغتوى...).. أكمل يا (عيسى)»..

توقفت «سيرا» عن القراءة، ونظرت إليّ بتردد، فرفعتُ رأسي لها، كنت أعشق تلك الرباعية، حاولتُ أن أهدأ قليلًا، قلتُ:

- شفت القمر نطيت لفوق في الهوا..

قالت وهي تنظر إليّ بابتسامة تبث الهدوء في قلبي:

- شفته ماشوفتوش إيه أنا يهمني؟

لأكمل بصوت خفيض وعقلي يشرد:

- وليه؟

وأخذت نفسًا عميقًا، مكملًا:

- ما دام بالنشوة قلبي ارتوى..

ابتسمت «سيرا» في حنان، فنظرت إليها معتذرًا بسبب انفعالي، تحوَّل وجهها إلى الكارت وأكملت قراءة مبتسمة:

- «ولن أقول لك سوى: (وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا.. لكن حاجات أكتر بترفض تموت...).. هل عرفت الحل يا (عيسى)؟.. في نهاية **اللغز الثالث والكنز الرابع أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك، إذًا يحلم.. يجدني.**»..

ضحكت «سيرا» بعد قراءتها آخر جملة ونظرت إليَّ متسائلة، لأجيب من دون تفكير:

- «غريب فيديو جرافي»..

صفقت بيدها في حماس وذهبت ناحيتي، أمسكت يدي وقالت بلطف:

- عشان خاطري ما تزعلش من حاجة، أنا مش عاوزة أتدخل وأجبرك تتكلم.. بس ماتزعلش من حاجة..

ربتُّ على يدها في اعتذار، وقلت:

- كتير بس كل اللي بيحصل دا، بس ماتقلقيش.. أنا زي الفل..

سحبتني من يدي خارجًا، فقلت متسائلًا:

- رايحة فين؟

قالت بنشاطها المعتاد:

- هنروح على طول على هناك..

لأتركها تسحبني من دون مقاومة حقيقية..

* * *

ما إن بدأنا الطريق الطويل، حتى بدأتُ أشعر بالإرهاق، نظرتُ إلى الشمس التي تتوسط السماء ظُهرًا، أدركت أنني لم أنم حتى الآن، ربما يكون هذا هو سبب عصبيتي، أغمضتُ عيني قليلًا ويدي تعبث بالقلم ليصدر صوت التكتكة الذي يهدِّئ قليلًا من أعصابي..

وما إن شعرت أنني أذهب قليلًا في النوم، ضرب جرس هاتفي المحمول، انتفض جسدي وقلبي ينقبض، أصبحت أكره رنته، نظرت إلى الهاتف لأجد رقم أبي، رددتُ عليه بقلق، لأسمع هذه المرة صوته المنفعل:

- تعالى حالًا..

شعرت بنفسي يضيق، قلت بهدوء:

- معلش أنا في مشوار و...

ليصرخ فيَّ بصوت عالٍ:

- قلتلك تعالى حالًا..

بدأت أخرج عن شعوري وقلت منفعلًا:

- فيه إيه طيب؟ حضرتك قلقتني؟

صمت أبي لحظات ليكتم انفعاله، يقولون إنني لم أرث شيئًا من عائلتي، لكني ورثت كل ما لا يُرى، مرض جدتي وكتمان أبي لكل شيء بداخله، قال بصوت هادئ:

- خال طليقتك كلمني، وبيهددني إنه هيبعت الحاجة للناس.. وعاوز فلوس..

نفّذ تهديده إذًا، عندما لم أرد عليه ليلًا كما اتفق معي، قلت وأنا أدرك أنني قد أصيبه بجلطة من توتري:

- أنا مش عارف آخر الحوار دا إيه..

قال بعصبية:

- آخره إنه يغور باللي ماسكه عليك.. في ستين داهية.. إيه اللي هيحصل يعني؟ مش هنخلي واحد زي دا يذلنا على آخر الزمن..

كنت أتمنى دائمًا أن أكون بقوته، جدل استمر بيننا في شخصياتنا طول العمر، هو يهتم بالاستراتيجية والمنطق والنتيجة النهائية، وأنا أهتم بالروح والمشاعر والنفس..

شعرت بنفَسي يضيق أكثر، قلت بنبرة مترددة:

- المشكلة مش فيا.. المشكلة في الناس اللي معايا.. الناس دي وثقت فيا وأنا كدا باضرهم..

صاح بعصبية:

- وانت باكي على ناس ماعندهمش أخلاق ليه؟ مش همّ وافقوا يعملوا كدا معاك؟ يشيلوا قرفهم هم كمان..

ذلك المنطق الملتوي الذي أكرهه، من قال إن كل من يتجاوز الحدود المعروفة يصبح فجأة بلا أخلاق؟ هل الأخلاق كلها تتعلق بالجنس فقط؟ أكره إطلاق صفات على أناس لا نعرف أي شيء عن حياتهم وألمهم وظروفهم، قلت وقد بدأ صوتي يرتجف من الغضب:

- ماحدش فيهم مش محترم.. لو فيهم حد وسخ يبقى أنا.. وهمّ مالهمش ذنب إنهم وثقوا فيا..

ضحك أبي ضحكة غاضبة مستهزئة، وقال:

- مانا عارف إنك أوحش منهم ماتخافش.. لو بتمشي عدل ماكانش حد نهش في لحمك أصلًا.. بس هترضى باللي بيعمله الراجل دا؟

كلهم رأوني عاريًا في ميدان عام، أبي وأمي وطليقتي، أريد أن أبتعد عن كل هذا وأهرب، قلت بنفاد صبر:

- ماعرفش حاجة.. سيبني أفكر..

سمعت صوت إغلاق المكالمة يضرب أذني، نظرت إلى شاشة الهاتف لحظات، قالت «سيرا» وهي بجانبي في العربة بصوت خفيض:

- هتعمل إيه؟

أشرت إلى الطريق، وقلت باقتضاب هاربًا من كل شيء:

- هاكمّل الطريق..

ونظرتُ من النافذة وبداخلي كل شيء يتضارب..

* * *

بعد ساعتين من الزحام وصلنا إلى المكان..

متجر كاميرات التصوير «غريب فيديوجرافي»..

نظرت بإحباط إلى اللافتة المكتوب عليها «فول وفلافل الشبراوي»..

نظرت إلى «سيرا» التي قالت بأسف:

- المحل قفل من ١٠ سنين..

لماذا لا يسير أي شيء بسهولة وسلاسة؟! أدركت لأول مرة قيمة الزمن الذي أحارب فيه.. ثمانية عشر عامًا.. عندما وجدت العلبتين المعدنيتين في الأيام السابقة، جاءني شعور أنني سأجد كل شيء كما تركته.. وكان هذا دربًا من الخيال..

شعرت بإحباط مفاجئ.. الشيء الوحيد الذي يسرّي عني قليلًا من كل ما يحدث هي تلك اللعبة.. على الرغم من عدم اقتناعي الكامل بها الآن..

لكني أعترف أن «عيسى الصغير» عرف أن يلهي عقلي قليلًا بكل ما فعله..

المتجر مغلق، كيف سأجد أي شيء تركه لي فيما مضى؟

هل انتهت اللعبة الآن؟

قلت لـ«سيرا» محاولًا تجاوز إحباطي:

ـ خلاص.. انتِ مسؤولة الرحلة شايفة إني جيت لحد هنا.. اديني الفيديو الرابع وخلاص..

تنحنحت «سيرا» وقالت:

ـ أنا لما عرفت إن المكان هيقفل بالصدفة، سبقتك لهنا.. وخدت الحاجة اللي انت كنت سايبها هناك..

وأخرجت من خلف مقعدها علبة قديمة كبيرة، كانت أول كاميرا أبتاعها في حياتي..

من هذا المتجر تحديدًا..

قالت «سيرا» مبتسمة:

ـ كدا انت لقيت الحاجة.. بس لازم وإحنا هنا أوريك الفيديو الرابع..

ثم ضحكت مكملة:

ـ عشان مش هاضرب المشوار دا تاني..

نظرتُ إلى العلبة في دهشة، ثم نظرت إليها..

كيف بذلت كل هذا المجهود من أجلي أنا فقط؟

قلت ناظرًا إلى عينيها مباشرة:

ـ انتِ جيتي هنا من عشر سنين عشان تاخدي الكاميرا دي؟

أومأت برأسها إيجابًا، ثم قالت ضاحكة:

ـ كنت جاية مع مخرج صاحبي نجيب كاميرات من هنا، لاقيت يافطة "للبيع".. حسيت إن مشروعك كله هايبوظ.. قلبت الدنيا وروحت لحبيبك وخدت منه الحاجة...

سألتها السؤال البديهي:

- انتِ ليه بتعملي كل دا؟

احمرت وجنتاها ونظرت إلى الأرض، أمسكَتْ سلسلتها كما اعتادت عندما ترتبك، ثم نظرت إليَّ وقالت بصوت حنون:

- عشان أنا باشتغل ممثلة بقالي كتير قوي يا «عيسى».. ماشفتش فكرة حركتني لحد دلوقتي زي فكرتك..

وقالت وعيناها تؤمنان بما تقول:

- انت حقيقي يا «عيسى».. من وانت صغير كنت حقيقي وموهبتك حقيقية قوي.. أنا حتى بعد ما نجحت وحققت كل حاجة نفسي فيها.. لسَّه دوري في فيلمك اللي بيتعمل ده هو أكتر دور نفسي أعمله لحد دلوقتي..

وأمسكت يدي وقالت:

- أنا مؤمنة باللي جواك قوي..

سرت قشعريرة في جسدي كله، كيف لكلمات بسيطة أن تغيِّر كل شيء بداخلي بتلك البساطة؟ قلت أول سؤال بداخلي بعد أن سمعت كلامها، وأنا لا أستطيع أن أخرج من إطار عينيها الواسعتين:

- حتى بعد ما عرفتي كل القرف اللي أنا عملته واللي أنا فيه دا؟

ابتسمت وعيناها تدمعان، وقالت بصوت خافت:

- انت تايه يا «عيسى».. وربنا ما يوري حد مرارة التوهة اللي بتخلي الواحد يخبط من الوجع في كل حاجة..

وأكملت ودمعتها تهبط:

- عشان بس يلاقي اللي يرجعه تاني..

الخطوة الثالثة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: صدِّق أعين الأصدقاء المخلصين والأهل فيك.. صدِّق كلامهم عن إيجابياتك.. وكذب كل ما قاله الشريك فيك..هناك من يحبك لقوتك ويريد أن يراك

السيطرة عليك.. ويريد أفضل دائمًا.. وهناك من أحبك لضعفك وسهولة السيطرة عليك.. ويريد إضعافك أكثر.. تعلَّم الفارق..

لم أدرِ ماذا أقول، ابتلعت ريقي وأنا أشعر أن هناك شيئًا يهتز داخلي، مسحَتْ هي دمعتها بسرعة، أخرجت «آي باد» شاشته كبيرة من حقيبتها، وأمسكت هاتفها لتستعد للتصوير، وقالت:

ـ الفيديو الرابع هنا.. هاصوَّرك عشان لما تعرف الإجابة نروح على طول..

نظرت إليها مبتسمًا، لم يكُن في الجهاز سوى فيديو واحد فقط، فقالت «سيرا» ضاحكة:

ـ جبت الفيديو بتاع الكئيب بس..

ابتسمتُ، وضغطتُ على زر تشغيل على الشاشة..

* * *

(٩)

الأمر الرابع

مركب ورق من نفخة تتطوح
ركبتها والكل بيلوح
سوحت فيها اتنين وخمسين سنة
للآن.. ولا بتغرق ولا تروح
عجبي!

صلاح جاهين

- «رقصت كام مرة لحد دلوقتي؟».

بدأ «عيسى الصغير» الفيديو بتلك الجملة القصيرة، أغلقنا نوافذ العربة وأوصلنا الـ«آي باد» بسماعات العربة حتى نسمعه جيدًا، ابتسمت ولم أجبه ليرد هو كعادته:

- ولا مرة.. صح؟

أومأتُ برأسي إيجابًا وأنا أضحك، ليضغط هو على زر في الكاسيت الكبير في غرفتي القديمة، وهو يقول:

- مش هاقول حاجة غير لما ترقص..

واقترب من الكاميرا بطريقة مضحكة وقال كأنه ينادي على شخصٍ ما:

- «سيرا».. لو مارقصش ماتخليهوش يكمل الفيديو.. على الأغنية كلها.. يلَّا..

بدأت نغمات أغنية قديمة قليلًا، عقدت حاجبيَّ وأنا أتذكَّر، كانت أغنية قديمة لمطرب اسمه «حسام حسني» على ما أعتقد، لكني كنت أحبها في هذه السن، دائمًا ما كانت تجعلني أرقص..

بدأ الكورال كما كل الأغاني في وقتها بقول شيء عظيم ومؤثر جدًّا..

«يا بهية»..

كنت أضحك دائمًا على الطريقة الدرامية التي يغني بها الكورال النسائي اسم «بهية»، جيل الثمانينات هو أكثر جيل مظلوم، حتى في أغانينا لن نستطيع أن نذل أولادنا بعبقرية ما كنا نسمعه، ضحكت رغمًا عني، فقالت «سيرا» بلهجة آمرة:

- يلّا.. ارقص..

في حين قال «عيسى» كأنما يعلم أنني سأقاوم، وهو يرقص بطريقة هزلية:

- يلّا يابني.. مافيش غير شوية التفاهة دي هي اللي بتفك عنا شوية.. كفاية كآبة..

أدركت أن «عيسى» كان يقول هذا لنفسه، كان ما زال يحاربني لحظتها، يحارب سيطرتي عليه، لا يريد أن يستسلم لفكرة أنه مريض..

كان يقاوم..

فلماذا لا أقاوم مثله؟

«مش ممكن لازم أقول.. ما هو شكلك مش معقول.. يسحر في قلوب وعقول.. يا بهية»..

بدأت أرقص فجأة بهزلية مثل «عيسى»، لتضحك «سيرا» رغمًا عنها بصوت عالٍ..

كنت جالسًا في العربة، ما جعل حركتي محدودة وأحرِّك نصفي الأعلى فقط.. لمحتُ نظرات المارة وهم يرون رجلًا ناضجًا يرقص بهز صدره مثل الراقصات..

لكني لم أبالِ..

فليذهبوا جميعًا إلى أكبر محرقة جماعية تستطيع أن تحتوي مثاليتهم المزيفة..

كان «عيسى» أكثر حرية، فيرقص بجسده كله رقصه الغربي، لكنه كان يفعل حركات هزلية كثيرة، رقصتُ معه وأنا أحاول أن أنسى كل شيء، أدركت الآن كيف تُخرج كل أنثى عرفتها طاقتها في الرقص، زوجة كانت أو أمًّا، مطلقة أو أرملة، تعطيهن الحياة ما تعطيهن من مآسٍ، ينسون كل هذا في رقصة..

يرقصن على مآسيهن مستهزئات..

انتهت الأغنية، ليتوقَّف «عيسى» عن الرقص وأتوقَّف معه، تصببتُ عرقًا من الحركة المفاجئة، لكن على وجهي ارتسمَت ابتسامة صافية وأنا

أقول لـ«عيسى» ناسيًا أنه مجرد تسجيل:

- مبسوط يا عم؟

جلس «عيسى» على كرسيه، واقترب من الكاميرا، قال وهو يهز كتفه:

- لازم نبدأ.. وعشان نبدأ لازم تروح للراجل اللي خيره عليك.. هتقابل عم «غريب» وتتكلم معاه.. وهتنفّذ الأمر اللي هيدّيهولك مهما حصل..

وكعادته لوَّح بيديه وهو يقول:

- هو وعدني إنه هيفضل عايش.. بس لو مش عايش، «سيرا» هي اللي هتقولك.. سلام..

واسودَّت الشاشة فجأة..

ابتسمتُ في حماس، نظرت إلى «سيرا» لأجدها تمد يدها إليَّ كمن يطلب نقودًا، نظرتُ إليها بعدم فهم، فقالت مبتسمة:

- «الكريديت كارد» بتاعتك لو سمحت..

عقدت حاجبيَّ في عدم فهم، لكن ابتسامتها الواسعة وثقتها جعلتاني أُخرج محفظتي وأعطيها بطاقتي الائتمانية، لتنظر إليها هي وتقول بثقتها الطفولية:

- هنروح البنك الأول، بعدها نروح على عم «غريب»..

لأشعر بقلق خفيف يتصاعد داخلي..

* * *

- عاوز إيه يابني؟

قالها عم «غريب»، الرجل الخمسيني ذو الشعر الأبيض الغزير والوجه الأبيض والعينين الخضراوين، كان «عيسى» وقتها في عمر الرابعة عشرة، يتأمل نافذة عرض المتجر الكبير برهبة، انتفض والتفت لـ«غريب»، ليقول «عيسى» مشيرًا إلى كل كاميرات التصوير وكاميرات الفيديو في كل ركن ورف:

- عاوز أشتري كاميرا..

لينظر إليه «غريب» نظرة مندهشة، «غريب الدريني» كان وسيمًا راقيًا، ذلك الوقار لعائلة كانت من أغنى أغنياء مصر، كان يعشق الإخراج، لكن حياته كرجل أعمال شغلته كثيرًا، حتى أصبح في الخمسين من العمر وأتته أول جلطة من ضغط العمل، فقرر أن يترك مسؤوليات العمل لأولاده، وابتاع ذلك المتجر الواسع الفخم ليجلس وسط أكثر الأشياء التي يحبها في حياته.. الكاميرات..

أشار «غريب» إلى «عيسى» أن يقترب منه، كان جالسًا على كرسي خشبي أمام المتجر، اقترب «عيسى» في ابتسامة مؤدبة، ليسأله «غريب» بحنان أبوي:

- انت فين باباك ومامتك؟

أشار «عيسى» إلى عمارتنا القديمة في امتداد رمسيس، بجانب المتجر، وقال:

- في البيت..

أومأ «غريب» برأسه في تفهُّم وقال ضاحكًا:

- عارف الكاميرا اللي عاوز تشتريها دي بكام؟

قال «عيسى» بفخر وهو يشير إلى صدره:

- أنا محوِّش العيدية كلها عشان أجيبها..

رفع «غريب» حاجبيه في انبهار تمثيلي، وقال مجاريًا «عيسى»:

- طب وعاوز تشتري كاميرا تصوير صور ولا فيديو؟

ليقول «عيسى» بحماس:

- فيديو طبعًا، أنا عاوز أبقى مخرج أفلام..

هذه المرة تأمَّل «غريب» «عيسى» بنظرة مختلفة، ابتسم وقال في هدوء:

- اللي في سنك بيبقوا عاوزين يبقوا ممثلين عشان يبقوا زي رشدي أباظة وعادل إمام.. انت ليه عاوز تبقى مخرج يعني؟

قال «عيسى» بشغف:

ابتسم الرجل في حنان، ثم نهض من مقعده وأمسك «عيسى» من يده، دخلا المحل معًا، تأمله «عيسى» وهو يشبُّ بجسده ويُخرج له كاميرا كبيرة الحجم، يبدو عليها القدم، وأعطى «عيسى» إياها، الذي أمسكها في انبهار، قال «غريب» في هدوء:

ـ الكاميرا دي حلوة قوي، مستعملة، بس هتطلعلك صورة حلوة.. ولو عملت بيها حاجة عجبتني.. هاديك كاميرا أحسن منها..

ابتسم «عيسى» بفرحة، أخرج من جيبه ظرفًا أبيض، وفتحه ليُخرج منه نقودًا، تأمله عم «غريب» و«عيسى» يعد النقود بحماس ثم يمد يده بها، سأل «غريب» بابتسامة فضولية:

ـ كام دول؟

ردَّ «عيسى» بصوت خجول:

ـ دول ٤٠٠ جنيه.. بس والله همّ كل اللي معايا..

ضحك «غريب» ضحكة عالية، اقترب من «عيسى» وربت على كتفه، وقال:

ـ ماينفعش تبقى ساذج كدا.. اسأل الأول على سعر الحاجة عشان مايتضحكش عليك..

وأشار إلى الكاميرا بعينيه وهو يقول:

ـ الكاميرا دي بـ ٢٠٠ جنيه بس..

بدت الفرحة على وجه «عيسى»، في حين ضحك «غريب» في هدوء، أخذ المال منه، ليودعه «عيسى» قائلًا:

ـ هاصوَّر أول فيلم وأوريهولك..

وانطلق راكضًا بحماس..

* * *



كان عم «غريب» يسكن في مبنى قريب من المحل، كدت أركض وأنا أصعد درجات السلم القديم في لهفة، هناك ذلك السيناريو المتوقع، أن يكون قد انتقل إلى مكان آخر، بعد أن ترك متجره، كنت أصعد ببطء على الرغم من حماسي، «عيسى الصغير» داخلي يريد أن يجعلني أقفز درجتين في قفزة واحدة..

«عيسى الصغير» كان يصعد السلم دائمًا سابقًا السلمة بسلمة أعلى منها.. عندما كانت أمي تنهره خوفًا من أن يقع، كان يضحك في سره بسخرية.. كانت لدينا قناعة أن السلم التقليدي مقيَّد للوقت والطاقة؛ لهذا يعشق الأطفال القفز من فوقه.. ويعشقون أيضًا التزحلق على سوره.. أدركت الآن وأنا أصعد بذلك البطء واللهاث أن أمي لم تكُن تريد أن تقيِّدني.. بل كانت ترى الدنيا بعينيها.. فكلما كبرنا في العمر نخاف من السقوط أكثر..

حتى لو منعنا خوفنا من السقوط من حرية التحليق.. لا نبالي..

وصلت إلى باب الشقة، نظرت إلى «سيرا» مبتسمًا، نسيت كل ما كان يحدث مع أبي، نظرت إلى الباب وضربت الجرس، ووقفت أنتظر في ترقُّب..

ليُفتح الباب وأجد رجلًا في عمري مرتديًا «فانلة» داخلية، ينظر إلينا في تساؤل، ابتسمتُ وأنا أحاول الحديث متغلبًا على لهاثي:

ـ السلام عليكم.. كنت عاوز أسأل على عم «غريب»..

ابتسم الرجل وهو يهرش في شعره، قائلًا:

ـ ياه.. حضرتك بقالك كتير ماكلمتوش؟!

أومأت برأسي أن نعم، وقلبي بدأ ينقبض متوقعًا أن يصدم خبر وفاته أذني الآن، لكن الرجل قال بضحكة:

ـ عم «غريب» عزّل من ٨ سنين كدا.. أنا مأجّر الشقة منه..

تنفست في راحة، قلت بأمل:

ـ طيب ممكن رقمه الجديد أو عنوانه؟

قال الرجل بطيبة:

ـ آه طبعًا.. بس ممكن أعرف حضرتك مين؟

قلت وأنا أمد يدي إليه مصافحًا:

- أنا «عيسى الشواف»..

خرج مني الاسم بتلقائية، أدركت أنني استخدمت اللقب بعد أن خرج من فمي، لكن رد فعل الرجل أثار دهشتي، فقد اتسعت عيناه في دهشة، وضحك قائلًا:

- يا راجل.. انت بقى «عيسى الشواف»؟!

وتحولت نظرته المتسائلة إلى نظرة من يلتقي صديقًا قديمًا، مد يده وسحبني داخل الشقة قائلًا:

- دا قارفنا بيك يا راجل.. حتى شوف...

وجدته يسحبني فذهبت معه وأنا و«سيرا» نتبادل نظرات غير فاهمة، دخلت «سيرا» خلفنا، وهو يقول ماسكًا يدي:

- ما تخافش، المدام والعيال برَّه.. تعالى.. تعالي..

بدت الشقة مختلفة تمامًا عن الشقة القديمة التي دخلتها مرارًا عندما كنت أزور عم «غريب».. شعرت بإحراج مفاجئ وأنا أجد الشقة غير مهندمة.. لكنه استمر في سحبي داخل الشقة لدرجة أنني شعرت أنه سيأخذني إلى غرفة النوم.. لكنه توقف عند غرفة أتذكَّرها جيدًا، فتحها بقوة، كانت تلك الغرفة فيما مضى «استوديو» صغيرًا نسجل فيه الأفلام أنا وعم «غريب»، تحوَّلت إلى غرفة معيشة عادية جدًّا، لكن الرجل أشار إلى الحائط وهو يقول:

- عم «غريب» يبقى جوز عمتي، ولمَّا أجَّرت منه الشقة حلِّفني إني عمري ما أنزِّل الصورة دي من على الحيطة دي أبدًا..

نظرت إلى الصورة وقشعريرة تسري في جسدي..

كانت صورة في برواز كبير، لعم «غريب»، خلفه محل الكاميرات، يبتسم في ثقة وفرحة حقيقية..

كُتِب جانبه بخط كبير: «إخراج: عيسى الشواف»

كانت صورة «أفيش» أول فيلم وثائقي لي في حياتي
فيلم عن حياة عم «غريب»..

* * *

- «cut».
قالها «عيسى» بابتسامة طفولية فخور، من خلف الكاميرا التي يصوّبها نحو عم «غريب»..
كان «عيسى» في السابعة عشرة من عمره. للدِّقَّة: في آخر شهر قبل أن يتم الثامنة عشرة، أصبح أكثر طولًا، أكثر إصرارًا على أن يجعل العالم كله يرى الدنيا بعينيه، ابتسم عم «غريب» وهو يستريح في جلسته أمام محله الكبير، أشار إلى «عيسى» أن يقترب قليلًا، فاقترب «عيسى» حاملًا الكاميرا التي أهداه إياها «غريب» منذ أول لقاء، أمال «عيسى» الكاميرا ليرى «غريب» الفيديو في الشاشة الصغيرة الجانبية، كانت هذه عادتهما، يريه الفيديو فيقول «غريب» ملحوظاته على الكادر وحركة الكاميرا، ليتعلَّم منه «عيسى» في شغف وينفِّذ كل ملحوظاته.. هذه المرة نظر «غريب» إلى الفيديو نظرة غير فاهمة.. والتفت إلى «عيسى» قائلًا:
- ليه ماعملتش اللي نبَّهتك عليه؟ وليه واخد الكادر من تحت قوي كدا؟
ابتلع «عيسى» ريقه وقد توقَّع اعتراضه، لكنه ابتسم وأجاب بحماس:
- عشان ما اقتنعتش قوي بالملحوظات دي.. حتى لو غلط فَدَا إحساسي..
عقد عم «غريب» حاجبيه، في حين أكمل «عيسى» وهو ينظر إلى الأرض بخجل:
- وواخد الكادر من الزاوية دي عشان انت في عيني عظيم قوي.. حسيت إن من هنا هيديك حقك.. زي ما أنا شايفك..
نظر «غريب» إلى «عيسى» في حنان ممزوج بالفخر، وقال بابتسامة مازحة:
- بقيت بتعدل عليا كمان؟

ليقول «عيسى» باعتذار:

- والله أبدًا.. ولا أقدر..

ليلكزه «غريب» في كتفه، ويقول بصدق:

- بالعكس يا حمار.. لازم تعدل عليا وتمشي ورا إحساسك انت.. أنا القديم وانت الجديد.. البهايم اللي بيعلّموا الناس ازاي يبقوا زيهم مابيخرّجوش مبدعين.. بيخرَّجوا بقر زيهم حافظين مش فاهمين..

ابتسم «عيسى» في ارتياح، ليسأل «غريب» بلهجة جادة:

- ها.. انت دلوقتي هتخلص مونتاج الفيلم بتاعي دا.. إيه فكرة الفيلم الجاي؟

جلس «عيسى» على الأرض أمامه.. كان هذا هو ما يفعلانه طول أربع سنين.. ما إن ينتهي من تنفيذ فكرة، حتى يطلب منه «غريب» فكرة أخرى لينفذها على الفور.. اعتبر «عيسى» هذا تدريبًا رائعًا؛ لذا فقد كان يؤديه بإخلاص.. على الرغم من رفض أهله وغضبهم ممَّا يضيِّع فيه وقته.. قال «عيسى» وهو ينظر بترقب إلى عيني «غريب»:

- فكرة غريبة وهتبقى مشروع عمري..

بدا الفضول على وجه عم «غريب»، واعتدل في جلسته.. ليقول «عيسى» بابتسامة شغوف:

- مشروع الـ١٨ بعد الـ١٨..

ضيَّق «غريب» عينيه، فاعتدل «عيسى» في جلسته ولمعت عيناه..

وبدأ يشرح بحماس غير طبيعي..

ومع كل كلمة يقولها، يبدو على «غريب» التأثر أكثر وأكثر..

ليُنهي «عيسى» كلامه بسؤال:

- انت مثلًا يا عم «غريب».. كنت تتمنى وانت عندك ١٨ سنة تقول لنفسك إيه دلوقتي؟

ضيّق عم «غريب» عينيه لحظات كأنما يستوعب السؤال، ثم تغيّرت ملامحه لحظات في شرود، دُهش «عيسى» عندما ظهرت دمعة شجن بين مقلتيه العجوزين، نظر إلى «عيسى» قائلًا:

- بطّل تخاف..

عقد «عيسى» حاجبيه في دهشة، ليكمل «غريب» كلامه في لحظة فضفضة نادرة لم تحدث من قبلُ:

- لو بطّلت أخاف يا «عيسى» كان زماني بقيت مخرج كبير دلوقتي.. بدل مانا بابيع الكاميرات للمخرجين..

وقال غامزًا لـ«عيسى»:

- سهّير ليالي وياما لفيت وطُفت.. وفي ليلة راجع في الضلام قمت شفت.. الخوف، كأنه كلب سد الطريق.. وكنت عاوز أقتله..

عم «غريب» هو من جعل «عيسى» يعشق «صلاح جاهين»، جعله يقرأ أشعاره كلها، ابتسم «عيسى» وأكمل الرباعية:

- بس خفت..

سعل «غريب» كأنما يداري على دمعته التي لم تغادر عينه، ونظر إلى «عيسى» نظرة تحمل ألف معنى، وقال:

- بس عارف بقى؟ لو أنا هاسيب رسالة، نفسي أقولها ليا وأنا عندي ١٨ سنة.. هاقوله إيه؟

نظر «عيسى» بابتسامة متسائلة، ليقول «غريب» وهو يربت على كتف «عيسى»:

- خليك زي «عيسى الشواف».. الولد اللي عاوز يخلي البشر كلهم تشوف جمال الدنيا بعينه هو بس..

سرت قشعريرة في جسد «عيسى» كله، وكلمة جدّه ترن في أذنيه في اللحظة نفسها..

«وفضل جدك بحكي عن (عيسى) اللي قال (ليه؟)»..
ومن دون أن يدري، احتضن عم «غريب»..

* * *

ما كل تلك المشاعر والذكريات التي تواتيني؟
ببطء، نظرت إلى الفيلا في التجمُّع الخامس، بعد أن أعطانا الشاب العنوان في حماس، وقدنا طريقًا يزيد على نصف الساعة حتى وصلنا، ووقفنا تحت الفيلا، أنظر إليها في حيرة..
لماذا يرتجف قلبي بكل تلك الأحاسيس المتناقضة؟
قالت «سيرا» هامسة وهي تمد يدها لتمسك يدي:
- حاسس بإيه؟
نظرت إليها لحظات، لا أدري ماذا أقول، ثم كعادتي معها قلت أول ما خطر ببالي:
- واحشني جدًّا وعاوز أطلعله.. في نفس الوقت حاسس إنه لو شافني هيجيله إحباط من اللي وصلتله..
تلك الصورة اللعين على الحائط ذكَّرتني كم كان هذا الرجل يؤمن بي، ذكَّرتني بكل شيء كان يراه في مراهق عادي، كيف سيراني الآن وأنا هذا الـ«عيسى» الذي دهسته الحياة واستسلم لها سنوات من عمره؟..
خرجت من العربة، وصلت إلى باب الفيلا المعدني، كانت فيلا قديمة نوعًا، فتحت الباب من دون استئذان، لم يقابلني حارس ليوجِّهني، كأن عم «غريب» ترك كل شيء على طبيعته ببساطة، ولم يترك الخوف يتحكَّم فيه فيعيِّن حارسًا ويركِّب نظامًا إلكترونيًّا لفتح البوابة..
سمعت صوت مياه مندفعة من خرطوم، بمنتهى قلة الاحترام والقواعد والأصول، توجهت إلى الجهة الخلفية للفيلا لمصدر الصوت، عسى أن أجد أي شخص أسأله عن عم «غريب»..

لكني ما إن ذهبت إلى الحديقة الخلفية للفيلا، حتى وجدته بجسده الضخم يقف يسقي زرع الحديقة بخرطوم مياه..

ابتسمت في حنين وأنا أتأمله، ما زال وسيمًا أنيقًا كعادته، بدا أصغر من سنه التي تجاوزت السبعين الآن، تهدلت كتفاه وانحنى ظهره قليلًا، ظهرت التجاعيد أكثر على وجهه، لكن عينيه ما زالتا راضيتين مبتسمتين..

ربتت «سيرا» على ظهري، لم يكُن يرانا حتى الآن لانغماسه الشديد في الاهتمام بالحديقة، شعرتُ بثقلٍ في روحي، لا أستطيع أن أناديه، لكن «سيرا» نادت عليه بصوتها المتحمِّس:

- عم «غريب»..

التفت إلينا بسرعة من المفاجأة، ضيَّق عينيه للحظات لتزيد التجاعيد حول عينيه، ما زال متكبرًا يرفض أن يرتدي نظارة تُحسِّن من نظره قليلًا، كان دائمًا ما يقول لي إنه يُفضِّل أن يرى الدنيا بزغللة عينيه على أن يرى الواقع بقبح تفاصيله، اقترب منًّا ببطء، مع كل خطوة يخطوها ناحيتنا، أسمع دقات قلبي العالية تزداد سرعة..

استمر ضيق عينيه كأنما لم يعرفني بعدُ، لم تنفرج ملامحه بأي مشاعر، لاحظت عينيه تتجهان لـ«سيرا» لحظات وهي تصوب الكاميرا نحونا، لم يُبالِ بها واقترب مني أكثر حتى وقف أمامي، ونظر إلى عينيَّ مباشرة..

ابتسمتُ في ارتباك، كنت أفتقده بشدة، ووددتُ لو عرفني فأركض ناحيته وأحتضنه، تلاقت أعيننا ووقفنا صامتين لحظات صمت فيها الزمن كله..

ثم ابتسم..

ابتسم ببطء، فانفرجت أساريري أنا بدوري..

ثم هوى على وجهي بصفعة سمعت صوت صداها في المنطقة كلها..

* * *

جلس عم «غريب» بجانب «سيرا الصغيرة»، أمامهما «عيسى الصغير»، يتأمل تلك اللوحة الكبيرة التي كان يخطط فيها «عيسى» لكل المحطات التي

سيجبر «عيسى الكبير» على خوضها.. نظرة عم «غريب» الراضية كانت تسعد «عيسى» جدًّا وتجعله يشرح بحماس أكثر..

حتى توقَّف «عيسى» عند اللحظة التي سيجعل مستقبله يلتقي عم «غريب»، وقال:

- دورك مهم هنا قوي يا عم «غريب»..

كانت عينا «غريب» تبدوان مستمتعتين بما يسمع، في حين أكمل «عيسى» بحماس:

- ساعتها انت هيجيلك واحد من اتنين: يا أنا، «عيسى» اللي انت عارفه.. يا هو.. «عيسى» اللي خلاص نسي كل حاجة..

ضحك «غريب» ضحكة مستهزئة، وقال بحيرة:

- وأعرف الفرق بينكم ازاي؟

هرش «عيسى» في رأسه، تكتك بقلمه الأثير مفكِّرًا، ثم قال:

- لو أنا هتلاقيني جايلك بكاميرا جديدة، وشكلي حلو كدا وفرحان، لو هو يبقى هتلاقيني جايلك مش معايا كاميرا..

وهزَّ كتفه وهو يكمل بحيرة:

- وشكلي ميت..

ضحك «غريب» في حنان، قالت «سيرا» رافعةً يدها:

- ممكن أنا ساعتها أقوله برضه.. أغمزله مثلًا ولا أي حاجة..

منذ أن بدأ التخطيط للمشروع، وتعرَّف «غريب» إلى «سيرا»، صديقة العمر. قال لـ«عيسى» إن فتاة بذكائها وجمالها ستحقق حلمها وستصبح ممثلة ناجحة.



قال «عيسى» بتركيز وهو ينظر إلى «غريب»:

- الفكرة ساعتها بقى هتعمل إيه؟ عشان دا مهم..

قال «غريب» من دون تفكير:

ـ لو لقيتك هاحضنك.. لو لقيته هاضربه بالقلم..
تبادل «عيسى» و«سيرا» نظرة قلقة، فضحك «غريب» وقال:
ـ ما هو لازم حد يفوَّقه..
فكر «عيسى» لحظات، ثم هزّ كتفه وضحك قائلًا:
ـ طول ما هو مش أنا دلوقتي.. يبقى اضربه جامد بقى.. هتبقى لقطة حلوة في الفيلم..
ليضحك «غريب» و«سيرا» معًا..

* * *

رن صدى صفعته إياي عاليًا، شعرتُ بصوت صفير في أذني، وجسدي يفقد توازنه قليلًا بسبب الصفعة المفاجئة..
وضعتُ يدي على وجنتي في حركة تلقائية، وأنا أنظر إليه ثانية، ليجذبني إليه ويحتضنني بقوة..
قال بصوت عميق حنون:
ـ واحشني يا «عيسى» قوي..
تضارب كل شيء داخلي، شعرتُ بالدم يتدفق إلى رأسي، وفي الوقت نفسه أفتقده جدًّا، هل كان يقصد أن يثير كل تلك المشاعر داخلي؟ لم أفهم..
التفَّتْ ذراعي حوله، لأجده يربت على ظهري بطريقة جعلتني أريد أن أبكي فجأة، تركت عناقه بهدوء، التفتُّ له غير مصدق، قلت أول ما جاء بخاطري:
ـ انت لسَّه عايش ليه لحد دلوقتي؟
ليضحك ضحكة عالية، ويربت على كتفي قائلًا:
ـ عشان مستني أشوف فيلمك لما يطلع..
احتضن «سيرا» بشوق مرحبًا بها، جذبني لنجلس على مقاعد خشبية

زيّنت حديقته، كنت أشعر أنني لا أعرفه، لا أتذكره جيدًا، لا أتذكر كيف كنت أحدثه أو أتعامل معه..

هذا التفكير أرعبني.. هل بدأ المرض يؤثر على ذاكرتي لتلك الدرجة؟ شعرتُ أنه رجل كبير غريب عني.. لم أستطع حتى أن أمزح معه بطريقتنا القديمة.. هناك شيء ما خطأ..

ثم تذكرت..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٤ - «يُبعدك الطرف الآخر عن محيطك من الأصدقاء.. إما بافتعال المشكلات معهم وإما بكراهيته المطلقة لكل من قد ينصحك بالابتعاد.. يخشى دائمًا أن يكشف عنه من يرى تأثيره التدريجي عليك.. تستسلم بعد فترة من الحرب البسيطة للحفاظ عليهم.. تختفي من حياتهم.. عندما تعود بعد انتهاء العلاقة لن تستطيع التعامل معهم جيدًا.. هم ينتظرون الشخص القديم وأنت لم تعُد تتذكر أي شيء عنه»..

كان يتأملني بنظرته الخبيرة، فزاد ارتباكي، تحولت عيناه إلى «سيرا» ليرحمني قليلًا من التجوُّل في روحي، وقال:

- إيه الأخبار؟

لتقول ناظرة إليَّ بحنان شعرت أن هناك بعض الشفقة تتخلله:

- لسَّه بعيد..

يهز رأسه في تفهُّم، في حين يزداد غيظي وارتباكي، لماذا يتحدثون بتلك الطريقة المستفزة؟ لماذا يصدقون طفلًا لم يتجاوز الثمانية عشر عامًا ويشعرونني أن العيب فيَّ أنا؟

نظر «غريب» إلى «سيرا» ثانيةً وقال بلهجة عملية:

- جبتي الفلوس؟

عندما توقفنا عند البنك، أخذت «سيرا» الرقم السري، لم أكُن خائفًا لأن حسابي في البنك بعد كل إجراءات الطلاق ومؤخر الصداق والنفقة ونفقة المتعة، لم يتبقَّ فيه إلا آخر مرتب لي قبل الاستقالة، وهو سبعة آلاف جنيه؛ لذا فعندما وجدت رسالة تصل إلى هاتفي المحمول تخبرني أن هناك سبعة آلاف جنيه تم سحبها من حسابي، شعرت بالقلق، عادت «سيرا» إليَّ وعندما وجدت نظرتي المتسائلة، قالت:

- هتفهم كل حاجة، ماتقلقش..

ردت «سيرا» على سؤال عم «غريب» قائلة وهي تُخرج النقود من حقيبتها:

- معايا آه.. ٧٠٠٠ جنيه..

رفع حاجبيه وقال مستنكرًا:

- بس؟

ونظر لي بابتسامة أبوية:

- ١٨ سنة وماحوشتش خالص؟!

قلت محاولًا أن أكتم غيظي قليلًا، ولمحبتي الخالصة له:

- الدنيا بقى.. أصلي اتجوزت..

رفع حاجبيه وقال بابتسامة طيبة:

- مبروك..

لأقول بسرعة:

- وطلقت..

لتتسع عيناه في دهشة، لكنه أدرك بسرعة بديهته وقال باللهجة نفسها:

- مبروك..

ضحكت «سيرا» وابتسمت أنا في مجاملة، صفير أذني [illegible] الصفعة ما زال يضايقني وأشعر أنني لستُ على ما يُرام، قلت محا[illegible] عقلي بأي حوار جانبي:

- عامل إيه يا راجل يا عجوز؟ واحشني جدًّا.. أخبار [illegible] والأولاد؟

نظر إليّ «غريب» نظرة متعجبة، ثم ابتسم وهو يهز رأسه في حسرة، لأجد نفسي أقول بعصبية لا أدري مصدرها وأنا يستفزني عدم فهمي لكل ما يحدث:

- انت بتتعامل ليه كأن واحد مات لك؟ إيه خيبة الأمل اللي على وش حضرتك دي؟

نظر إليّ نظرة غاضبة، فقالت «سيرا» معتذرةً بطريقة استفزّتني أكثر:

- معلش سامحه، هو ما يقصدش..

لم أحتمل، فقلت بسخرية أتقنها كي أداري كل ما أشعر به:

- إيه الجو دا؟ ما تكتبوا عني عيل تايه يا ولاد الحلال أحسن؟

حسنًا، لم يكُن «إفيه» جيدًا، لكنه دفعني لأكمل ما أشعر به خلف ستار سخريتي:

- انتو ليه محسسني إنكم فاهمنّي بقى وعارفنّي أكتر من نفسي؟ وإيه الأخبار، ولسّه بعيد يا حرام، ومسيره يرجع بقى..

وقلت مُشيحًا بيدي:

- انتم ماشيين ورا عيّل عنده ١٨ سنة.. ومحسسني إنه الولد الفظيع اللي لازم أبقاه عشان حياتي تتحسّن.. بس أنا مش شايف كدا..

تبادل «سيرا» و«غريب» نظرة آسفة استفزتني أكثر، نهضت من مقعدي ونظرت إليهما وبدأتِ العصبية تتسلل إلى صوتي:

- كلنا بنكبر.. أنا ماكنتش فاهم حاجة زمان.. لما بنكبر بنتغيَّر وبنبقى أعقل.. أنا دلوقتي أحسن من «عيسى» بتاعكم دا كتير..

لماذا أشعر بهذا الغضب؟ هل لأن صفعة «غريب» آلمت كل ما يتعلق برجولتي؟ كيف يعطي أحدٌ الحق لنفسه أن يهينني وأنا في السادسة والثلاثين من عمري؟ لماذا يبيح جميعُ مَن حولي لأنفسهم أن ينتهكوا كرامتي، متوقعين أن أتفهم؟! تذكرت وجه خال طليقتي وهو يسخر ويقول إنني لست رجلًا ليحترمني.. أتخيل وجه طليقتي الشامت وهي تعلم أنها قلبت موازين العالم

على رأسي انتقامًا.. نظرت إلى «[illegible]

- على الأقل يا «غريب» عايش بحارب، بحارب عشان أقف على رجلي كل يوم.. مش خايف من كل حاجة وحياتي واقفة بقالها ستين سنة..

لأول مرة في حياتي أقول اسمه من دون لقب «عم» قبلها، ولأول مرة منذ أن رأيته أجد عينيه تنظران إليَّ بصرامة، لم أبالِ، أردت أن أنفجر وليحدث ما يحدث، قالت «سيرا» لي بلهجة فيها مزيج من التحذير والقلق:

- «عيسى»!

لأشيح لها بيدي، وأنا أدرك فجأة كل ما يحدث حولي.. ما الذي أفعله هنا؟ ما الذي أطارده؟ تركت بيتي وأبي وأمي وحياتي كلها.. تركت حربًا شنتها طليقتي وخالها على عالمي كله..

وأطارد سرابًا اسمه «عيسى القديم»، هاربًا من كل شيء!

نظرتُ إلى «غريب» الذي نظر إليَّ لحظات، ثم ابتسم ليستفزَّني أكثر وهو يلتفت إلى «سيرا» قائلًا:

- دا بعيد خالص..

صرخت من دون أن أحترم أي شيء داخلي يُجبرني ألَّا أصرخ:

- بطَّلوا تتكلموا عني كإني واحد تاني..

وضربت صدري بقبضتي بقوة وأنا أصرخ:

- أنا هو أنا.. أنا مش واحد تاني..

بدت جملتي غير منطقية وضعيفة، لكني شعرت بجسدي كله يرتجف من الانفعال..

* * *

قال «عيسى الصغير» ناظرًا إلى «غريب» نظرة مكتئبة، في وقت ما:

- أنا ممكن أتعب قوي.. وكمان ١٨ سنة ما اقدرش أعمل الفيلم دا أصلًا.

ليربت «غريب» على كتفه، كان خبر المرض قد تأكد، فيكمل «عيسى» بابتسامة متوترة:

ـ خليك حنين عليا لما أجيلك تاني.. مش هاعرف أتكلم وهيبقى فيا اللي مكفيني..

وقال بحزن وهو ينظر إلى كل الكاميرات المرصوصة في المحل:

ـ مش مصدق إني ممكن ما اكملش.. أنا كنت باحلم أصور بكل الكاميرات دي..

لتهبط دمعة «غريب» الحانية..

* * *

بدا الخوف على وجه «سيرا» وهي تنظر إليَّ بقلق، لكن «غريب» قال بصوت صارم وهو ينظر إلي مباشرة بعينين تخرسانني:

ـ انت «عيسى» طبعًا.. بس مش «عيسى» اللي أنا أعرفه..

ونهض من مكانه ليقف أمامي، أهلكه الزمن وأصبح أقصر قامة مني، لكنَّ نظرته جعلتني أشعر أنني أقصر منه بكثير، قال بلهجة صارمة:

ـ لو مليون عيِّل غيرك كان قالي على الموضوع بتاع الفيلم دا ماكنتش هاصدقه ولا أمشي وراه..

وأكمل وعيناه لا تتزحزحان عن عينيَّ لحظة:

ـ انت كان فيك كل العبر.. كنت عيل فاكر نفسك دمك خفيف وهو يلطش.. كنت مكتئب وفاكر نفسك أكبر من صحابك.. ما كانش ليك صحاب كتير عشان باعِد نفسك عنهم.. قافل على روحك وبتقرَّب منهم بس مابتقربهمش منك.. كنت عيل عادي يعني.. زي كل العيال اللي في سنك..

وأشار إلى «سيرا» من دون أن يلتفت إليها:

ـ الوحيدة اللي استحملتك هي البت الغلبانة اللي قاعدة ورانا دي.. شافت فيك اللي أنا شفته..

وعلى الرغم من انخفاض صوته، وثبات عينيه، فإنني شعرت بكلامه يرج قلبي:

ـ انت كان فيك ميزة واحدة بس يا حمار.. لما بتتكلم عن حلمك كان قلبك بينوّر.. كان عندك موهبة تعرف تقنع بيها حتى واحد أكبر منك بسنين زيي.. كانت روحك منورة.. عارف الميزة دي إيه؟

وأكمل بنبرة صارمة وهو يضرب صدري بسبابته:

ـ إنك كنت تتصدّق يا «عيسى»..

سرت قشعريرة في جسدي، في حين ابتعد هو قليلًا، نظر إليّ نظرة احتقار، وقال بهدوئه:

ـ واللي قدامي دا واحد مايتصدّقش.. مابقاش فاضل فيك غير التقل والدم اللي يلطش والكآبة..

وأشار بسبابته أنْ «لا» وهو يكمل:

ـ وأنا مش هاعمل زي ما انت عاوز وأفضل أطبطب عشان تعيشلي في دور الضحية دا كتير.. هات الفلوس وامشي.. ولو مش عاوز ترجع براحتك يا حبيبي.. حياتنا مش هيحصل فيها حاجة، انت اللي هتفضل تخسر حياتك..

انعقد حاجباي في عدم فهم، وقلت:

ـ انت عاوز الفلوس دي ليه أصلًا؟

لينظر إليّ نظرة يائسة، ثم يتركنا ويدخل الفيلا من دون أن يتحدث..

* * *

قال «عيسى الصغير» لـ«غريب»:

ـ هتديني كاميرا أحدث نوع ساعتها.. عشان أصوَّر الفيلم والناس اللي فيهم بـ«كواليتي» حلوة وبطريقة احترافية..

قال «غريب» بتركيز:

ـ بس دي هتبقى غالية..

ليبتسم «عيسى الصغير» ابتسامة حنونة، وقال ناظرًا إلى «غريب»:

ـ هاخلي «سيرا» تتأكد إنها جابتلك كل اللي معايا ساعتها.. وأنا متأكد إن اللي معايا وأنا كبير هيبقى فلوس كتير قوي.. ما هو مش هيبقى موت وخراب ديار..

لينظر إليه «غريب» ويبتسم هازًّا رأسه في تفهُّم..

* * *

عاد «غريب» حاملًا كاميرا حديثة، كاميرا تزيد قيمتها على أربعين ألف جنيه، اقترب مني وأنا أنظر إليه في عدم فهم، ومد يده لي بها، فنظرت إلى الكاميرا التي ما زالت في علبة تصنيعها لم تُمس، قلت بعدم فهم:

ـ بتديهالي ليه؟ أنا مش معايا ربع فلوسها..

لأول مرة أرى نظرة «غريب» الأبوية تعود إلى عينيه، وهو يبتسم ابتسامة واسعة قائلًا كأنما يتذكر:

ـ عادي.. ماتشيلش هم..

قلت معترضًا وأنا أبتعد عنه خطوتين:

ـ لا طبعًا أنا مش هاقبل بكدا..

ليريح «غريب» يده الممدودة، وينظر إليَّ بحنان، ويقول:

ـ أول كاميرا اشتريتها مني.. خدت منك ٢٠٠ جنيه..

ثم ضحك وقال ناظرًا إلى «سيرا»:

ـ كانت ساعتها سعرها الحقيقي ألفين ونُص..

ثم رفع يديه بالكاميرا ثانية، وقال ناظرًا إليَّ بابتسامة تسع كل ما يحيِّر قلبي المتهالك:

ـ بس أنا كنت باستثمر في البني آدم.. مش في الكاميرا..

وأكمل:

- خدها يا «عيسى».. دوّر على اللي فاضل منك والحقه..

وغمز بعينه قائلًا بجذل:

- وابقى سلملي على «عيسى» لما يرجعلك تاني..

* * *

وقفت على سطح فيلا «سيرا»، أنظر إلى الشمس التي أوشكت على الغروب..

تلك النسمة الباردة الخفيفة التي تطمئن روحي أكثر من أي بشري عرفته في حياتي..

لم أنم منذ البارحة ولا أرغب في النوم، في ليلة واحدة قابلت «حسام» وهددني خال طليقتي معلنًا الحرب وبلغ أبي..

وقابلت عم «غريب»..

من يصدِّق أن كل ما حدث لم يتجاوز خمسة أيام حتى الآن..

أشعر بالتعب من كل شيء..

أشعر أن هناك من يغتصب روحي من دون رحمة..

ينتهك ما تبقى لديَّ من طاقة، قاذفًا قاذوراته على كل ما بقي داخلي من قوة، تجعلني أقف على قدميَّ..

أشعر أنني «مُنتَهٍ».. لا توجد لديَّ نقطة رغبة، في الحياة، باقية..

سمعت صوت أغنية عالية تبدأ من خلفي..

التفتُّ بسرعة، لأجد «سيرا» تقف على باب الغرفة المطل على السطح، ممسكة بسماعة «JBL» كبيرة، وتقترب مني مبتسمة قائلة بصوت عالٍ:

- ارقص..

قلت بإرهاق وبلا رغبة حقيقية:

- مش قادر ومش عاوز..

قالت «سيرا» وهي تضع السماعة على سور السطح:

- «عيسى» أمر.. ماينفعش ماتنفذش..

وأمسكت يدي وهي تسحبني مكملة:

- أنا المرة دي اللي عاوزة أرقص..

هل كانت عيناها تدمعان؟ لم أستطع أن أرى، كانت أغنية فرنسية حانية؛ لذا بدأ جسدها يتمايل كراقصة غجرية في حركات بطيئة، جعلتني أنظر إليها بشرود.. هناك حالة ما فيها سحبتني..

Il faudrait être des dieux, il faudrait être fort..

يجب أن نكون آلهة، يجب أن نكون أقوياء..

Comme si mouiller des yeux, c'est pour ceux qui ont tort..

كما أن العيون تدمع، لأولئك الذين كانوا على خطأ..

وضعت يدي على خصرها الذي تموَّج تحت يدي في حركته الهادئة، لأشعر بإيقاع روحها المكسور يتخلل داخل قلبي..

ما بها؟

Il faudrait danser, et cacher sa douleur..

يجب أن نرقص لإخفاء آلامنا..

Être le dernier à pleurer, jamais montrer sa peur..

كُن آخر من يبكي.. لا تُظهر أبدًا أنك خائف..

وضعت يدها على رأسي من الخلف لأقترب من جسدها الراقص، نظرت إلى عينيها لأدرك حقيقة أنهما دامعتان، على الرغم من ابتسامتها الساحرة الخجول وهي تهز كتفها على إيقاع الأغنية الفرنسية ذات الطابع الإسباني..

ابتسمت وبدأ جسدي يتمايل معها..

I[illegible]ois, il faudrait faire le fier..

يجب علينا أن نكون ملوكًا، علينا التصرف بفخر..

Comme si baisser les bras, c'est pour celui qui perd..

كما أن الاستسلام مكتوب لأولئك الذين خسروا..

حالة اللحن ونسمة الهواء الباردة جعلتاني لا أفكر كثيرًا، استيقظ الراقص داخلي فألصقت جسدي بجسدها، ووضعت يدي الثانية على خصرها، لتتسع ابتسامتها الخجول الساحرة، وعيناها الحزينتان بشكل غريب..

عينان تناديان..

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي بنعومة، وبدأت أتمايل..

بدأت أحركها أنا.. فيستجيب جسدها في خضوع..

Il faudrait cogner, et puis bomber le torse..

يجب أن نضرب، وننفس عن صدورنا..

رفعت يدي إلى أعلى لتدور هي حول نفسها ممسكةً يدي، في استجابة سريعة كأنما كنا نرقص معًا منذ الصغر، ابتعدت وهي تمسك يدي ودارت حول نفسها لتعود بقوة فيستقبلها صدري الخافق، وتتلاقى أعيننا..

Être le premier à crier plus fort..

كُن أول من يصرخ بصوت عالٍ..

تلاقت أعيننا فترة أطول ممَّا ينبغي..

ما هذا الذي أشعر به؟

النسمة الباردة، ذلك الشعور بالابتعاد عن كل شيء، تلك الرغبة الحارقة للجسد أن يقترب أكثر ممَّا ينبغي، أكثر ممَّا هو مسموح به، تذوب روحك ببطء، ومعها يذوب كل شيء فيك، تشعر أنك مخلوق ناقص فجأة، لا يكمله إلا لحظة تلاقٍ أسطورية تُنسيه عالمه.. استيقظ داخلي شيء كان قد مات منذ زمن طويل.. جذبتني رغبة كَوَت روحي فتركتُ نفسي تمامًا وملتُ

لتستقبلني عيناها مستجيبة، راضية، تـ...

قلت بضعف هامسًا:

ـ أنا مش قادر أحب..

لترد ردًّا أذابني:

ـ وأنا كمان مش قادرة أحب..

وتهمس:

ـ بس عاوزة أعيش..

لتتلاقى شفاهنا في قبلة هادئة..

Mais que Dieu me pardonne..

لعل اللـه يسامحني..

J'ai tout fait à l'instinct..

لقد حرَّكتني الغريزة..

Moi je ne suis qu'un homme..

أنا فقط مجرد رجل..

Peut-être un bon à rien..

لا أجيد أي شيء آخر..

تحوَّلت القبلة الهادئة إلى شيء أكبر، غمر روحي شعورٌ بالاستكانة كأن هذا مكاني منذ البداية.. ذاب فمي في فمها فعشقت طعم روحها.. تحرَّكت يدي لتمر على ظهرها وتمر يدي الأخرى على شعرها الناعم لأقرِّب رأسها أكثر لي فلا أترك لها خيار الابتعاد..

كأنها ستختار أن تبتعد..

وضعت «سيرا» يدها على رقبتي في استسلام تام للحظة من الألم الذي لن يشعر به سوانا.. ألم بالعمق الكافي الذي لن ننساه إلا بتلك اللحظة التي

ينتشي فيها العالم بأكمله..

الخطوة الرابعة عشرة لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: اترك نفسك لحظات.. توقف عن منع نفسك كما اعتدت خوفًا من العواقب.. تعلم كيف تستمتع من دون قلق النتائج.. صدِّق أنك حر الآن..

استمرت الأغنية الصاخبة تدوي خلفنا..

تاركة إيانا نداوي آلام أرواحنا بإحساس صادق..

في قبلة بدت أنها لن تنتهي أبدًا..

* * *

(١٠)
قضبان

فتحت عينيَّ فجأة بضيق، لأكتشف أن نور الشمس يضرب وجهي مباشرة..

لقد نسينا كل شيء، نسينا أن نغلق الستائر، نسينا السماعة الـ«JBL» على سور السطح، نسينا حتى أنفسنا..

لم يزِد الأمر على قبلة..

قبلة طويلة، وعناق دام طويلًا، حضن استكانت فيه أوجاعنا حتى شفيت..

ثم ودَّعنا بعضنا في هدوء..

لم نكُن لنحتمل تعقيدات الجنس في علاقتنا..

سمعت صوت طرقاتها على باب الشقة، ذهبتُ مسرعًا وفتحت الباب، لأجد ابتسامتها المشرقة وعينيها اللتين ذهب ذلك الحزن منهما، قالت وهي تدخل:

ـ قدامنا لسَّه طريق طويل..

ضحكت أنا وقلت بهدوء:

ـ طب أفطر الأول..

بصفقة صامتة بأعيننا، تظاهرنا أن شيئًا لم يكُن، بعمق صداقتنا عرفنا معًا أننا لن نترك تلك القبلة تغيِّر أي شيء، لحظة ساحرة مرَّت ولكن لا يوجد أحدٌ فينا يتحمل عقبات التغيير وتعقيدات المشاعر الآن..

قالت بصرامة ناظرة إليَّ:

ـ يلَّا عشان نصور الـ...

ضرب جرس هاتفي فانتفضتُ بقوة، ذهبت إلى غرفتي وأمسكت الهاتف وأنا أشعر بانقباض في قلبي، استقبلت المكالمة لأسمع صوت أبي البارد يقول:

ـ تعالى حالًا..

دعكت عينيّ في كسل وقلت بصوت متحشرج:

- أنا لسّه صاحي يا بابا، فيه حاجة؟

لأسمع سؤالًا جعل قلبي يخفق في خوف:

- هي «سيرا» نايمة جنبك ولا مشيت؟

نظرت حولي في حيرة، هل يراقبني؟ كيف عرف أنني مع «سيرا»؟ اقتربت «سيرا» ونظرت إليّ مستفهمة، قلتُ بحرص:

- حضرتك عرفت منين؟

ليرد بصوت بارد كالثلج:

- البس وسيب النجاسة اللي انت فيها دي وتعالى حالًا باقولك..

وأغلق المكالمة في وجهي، شردت لحظات وعقلي يذهب إلى كل الاحتمالات السيئة، نهضت فجأة لتسأل «سيرا» السؤال المحتّم:

- فيه إيه؟ قلقتني!

بدأت في ارتداء ملابسي بسرعة، وقلت كاذبًا:

- ماما تعبت قوي لازم أروحلها، خليكِ هنا لحد ما أطمّنك عليها..

لتنظر إليَّ غير مصدِّقة، مدت يدها إليَّ بحيرة، لأجد الكارت الخاص بـ«عيسى الصغير» في يدها، نظرت إليها معتذرًا وأخذت الكارت، أكملت ارتداء ملابسي وركضت خارجًا..

* * *

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٥ - «يصادقون أحادي الأبعاد سهل التحكم فيه، ولا يحبون إلا الشخصية الذكية كثيرة الأبعاد وصعبة المنال؛ لذا فعندما تدخل علاقة وتجد كل من يحيط بشريكك من الأصدقاء المقربين ضعيفًا وبلا ملامح.. ابتعد.. الشريك فيه سم قاتل».

* * *

وصلت إلى الفيلا، طردت ذكرياتي ودخلت شقة أبي بمفتاحي، ذهبت كعادتي إلى الداخل، لكنني سمعت صوت أبي الصارم من الصالة في الخارج:

- تعالى يا «عيسى»..

توقفت عن سيري، الصالة هي مكان الرسميات، مكان استقبال الضيوف والاجتماعات الكارثية، هنا جلسنا وقت عرفنا بمرضي، هنا جلسنا وقت مرض والدي، جلسنا قبل زفافي، هنا مكان الحوارات الثقيلة..

ذهبت بخطوات بطيئة، وجدت أبي جالسًا ينظر إلى الأرض، في حين تمسك أمي هاتفه المحمول وتنظر فيه، حمرة وجهها جعلتني أدرك الكارثة، لم تدعني أجلس، وجَّهت شاشة الهاتف صوبي وقالت بلهجة مذعورة:

- إيه دا؟

اقتربت ببطء، أمسكت الهاتف الذي تيقَّنت أن هناك مصيبة ما داخله..

وجدت رسالة في تطبيق «واتساب» من خال «أسماء»:

- مش عارف أشكر ابنكم ازاي، بيسهِّل علينا الدنيا قوي.

وهناك، بعد تلك الرسالة، أكثر من خمسة وعشرين «فيديو»، وأكثر من خمسين صورة..

كلها لي أنا و«سيرا» على السطح البارحة..

فتحت فيديو منها، لأجد ما توقعته..

قبلتي أنا و«سيرا»..

شعرت بأن الأرض تختفي تحت قدميَّ، وبرغبة في السقوط، تماسكت ولم أقع، لم أُبدِ أي رد فعل بأسلوب تعلمته من أبي، عقلي يصرخ بما يطمئنني: «هذا لا يحدث لك، هذا يحدث لشخص آخر»..

قرأت آخر رسالة أرسلها خال «أسماء»:

- كدا الكلام اختلف، اللي مع ابنكم دي لو مش عارفينها ممثلة مشهورة قوي، متجوزة منتج معروف، ودا يثبت إن ابنكم مش راجل، وخاين، ومش

سايب حد في حاله.. أنا عاوز حق «أسماء» كامل.. وبزيادة كمان..
عقدت حاجبيّ في حيرة حقيقية..
متزوجة؟!
قلت باعتراض وأنا أشعر أنني منفصل عن الواقع تمامًا:
- على فكرة هي مطلقة مش متجوزة.. الراجل دا مش عارف حاجة..
لترفع أمي هاتفها في وجهي للمرة الثانية، شعرت بالحيرة للحظة، ثم أدركت أن هاتف أبي هو الذي كان معي، نظرت مُقرّبًا رأسي، لأجد صورة لـ«سيرا» محتضنة رجلًا وسيمًا للغاية، تحته خبر مكتوب بخط عريض.. «الفنانة سيرا تحتفل بعيد زواجها العاشر مع زوجها المنتج مصطفى حامد».. نظرت إلى التاريخ لأجد أنه منذ أسبوعين فقط..
قبل أن نلتقي بفترة قصيرة!
ما هذا الهراء؟
رغمًا عني شعرت بصدري يضيق، وأنا أتذكر..

* * *

قبل حفل زفافي بيومين فقط، حدث شجار كبير بيني وبين «أسماء» عندما هددها زوجها السابق بالانتقام منها وهدد بأنه سيؤذيها، فخافت «أسماء» وتحدثا لفترة، لأكتشف كل ذلك فجأة بالصدفة..
وكان أكبر شجار خضناه في وقتها..
لعنة أعرفها في شخصيتي منذ زمن، افعل كل شيء في الحياة لكن لا تدارِه..
منعتني «أسماء» من التدخل في الأمر نهائيًا، استخدمت وقتها كل الحيل الدفاعية، حتى إنها ذكرتني بكونها أكبر مني بعام، وتعرف كيف تحل الأمور بشكل مناسب، بكت وهددت وتشنجت وصرخت وترجت، وشجار طويل انتهى بأنني الظالم الذي لا يقدر خوفها كالمعتاد..
هل كان خوفها من الأذى يبرر إخفاءها أنها تحدث زوجها السابق؟ هل

غيرتي العمياء هي ما تتحكم فِي الآن، أم أن لدي الحق فِي كل ما أفعل؟..

وزفافي باقٍ عليه يومان فقط...

لأشعر بالعجز..

* * *

إحساس العجز نفسه وأنا أقف أمام نظرة والدي ووالدتي الآن..

قلت بضيق حقيقي وأنا أشعر أنني أريد أن أركض خارج الكرة الأرضية، بعيدًا عن حقارة كل ما أرى:

- ويعدين يعني؟ هو عاوز إيه؟

نظر إليَّ أبي وقال بعملية كعادته:

- هتسيب القرف اللي انت فيه دا.. وترجع شقتك هنا تاني..

قلت معترضًا وقد بدأت أنفعل من الصورة التي في عقليهما:

- أنا مافيش أي حاجة حصلت بيني وبين «سيرا»..

ليتسم أبي مستهزئًا، وتقول أمي وهي موشكة على البكاء:

- يابني انت ليه بتعمل فينا كدا؟ إحنا قصَّرنا معاك في حاجة؟

نظرتُ إليها مستكرِّا ابتسمت رغمًا عني في سخرية، ذلك السلوك الدائم لي في الهروب من ضغط الموقف، قال أبي متجاهلًا ما قالته أمي تمامًا:

- مافيش راجل وست بيقعدوا مع بعض في مكان واحد إلا وبيغلطوا مع بعض..

للمرة الثانية يثير غيظي بنظرياته العامة النابعة من أبناء هذا الجيل كله، قال لي إن من أحدثهن «بلا أخلاق»، والآن يفترض أننا أنا و«سيرا» نمارس الجنس لمجرد أننا ذكر وأنثى في مكان واحد.. قلت وأنا أنظر إلى عينيه مباشرة:

- ماحصلش أي حاجة بينا..

ثم قلتُ بانفعال وشعوري بالعجز يعود [illegible]

- انتم القروض تصدقوني أنا وتكدبوا [illegible] هاخاف.. لو عملت حاجة هاقول..

هز أبي رأسه في عدم تصديق، ثم قال كأنها لا يهم ما نتحدث فيه:

- المهم دلوقتي انت هترجع بيتك، لحد ما نشوف هنعمل إيه في المصيبة دي..

ورمقني بنظرة أكثر غضبًا وهو يقول:

- والمفروض تبعد لوحدك عشان سمعة البنت.. كفاية اللي هيحصلها بسببك..

نظرت إليه وأنا أشعر بقلبي يحترق من الغضب..

* * *

قبل حفل زفافي بيومين، كلمني «شريف» تليفونيًا..

زوجها السابق..

رقم غريب رددت ليه، لأجد صوته الغليظ، وعندما عرفت من هو، شعرت بتوتر شديد، ولم أدر ماذا أفعل..

تأكدت أنه رجل قذر..

هناك رجال ينظرون للمرأة كأنها ملكية خاصة بهم فقط، لا يصح لها أن تتزوج بعده، بل لا يصح لها أن تشعر بأي شيء بعده، يطاردها ويحطم حياتها باستمرار، ولا يترك لها فرصة أن تكون حرة ولو لثوان...

صمت تمامًا عندما أخبرني باسمه، ليقول لي آخر شيء توقعت أن أسمعه:

- أنا عارف إنك مش هاتصدقني.. وهاتشوفني راجل ناقص.. بس أنا بكلمك عشان أقولك خد بالك..

كان يحذرني..

حكى لي أسباب طلاقه من «أسماء»، أخبرني أنه ما زال يعشقها، أنه أدمنها تمامًا لأنها احتلت كيانه، ورغم خبرته في الحياة لأنها كانت تتعامل مع خالها في تجارته، إلا أنها عرفت كيف تضحك عليه وتدمره نفسيًا بأسلوب بسيط وهو الاستنزاف الناعم.. تعشش في كل تفاصيل حياته بعمق..، ثم تسحب

الجرعة تدريجيًا ليصبح عبدًا لها، ينفذ كل ما ترغب فيه بإشارة من يدها..

حكى لي قصته وسمعته بصبر، لم أصدق حرفًا، لم أنتبه لما بين الحروف في قصته، أخبرتني «أسماء» مرارًا كم هو كاذب، كان يضربها ويهينها، خانها أكثر من مرة، فكيف أصدق رجلًا كهذا؟

صمّت أذنيّ قصصُها وتبريراتها فكنت لا أسمع، ارتديت عمامة عشقها ولم أكن أرى سواها.. شكرته بهدوء على تحذيراته، لم يكن يستخدم لهجة سوقية أو عدائية، كان رجلًا أنهكه إدمانها ولا يرغب إلا في تحذير كل من بعده "أن عشقها فيه سم قاتل"...

طلبت منه بهدوء أن يبتعد عنها وعني، قلت إنها أصبحت في عصمتي الآن ولا بد من أن يحترم هذا، ليغلق معي المكالمة باكيًا، ولم أسمع عنه منذ ذلك الحين..

كلمت «أسماء» أخبرها بما حدث، ضحكنا وسخرنا من ضعفه وبكائه، وطمأنت نفسي بأنني سأكون بخير..

* * *

لكني لم أكُن بخير أبدًا..

- بالمناسبة!

قالها أبي بعد أن قال جملته الأخيرة، انتزعني من ذكرياتي فاكتشفتُ أنني ما زلت واقفًا في منتصف الصالة، نظر إليَّ نظرة تحذيرية، قلَّما ينظر إليَّ أبي نظرات تحذيرية، قال بهدوء:

- سواء البنت دي متطلقة أو هتطلق.. مافيش حاجة اسمها إنك تجيلي كمان شهرين تقولي بحبها يا بابا وعاوز أتجوزها..

وأكمل باشمئزاز لا يقصده ساخرًا:

- أصلك حنيّن كدا وطري.. بت خاينة وماهاش أهل ولا حد يشكمها.. هتصعب عليك وتضحك عليك.. تلف دماغك فالاقيك بتقولي بحبها يا بابا..

وأصبحت نبرته أكثر حدة وهو يقول:

- واحنا مش ناقصين قرف..

أيَّدَت أمي كلامه في حماس، فنظرت إليهما مستنكرًا.. صرخ عقلي فيه: «ما شأنك أنت؟»، لكنني صمتُّ احترامًا..

ما كل هذه الأحكام المسبقة والظلم البيِّن؟

طول عمري أستنكر كيف يسمح البشر لأنفسهم في العالم أجمع بإطلاق أحكام مطلقة بتلك العنصرية والكراهية؟

ألا يدركون أن ما بهم من عيوب ونواقص يجعلهم يخرسون إلى الأبد من الخجل؟

ألا يدركون أن لولا ستر الله عليهم لما استطاعوا أن يرفعوا أعينهم إلى أعلى أبدًا من الخزي والعار؟

نظرت إلى أبي لحظات في غضب مكتوم..

في كل المجتمعات المتحضرة، ينفصل الأولاد في قراراتهم عن الأهل منذ عمر الثامنة عشرة، يخوضون تجاربهم ويعيشونها كاملة، سواء ذهبوا إلى الجحيم أو عاشوا أسوأ حياة ممكنة، لا يتدخل الأهل في قرارات الأبناء مهما حدث، ليس مطلوبًا منهم إلا الابتسام والدعم النفسي لأولادهم؛ لأن هذه حياتهم، قراراتهم، يعيشونها كما يريدون وليس كما يريد أهلهم، لكن فقط في ثقافتنا الاجتماعية المتحجرة، يظل الأهل يتدخلون في أتفه القرارات بدافع «الحب».. بدافع «الخوف».. حق مكتسب جعل من الحياة جحيمًا.. ثقافة أن الأبناء امتداد للآباء، فلا بُدَّ أن تصبح حياتهم مثالية من أجل «تاريخ العائلة» والمظهر..

قلت وأنا أنظر إلى أبي كاتمًا كل الانفعالات التي تجتاحني:

- ليه؟

فهما من سؤالي أنني أحب «سيرا» بالفعل، فانتفضت أمي، ونظر إليَّ

أ... ... لن يفهما أبدًا أنني أتحدث في المنطق، لماذا لا أحب فتاة

حتى لو كانت عاهرة.. حتى لو كانت بلا أهل.. حتى لو كانت راقصة؟!
لماذا أحكم على أي شيء في ظروفها وأنا أعرف شخصها؟
أليست هذه حريتي؟
لماذا المنع في الأساس؟
قال أبي وقد بدأ يدرك نظرتي:
- عشان إحنا لسّه عايشين في قرف آخر حد اخترته.. عاجبك اللي إحنا فيه دا؟ كلنا قلنا لك من الأول الجوازة دي مش عاجبانا وانت عاندت..
نظرت إليه لحظات بغضب..
ذِكْرُ فشل قديم للسيطرة على المستقبل..
أسلوب تحكمي صرف..

* * *

- بص يابني.. أنا حلفت إني ما اتدخلش في اختيار أي حد من ولادي في الجواز..
قالها أبي في اليوم الثاني، عندما حكيت له ما حدث مع «شريف»، ليرد أبي بجملته، ويكمل بعدها:
- فكرة إنك ماتجوزتش قبل كده، ورايح لواحدة مطلقة صعبة، إنت خبرتك قليلة، وهي طليقها مش هايسيبكم في حالكم...
كنتُ متعبًا من كل شيء، إجراءات الزواج وشجاري مع «أسماء» ثم ذهابي كي أطَمئن نفسي وأطَمئنها..
عندما ذهبت إلى «أسماء» في بيتها حتى أصالحها، كانت تبكي وتحكي لي عن خوفها وقلقها ممَّا حدث، عن الصدمة النفسية التي تعرضت لها عندما واجهت طليقها، كيف كانت ستموت من القلق والخوف لأنها تذكرت

ماضيها الموجع معه، احتضنتُها وهوّنت عليها وأخبرتها أنني سأحميها ولن أسمح لمخلوق بأن يؤذيها..

لتبكي في حضني منهارة..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٦ - «دائمًا ما يمتص الاهتمام حتى في المصائب الكبرى التي تحدث لك.. يسرق الشريك مصائبك ويحوِّلها بطريقة خبيثة من الاستعطاف لمصيبة حدثت له هو.. تجد نفسك، في عقلك الباطن، تشعر أن ما حدث لك تسبّب في تدميره هو.. تهوِّن عليه وتحتويه وتحاول أن تسعده، ناسيًا أنك أنت من تستحق الرعاية والاحتواء»..

عدت إلى البيت لأكمل تمثيلي المقنع..

أحادث أهلي وأمثل أنني واثق وهادئ حتى لا يقلقوا، لدى المحيطين بك تلك النزعة الأنانية، أن يجعلوا ما يحدث لك داخل دراما قصتهم هم، أيام مرضي كانوا يحكون لأقاربهم مدى إرهاقهم وتوترهم النفسي، وينسون ما أشعر به..

لكنها صفة أتقبَّلها فيهم..

جميعنا أنانيون..

قلت بإرهاق لأُطَمْئِنَهم كعادتي، راسمًا أكبر ابتسامة مزيفة رسمتها في حياتي:

ـ أنا عارف إنكم قلقانين، بس الموضوع مالوش علاقة بـ«أسماء».. طليقها ده كان راجل مجنون وراح لحاله..

قال أبي بحرص، عالمًا أنه يحدِّث شخصًا قد استنفد طاقته كلها:

ـ «أسماء» مش وحشة.. الحاجة الوحيدة اللي شايفها فيها إنها متدلعة قوي.. عصبيتها وحشة وانت مش هتعرف تتحكم فيها وهتقرفك.. بس الوسط والمحيط اللي حواليها مش زينا يا «عيسى».. الناس دي بتنزل قوي

عشان القرش.. دول هيبقوا جدود عيالك..

أومأت برأسي في تفهُّم، أُدرك تمامًا نظرتهم ومصدر قلقهم، لم تكُن لديَّ نية في الإنجاب من الأساس، واتفقت مع «أسماء» على هذا، لكني قلت بهدوء:

- الفرح بكرة يا بابا، واحنا كاتبين كتابنا.. أنا عارف إن القصة شكلها وحشة.. بس لو اتطلقنا دلوقتي يبقى الراجل ده نجح إنه ينتقم من «أسماء».. وأنا مش هاسمح بدا..

وقلت بثقة:

- ما تخافش..

لم يقتنع بحرف، لكنه نظر إليَّ بحيرة، قال بهدوء:

- انت حر يابني.. دي حياتك واختياراتك.. أنا حلفت زي ما قلتلك إن عمري ما هاتدخل.. ربنا يباركلك..

* * *

والآن، لأنني اخترت اختيارًا خاطئًا، لم أعُد حرًّا.. وذهب وعد عدم التدخُّل أدراج الرياح..

لم تعُد حياتي.. بل حياتهم..

كرهت ذكرياتي وكرهت وقوفي أمامهم، عندما ذكر أبي اختيار «أسماء»، كانت حركة استراتيجية منه ليكسب النقاش..

ويخسرني..

أردت أن أصرخ أن لا أحد له أن يتدخل، لأحب من أحب وأكره من أكره، حتى لو وقعت في غرام الشيطان نفسه، لكن كعادتي الأثيرة صمتُّ..

لن يفهم أحد منهم..

ذلك المفهوم البسيط المدعو «حرية مطلقة»، حاربته أجيالٌ من المتخشِّبين ذهنيًّا، الخائفين من كل شيء حتى أنفسهم، الباحثين عن الأمان حتى لو

باعوا أنفسهم في المقابل، لن يتركوا هذا المفهوم ويتقبلوا شخصًا بكل عيوبه ويعاملوه كبشري له الفرص والأحقية نفسها..

ذلك الجيل الذي يتتبع فضائح الجميع ويزايد عليه ضاحكًا في شماتة، يدَّعي الفضيلة من أجل المظاهر الخارجية، لا يشعرون بها بداخلهم، بل يشعرون بالمفروض أن يشعروا به.. وأكثر ما يثير غيظي أنهم ربوا معظمنا على تلك المفاهيم الخاطئة.. حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أحارب ذلك المنطق بكلمة واحدة يقفون جميعهم أمامها مرتبكين: «لماذا؟».. لم أجد حتى الآن إجابة واحدة عنها.. يصل بهم الأمر في النهاية إلى الكلمة الأثيرة التي تُنهي النقاش:

- هو كدا.. مجتمعك كدا.. لما تغيره بقى ابقى اعمل اللي انت عاوزه..

مددت يدي لأبي لأعيد إليه الهاتف، قلت وأنا أنصرف:

- أنا محتاج أشم هوا شوية..

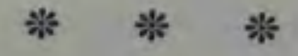
قال بصوت عالٍ كي أسمعه قبل انصرافي:

- ترجع شقتك النهارده..

الخطوة الخامسة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا تسمح ثانيةً لأي مخلوق على وجه الأرض أن يتحكَّم فيك أو يسيطر عليك أو يجبرك على شيء ما لا تريده.. أنت ملك نفسك من الآن فصاعدًا..

لم أُبالِ وأنا أغلق الباب بعنف..

كارهًا كل لحظة تمر في الحياة الآن..





(١١)

وخامس الكنوز

وأنا في الضلام.. من غير شعاع يهتكه
أقف مكاني بخوف ولا أتركه
ولما ييجي النور وأشوف الدروب
أحتار زيادة.. أيهم أسلكه؟
وعجبي!

صلاح جاهين

نظرتُ إلى الهاتف لأجد أكثر من رسالة ومكالمة من «سيرا» لم أستطع أن أرد عليها..

جلست على شنطة عربتي أمام بنزينة الإمارات، جلست بجانبي «آن» التي لم تتأخر ما إن أخبرتها أنني أحتاج إليها..

لعمرها لم تتأخر مرة واحدة عني..

كنت في حالة غضب، ما إن أتت حتى حكيت لها كل شيء، سمعتني من دون أن تقاطعني، وهذه معجزة في حد ذاتها، «آن» برج الجوزاء، فيها كل الصفات الرائعة والصفات السيئة في قالب واحد.. صديقة جيدة، لكنها تقاطع في الكلام كثيرًا.. تعجبتُ لتفكيري، مرَّ زمن طويل على تحديدي مَن حولي بأبراجهم، «عيسى القديم» مَن كان يفعل ذلك، كان يضع لصفات الأبراج صفات حقيقية في أناس يقابلهم، ليست تلك المكتوبة المجاملة في معظم صفاتها.. «عيسى» كان يعرف الأبراج من البشر ويضع صفات من لحم ودم..

حكيت لها كل شيء، وهي تنظر إليَّ في تركيز تستمع، حتى صمتُّ تمامًا، هزت رأسها وقد أدركت هول الموقف، قالت بهدوء:

- بس طبيعي يعني.. أهلك مستحيل يصدقوا حاجة تانية يا «عيسى».. ماتظلمهمش..

نظرت إليها بغضب، ثم قلت بعصبية:

- حتى لو غلطت معاها.. إيه المشكلة؟ الكون اتخرب في إيه لما غلطنا في لحظة ضعف؟

هزت كتفها وقالت بهدوء:

- انت في مجتمع مش بيسمح بكدا، لا أخلاقيًا ولا دينيًا.. مش عاجبك روح مكان تاني برطع فيه..

قلت لها بانفعال وأنا أحرك يديَّ كعادتي:

- التعامل مع المنطق المختل بيحرق دمي.. وعارف إن منطقي برضه مختل لناس كتير.. الفكرة بقى ليه محاولة الإقناع؟ ليه تتعب نفسك وتقرفني عشان تقولي إني غلط؟ وليه أنا أتعب نفسي عشان أفهمك إن انت غلط؟ ماحدش سمع عن «لا ضرر ولا ضرار»؟

وأكملت محادثًا شخصًا وهميًا لأوضِّح المثل:

- يا سيدي أنا مش موافق على أفكارك ودماغك والأصول بتاعتك، هاسيبك تعيش حر بيها ومش هاضايقك.. في المقابل انت مش موافق على دماغي سبني في حالي أعيش، وأنا دماغي وطريقة حياتي ومبادئي مش هتنغَّص عليك عيشتك في حاجة.. صعبة دي؟

نظرت إليَّ لحظات، شعرتُ أن نظرتها مترددة، فقلت صائحًا:

- قولي.. إحنا مابنخبيش على بعض حاجة.. ومابنزعلش من الصراحة..

نظرت «آن» إلى الأرض لحظات، ثم قالت من دون أن تنظر إليَّ:

- انت تعرف عني إيه يا «عيسى»؟

انعقد حاجباي من غرابة السؤال، ثم فاض بي الكيل فقلت بسخط:

- لا ماتقوليش إنك هتحكيلي عن مآسيكِ دلوقتي وإنك موجوعة برضه وأنا مش حاسس..

نظرت إليَّ نظرة مستهزئة، وقالت ساخرة:

- مآسي؟ لا يا عم ما تقلقش.. أنا قصدي تعرف إيه عني.. عن شخصيتي.. لو حد قالك اوصف «آن» هتقوله إيه؟

شعرت أن في سؤالها فخًا ما، لكنني أجبتُ حتى لا أبدو وغدًا لا يعرف عنها شيئًا:

- انتِ صاحبة عمري.. دمك خفيف وبتحبي الحرية زيي.. بتفهميني جدًا وبحب هزارنا مع بعض.. ناجحة في شغلك ومرعوبة من الارتباط والجواز عشان اتفشختي كتير في حياتك..

نظرَت إليَّ نظرة هادئة متفهمة، ثم قالت بابتسامة استفزني هدوؤها:

- طب قولي كدا إيه الفرق بيني وبين «سيرا»؟

سؤال أغرب، نظرت إليها بعدم فهم، فقالت سؤالًا أبسط:

- اوصفلي «سيرا» كدا..

قلت وقد بدأت تضايقني بأسئلتها:

- صاحبة عمري.. دمها خفيف ومؤمنة بحلمي.. بتفهمني وبتحاول تنفِّذ معايا مشروع عمري.. ناجحة في شغلها وكارهة الحب والجواز عشان اتطلقت قريب..

ثم نظرت إلى أعلى مفكرًا، وقلت بحيرة:

- هي قالتلي انفصلت من سنتين، وعرفت بعدها إنها لسَّه متجوزة.. مش عارف!

قالت بهدوء وابتسامتها يبدو عليها الانتصار:

- يعني لو جيت تقدِّمنا لأي حد.. مش هتعرف تلاقي فرق.. نفس الشخصيات بالنسبة لك.. ومش أنا وهي بس.. «ياسين» و«درية» و«شمس» وكل أصحابنا.. مش شايفهم؟ مش شايف اللي بيعملوه عشانك؟ مش شايف حياتهم ولا اللي جواهم مخليهم مختلفين؟

بدأ صبري ينفد من عدم فهمي، فهمَتْ «آن» نظرتي، فقالت مفسِّرة:

- انت عايش من ساعة الطلاق بعينك انت بس، «أسماء» خدت منك

حاجات كتير، مابقاش عندك طاقة تعرف أو تفهم حد، فبقيت بتشوف كل حاجة حواليك من خرم إبرة.. عاوز تعمل اللي انت عاوزه وكل اللي حواليك يتقبلوا من غير ما يسألوا.. قعدت سنين بتحاول تفهّم «أسماء» الصح بتاعك وفشلت.. فخرجت عاوز الناس كلها تستحمل الصح بتاعك من غير ما يفهموا.. واحنا بشر يا «عيسى»..

ومدت يدها لتضعها على كتفي، توترتُ وأنا أسقط في حفرة من عدم الأمان التام، قلت بحنق وأنا أنظر حولي:

- بلاش لَتلاقي حد بيصوَّرنا ولا حاجة..

رفعت إصبعها الوسطى في الهواء ونظرت حولها وقالت صائحة:

- يلعن أبوه.. مابيهمنيش..

أشعرتني حركتها بثقة ما، فرفعت يديَّ بالإصبعين والتفتُّ حولي صائحًا:

- يلعن أبو الدنيا كلها..

ضحكت «آن» فضحكتُ معها لأول مرة منذ الصباح، قالت مكملة كلامها الذي قاطعناه كي نسب معًا العالم أجمع:

- أنا مستنياك تفوق وترجع «عيسى» اللي بياخد باله من تفاصيل اللي حواليه.. خد وقتك عشان دا حقك.. بس كلنا مستنيين الوقت اللي تسيب عينك شوية.. وترجعلنا تاني زي ما كنت.. وتصبر علينا كلنا لحد ما همَّ يفهموا الصح بتاعك ويسيبوك في حالك.. فما تلومش على أهلك.. همَّ برضه بيكتشفوا عنك بلاوي ولسَّه مستحملين وفي ضهرك..

أدركت أن كلامها يحمل كثيرًا من الصواب، أنا لا أعلم أي شيء عنها، منذ أن ذهبت إلى «سيرا» لم أسأل عنها مرة، لا أعرف هل تغيرَتْ مثلي أم ظلت كما هي، ماذا تفعل في حياتها.. لا أعرف أي شيء.. صمتُّ لحظات وأشعلت سيجارة.. قلت ما حاولت الهروب منه منذ أن جاءت:

- والصورة اللي هتطلعها كده بالقدر بتاعي ده.. هتعمل فيها إيه؟

قالت بثقة وهي ترفع إصبعها ثانية في الهواء:

- زي ما قلتلك.. خليك في عينك دلوقتي.. لحد ما تفوق وتقدر ترجع تاني.. وساعتها فكر في الناس التانية..

نظرتُ إلى إصبعها في حيرة متسائلًا، فقالت وهي تضحك:

- لا بس عاوزة عيال «أسماء» يشوفني في كل الصور وأنا باشتمه..

ضحكتُ للمرة الثانية ورفعت إصبعي أيضًا لمن يصوّرنا، مدت يدها إليّ وقالت بهدوء:

- اديهولي..

قلت وقد بدأت أستعيد جزءًا من السخرية:

- مش قادر على أباحة دلوقتي..

ضحكت وقالت:

- قصدي الكارت.. لازم تكمل أم الفيلم دا..

نظرت إليها لحظات في حيرة، انشغلت بكل ما يحدث ونسيت تمامًا الفيلم و«عيسى الصغير» واللعبة التي نلعبها معًا..

قلت بلا مبالاة احترفتُها:

- لا فُكّك.. مافيهاش فايدة..

لتقول ما اعتادت أن تقوله لي:

- هاتديني الكارت ولا أقولك شتيمة تهينك في رجولتك؟

رفعت يدي طالبًا السماح وأنا أضحك فابتسمت «آن» في انتصار، أخرجتُ البطاقة من يدي، مكتوب على الظرف كالعادة «الكنز الخامس»، لم أعد أرغب في أن أكمل تلك الرحلة، نظرت إلى البطاقة في تردد، لكن «آن» خطفتها من

يدي، فتحت الظرف وأمسكت هاتفها وبدأت تصوّر المكتوب..
وتقرؤه بصوت عالٍ..

* * *

- «عزيزي (عيسى)..
تسألني عن سر بكائك، سر ذلك الألم الذي لا ينتهي، سر خيباتك المتكررة في كل مَن تقابل! كيف تحوّل بريق عينيك إلى انطفاء دائم يستفز كل من اقترب منك؟
اهدأ..
سأخبرك الآن بكل شيء»..
ضحكت «آن» وقطعت قراءتها، ونظرت إليَّ قائلة:
- انت كنت فلحوس من زمان كدا؟
ابتسمتُ وأومأتُ برأسي أن نعم، لتكمل هي:
- «أنا وأنت نعيش حياة كاملة من اللاشيء..
تشاجرت مع أبي منذ قليل في منطق أن حياتي كلها عبارة عن نتائج: نتيجة الثانوية العامة، نتيجة سنوات الدراسة الجامعية، تقييمي في العمل وزيادات مرتبي.. هكذا يُقيِّم نجاحي كإنسان.. يرى أن الإنسان لا بُدَّ أن يكون سلسلة نجاحات متصلة ليستمتع بحياته..
وأنا وأنت نختلف عنه يا (عيسى)..
كل مَن حولنا يلعبون اللعبة لينتصروا، متعتهم كلها في الانتصار، فلا يشعرون بشيء إلا عند النهاية ومعرفة النتيجة.. مأساتهم في نظرنا أنهم ينتظرون النتيجة ليشعروا، سواء بالفرح أو الحزن.. فكَفوا عن الشعور..
لكن أنا وأنت طول عمرنا نعشق اللعبة نفسها.. ومن يعشق اللعبة لا يهتم إذا خرج منتصرًا أو مهزومًا.. تكفيه تلك المتعة الخالصة من التي دخل فيها بإرادته.. تلك الرحلة التي نعشق تفاصيلها..

وهذا يختلف تقييمنا عنهم تمامًا..

قد تخسر في النتيجة أمامهم فيشفقون عليك، لكننا لا نبالي.. وقد ينبهرون بانتصارك المبهر في نتيجة أخرى، ولا نعير نحن اهتمامًا بأي انتصار..

لذا، أنا وأنت نقيم كل شيء بمدى روعة لعبته.. ونقرر إذا كانت اللعبة تستحق المجهود أم لا.. فإذا استحقت المجهود ندخلها بحماس غريب؛ لذا تجدنا دائمًا في قصص تبدو مستحيلة لأننا نستمتع باللعبة.. ولا شيء آخر..

لهذا أعلم أنك تحب «إذمًا»، لعبتنا المشتركة التي لن يخسر فيها أحد..

هل تتذكَّر هذا الكلام؟ هل ما زلتَ تستمتع باللعبة يا (عيسى)، أم أصبحت مثلهم تهتم بالنتيجة؟

والأسوأ.. هل تركتهم يسيطرون عليك بسبب فشلك؟ هل أصبحت تريد أن تنجح بمعاييرهم؟

عُد واستمتع يا (عيسى)..

لا تهتم إلا باستمتاعك باللعبة.. حتى عندما يأتينا الموت..

نموت بأكثر الابتسامات سعادة في التاريخ.»..

ابتسمت «آن» ابتسامة حانية، قالت وهي تنظر إليَّ:

- حلوة اللعبة..

هززت كتفي بلا مبالاة، لتنظر هي إلى الصفحة المقابلة، قالت بصوت حماسي وهي ما زالت تصوِّر الكارت:

- «اللغز الرابع..

عمك (جاهين) قال لك يا (عيسى): (وأنا في الضلام من غير شعاع يهتكه.. أقف مكاني بخوف ولا أتركه؟).. وأنا هنا أحدثك عن أول شعاع لمس قلبي وقلبك.. جعلنا نعشق الحلم ولا نتأخر عنه.. شعاع أضاء لقلبي وقلبك دنيا لم نحلم بدخولها.. أول كل إحساس يا (عيسى) يترك أثر فارقا في حياتنا..

وفي نهاية اللغز الرابع والكنز الخامس أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك..

إذمَا يدرك.. يجدني.»..

ابتسمتُ في سخرية، قالت «آن» في عدم فهم:

- انت عارف الحل؟

أومأتُ برأسي أن نعم، حتى الآن كل الألغاز سهلة جدًا بالنسبة لي، قلت بهدوء:

- قصده على سينما طيبة.. أول مرة أخش فيها سينما كانت سينما طيبة..

قالت «آن» في حيرة:

- والمفروض نعمل إيه دلوقتي؟

قلتُ وأنا أحاول أن أتناسى كل ما حدث صباح اليوم:

- المفروض هنروح هناك مع بعض.. هنلاقي حاجة هناك «عيسى الصغير» سايبهالنا..

قالت بفضول:

- إيه هي؟

قلت بصدق وأنا أنزل من على شنطة عربتي وأفتح باب العربة لأدخلها:

- مش فاكر..

قالت وهي تركب العربة بجانبي في حيرة:

- مش منطقي إنك تبقى مش فاكر.. خصوصًا لو حاجة عامل فيها كل المجهود دا.. دانا فاكرة تفاصيل كتير قوي في السن دا.. أول قصة قصيرة أكتبها مثلًا فاكرة كنت قاعدة فين وكتبت إيه..

أدرت المفتاح ليصدر محرك العربة صوتًا عاليًا قليلًا، لعنة الله على هذا السؤال، كيف أخبرها أنني بسبب ذلك المرض اللعين أنسى أكثر بكثير من المعدل الطبيعي؟

قلت لها الحقيقة، لكن من دون السبب الحقيقي، حيلة تعلمتها من الحياة مع «أسماء» وتشكيكها في كل شيء:

- أنا فاكر إني عملت الموضوع دا زمان.. بس مش فاكر تفاصيله.. فاكر الحكاية ككل.. بس التفاصيل والألغاز وسايب إيه وفين مش فاكرها خالص..

أومأت برأسها في تفهم، صمتُ وبدأت أقود العربة، كانت «آن» تعبث في الهاتف قليلًا، ثم أغلقته وقالت لي مبتسمة:

- «سيرا» بدأت طريقها، هتقابلنا هناك..

ضغطتُ على مكابح العربة فجأة، حتى إن جسدها اندفع للأمام وكاد يرتطم بـ«التابلوه»، صرخت «آن» مفزوعة:

- يخرب بيتك..

قلت بتوتر وأنا أنظر إليها:

- أنا مش عارف أقابلها ازاي.. هاقولها إيه؟

قالت وهي تعدل شعرها القصير الذي تناثر من الحركة المفاجئة بوقار:

- ماتخافش.. كدا كدا لازم تعرف..

نظرت إليها بتوتر، ثم بدأت طريقي شاردًا..

* * *

قالت «أسماء» صارخة وشياطين الغضب تقفز من عينيها ترغب في قتلي:

- وِديني يا «عيسى» لأخليك لوحدك لحد ما تموت.. مش هاخلي حد طايق يبص في وشك.. قسمًا برب العزة إني هاحرق قلبك على كل حاجة بتحبها في حياتك.. هاجبرك غصب عن عينك إنك تبعد عن كل حاجة بتحبها..

نظرت إليها لا أدري ما الرد المناسب لكل تلك التهديدات، كنا منذ دقائق نحتضن بعضنا البعض، كيف انقلب كل شيء بهذا الشكل؟!

قالت وكل ما فيها يصرخ بالكراهية:

- طلَّقني يا «عيسى».. أنا مش مستحملة قرف أكتر من كدا..

نظرتُ إلى الصالة التي كسرت «أسماء» معظم ما فيها بسبب انفعالها وعصبيتها، تذكرت نصيحة خالها أن العيب فيَّ أنا، قال إنني لا بُدَّ أن أضربها حتى تعرف أن هناك حدًّا، حدًّا لا نتخطاه مهما وصلنا من الكراهية، تذكرت محاولة انتحارها أمام عيني، واستغلال «أسماء» ماضيها المؤلم، لم تحاول تجاوزه، بل تحججت به لتصبح أكثر توحشًا وقسوة، مبررة كل تصرفاتها بأنها مُعقدة، فلا بُدَّ أن أسامح..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٧ - «لا يغفر.. ينتقم دائمًا مهما كان خطؤك بسيطًا.. لا بُدَّ أن يذيقك من الألم نفسه بجرعات مضاعفة.. قد يصبر قليلًا ويظهر لك أنه قد غفر.. لكن فيما بعدُ سيرد لك الصاع صاعين.. بالنسبة له أنت تستحق.. بالنسبة له هو وصل إلى مرحلة من التحكُّم تجعله يشعر أنه يعيد تهذيبك؛ لذا فلا مجال لك للخطأ.. وإلا عوقبتَ أشد العقاب»..

تصارعت داخلي كل تلك الأفكار..

نظرتُ إليها وابتسمت قائلًا في هدوء:

- اهدي بس وهنحلّ كل حاجة..

واقتربت منها بحرص، أقنعت نفسي أنني مسجون بداخل هذه العلاقة، كلمة أبي التي يقولها دائمًا: إن عائلتنا زواجها زواج «مسيحيين» لا طلاق فيه.. اقتربتُ لأربت على قلبي قبل أن أربت عليها، ووضعت يدي على كتفها وقلت:

- إحنا مالناش غير بعض، إن شاء اللـه هنحلّ كل حاجة..

لتنزع يدي من على كتفها وتدفعني بكلتا يديها في صدري قائلة:

- شيل إيدك من عليا.. انت لو عندك نقطة دم كنت طلقت واحدة مش بتحترمك كدا..

ابتسمتُ، قلت لنفسي إن هذا هو الماضي يتحدث وليس هي، عندما ستهدأ ستعتذر عن كل هذا الكلام وتعود نسخةً من الفتاة التي أحببت

نورها يومًا.. الفتاة التي ما إن تزوجنا حتى قتلتْها «أسماء» كأنها تعاقبني..

عندما رأت «أسماء» ابتسامتي، قالت صارخة:

- والله ما هارحمك يا «عيسى» لحد ما تموت..

* * *

أمام سينما طيبة وقفنا، قالت «سيرا» وهي تشير إلى السينما بضحكة متفائلة:

- «عيسى» بيقولك إن المكان دا مافيهوش كنز حقيقي.. بس فيه كنز لازم انت تفتكره.. لو افتكرته هتبقى أخدت الكنز وهاديك الفيديو..

قلت بجدية وأنا لا أهتم بما تقول على الإطلاق:

- «سيرا».. عاوز أقولك حاجة حصلت..

وحكيت كل شيء..

دمعت عينا «سيرا» وهي تنظر إليَّ غير مصدقة.. بدا عليها الصدمة وعدم التصديق، عندما انتهيتُ وضعت يدها على رأسها وظلت تنظر حولها في قلق..

قلت بصوت خافت:

- هو انتِ فعلًا لسَّه متجوزة؟

نظرت إليَّ في عدم استيعاب، ثم قالت بلا مبالاة:

- لأ طبعًا.. إحنا بس مخبيين عشان خبر طلاقنا ما يغَلْوِشّ على فيلمه الجديد.. هو منتج والناس نصحوه بكدا.. بس إحنا مطلقين طلاق رسمي من شهرين.. ومنفصلين من سنتين..

قالت «آن» لها باهتمام، وهي تسند جانبها إلى العربة:

- قولي كل حاجة ماتكتميش.. إحنا هنا في دايرة أمان.. ماحدش هيزعل..

على الرغم من دمعة عينيها، نظرت إليَّ «سيرا» وقالت في محاولة للصمود:

- همّ عاوزين كام؟

عقدتُ حاجبيَّ في استنكار، قلتُ وأنا لا يروق لي اتجاه كلامها:

- كتير.. بعد الفيديوهات ماعرفش هيقول إيه..

مسحت دمعة كادت تفر من عينها وهي تقول بتماسك:

- خلاص.. هادفع أي حاجة والموضوع دا يخلص..

هممتُ بالكلام، لكن نظرة «آن» الصارمة أسكتتني، ربتت «آن» على كتف «سيرا» وقالت بحنان:

- أنا عارفة إنك متضايقة، بس مين قال إننا لو دفعنا الفلوس مش هيفضلوا يهددونا تاني كل شوية؟

قلتُ بانفعال مُشيحًا بيدي:

- بالظبط.. اللي يوصل للمستوى دا مافيش حاجة واحدة تضمن لينا كلمته..

نظرت إليَّ «سيرا» وقالت بنظرة حاسمة:

- الموضوع مابقاش موضوعك يا «عيسى».. لو انت عارف تحله كنت حليته من زمن قبل ما يحصل كل دا..

شعرت بالضيق من تلميحها بتقصيري، قلت بانفعال:

- «أسماء» مش عاوزة تحل، «أسماء» عاوزة تنتقم.. لو هي اللي سرقت الحسابات.. الحاجة الوحيدة اللي موقّفاها إنها تفضحني وتفضحك هي خالها.. عشان مفهّمها إنه هيعرف يجيب فلوس مننا.. أول ما الفلوس هتيجي.. هيقولك ماليش دعوة، «أسماء» اتضايقت شوية وراحت منزّلة الحاجة..

ثم أشرت بيدي في اتجاه الطريق كأني أشير إليهم:

- روحي ادفعي الفلوس، عشان يجولك بعد أسبوع يقولولك معلش عاوزين خمسين زيادة عشان «أسماء» عندها إمساك ومزاجها وحش.. وكل مرة هيطالبوا بالفلوس هيسموه «حقهم».. ويدوا مبرر لكل حاجة بيعملوها..

هم كده.. بيحاسبوا الدنيا على الشعرة وماحدش فيهم بيحاسب نفسه على غلطة واحدة بيعملها..

قالت «سيرا» منفعلة:

- وانت عاوزني أعمل إيه؟

قلت محاولًا أن أهدأ:

- ما تقلقيش.. أنا هاحاول أتصرف..

قلتها وأنا أحاول أن أطمئِنَ نفسي معها..

كل ما يضرب عقلي هو صوت صرخة «أسماء» المقيتة..

«هاحرق قلبك على كل حاجة بتحبها في حياتك»..

نظرتُ إلى «آن» و«سيرا».. بداخلي يقين أنهما ستبتعدان أيضًا بسبب ما تفعله «أسماء»..

أشعر أن «أسماء» استطاعت، بنجاح، أن تفرض سيطرتها عليَّ حتى ونحن مطلقان.. ما زال هوس التحكُّم في حياتي يشغلها دائمًا.. هل أنا زوج قذر؟ حتى لو كنت قذرًا.. حتى لو كنت أسوأ بشري في الحياة.. لماذا لا يبتعدون عن هذا المسخ الذي تزوجته ابنتهم ويعززون ما تبقى لها من كرامة؟

أغمضت عينيَّ..

نفس عميق..

زفير يحاول أن يطمئنني..

لكن بلا جدوى..

* * *



(١٢)

الأمر الخامس

كرباج سعادة وقلبي منه انجلد
رمح كأنه حصان ولفّ البلد
ورجعلي نص الليل وسألني: ليه
خجلان تقول إنك سعيد يا ولد؟
عجبي!

صلاح جاهين

لثلاثة أيام كاملة، لم أتحرك من فيلا «سيرا»، لم أرَ «سيرا» التي ظلت في شقتها، وشعرنا أنه من الأفضل أن أظل أنا أيضًا في شقة السطح، كنا نتحدث هاتفيًّا فقط..

ولثلاثة أيام كاملة، لم أعرف ما الذي يريد «عيسى الصغير» لي أن أتذكَّره، شعرت أنه أحمق لأنه ترك شيئًا لن يتذكره سوانا، وهو يعلم مسبقًا أن هناك احتمالية كبيرة أننا لن نتذكر..

غبي..

لم أعُد إلى البيت بالطبع، لم أستطِع أن أنفِّذ الأمر المباشر لوالدي، اتسع الممر بين شقتينا ليصبح حفرة عميقة في علاقتنا، تفصل بين عالمين مختلفين تمامًا.. شعرت أننا أصبحنا على ضفتين من الدنيا، يشق بيننا نهر عميق من المبادئ والمفاهيم والقيم المختلفة، نهر يفصل عوالمنا ويمتد إلى ما لا نهاية، لا يترك لنا أي فرصة للتلاقي إلا بذهاب أحدنا إلى الآخر من خلاله.. فيتحوَّل إلى شخص آخر عند الوصول إلى الضفة الأخرى..

وهذا لن يحدث أبدًا..

أراهم يلوِّحون لي من الضفة الأخرى كي آتي ناحيتهم، ناحية أرض قوانينهم وتقاليدهم وأمانهم، قلقين، وأبدو لهم من بعيد كأنني أغرق.. وأنا لا أستطيع إلا أن أنظر إليهم من على ضفة عالمي، مبتسمًا وألوِّح مودِّعًا..

كبرتُ يا أبي حتى أصبحتُ أسبح في عالمي الخاص، أرفض كل ما تؤمن به، وأخوض تجربتي في الحياة وحدي تمامًا، بعقلي المتآكل الذي سيخطئ كثيرًا.. وربما يموت من كثرة مصائبه..

لكنه سيموت راضيًا أنه خاض حياة يريدها هو.. لا ما يريدها الجميع منه..

ذهبتُ لأفتح الباب بعدما سمعت صوت طرقاته، وجدت «آن» و«ياسين»، فعقدت حاجبيَّ في حيرة، كانت «آن» تمسك «تي شيرت» تفرده أمام عينيَّ، لأبتسم في سخرية..

كان أسود اللون، عليه رسمة ضخمة ليدين مضمومتين ملتصقتين ببعضهما، ابتسمت في حنين لذكائها، كنا نعشق أنا وهي مسلسلًا كوميديًا اسمه «Friends»؛ كانوا، بدلًا من أن يشيروا إلى بعضهم البعض بحركة الإصبع، يضمون قبضتهم ويخبطون بها مرتين، ليصبح معنى تلك الحركة لكل عشاق المسلسل واضحًا وصريحًا، قالت «آن» بابتسامة:

- مش هتلبس غيره طول ما انت في الشارع، عشان أي حد بيصورك توصلهم الرسالة واضحة وصريحة..

ضحكت من قلبي، و«ياسين» يرفع كيسًا ضخمًا في يديه قائلًا:

- جبناهولك بكل الألوان.. وجبنا لينا برضه..

دخلا إلى الشقة، لم أستوعب سبب الزيارة المفاجئة، إلا عندما منع انغلاقَ باب الشقة يدٌ، دفعته ليفتح ثانية، نظرت لأجد ما جعل ابتسامتي تتسع.. وجدت «هيثم» و«شمس» و«درية» يدخلون تباعًا، «هيثم» يحمل حقيبتي سفر ويبدو عليه الإرهاق، وقال فور دخوله ناظرًا إلى «ياسين»:

- انت أقنعتني ازاي إني أشيل الطوبتين دول، عشان انت شايل الكيس دا؟!

ضربته «درية» على كتفه وهي تدخل قائلة:

- انت هتمثّل؟ دول خفاف جدًّا!

وذهبت إليَّ لتحتضنني مرحِّبة، أحطتها بذراعي لأجدها تهمس:

- وحشتنا جدًّا..

نظرتُ إليهم في عدم فهم، وأنا أحييهم واحدًا تلو الآخر، جلسوا جميعًا في الصالة الكبيرة، وبدأت «شمس» بالكلام بضحكة [illegible] الدنيا حولي:

- «آن» قالت لنا كل حاجة.. واحنا قررنا إننا نبقى في ضهرك..

قلت متسائلًا وأنا أنظر إليهم عاقدًا حاجبيْ:

- فكرة مين دي؟

رفعت «شمس» يدها مبتسمة في فخر، واقتربت مني فاحتضنتها.. كعادتها.. أقلهم كلامًا لكن أفعالها تقول كثيرًا..

وقفت أنظر إليهم غير قادر على الحديث، قال «ياسين» بابتسامة واسعة:

- بدل ما كنا هنسافر الساحل ولا دهب، هنقعد أنا و«هيثم» هنا معاك.. والبنات هيقعدوا تحت مع «سيرا»..

قلت بتساؤل محبط على الرغم من دهشتي ممَّا يقولونه:

- ودا هيفرق في إيه؟

نظرت إليهم «آن» نظرةَ «قلت لكم إنه سيقول هذا!»، فابتسمت «درية» وقالت بابتسامة:

- يفرق إننا مع بعض أحسن من انت و«سيرا» لوحدك.. لو ولاد الهرمة نفذوا تهديدهم والدنيا اتفضحت هنبقى كلنا مع بعض.. لو حد منهم بلغ إنكم عايشين مع بعض بقى والشغل دا.. برضه يبقى كلنا مع بعض فمافيش أي تهمة.. عيلة قاعدة مع بعضها..

نظرتُ إليها في دهشة، لتقول «درية» لاويةً فمها:

- انت سقَطت إني أنا و«شمس» ولاد خالة «آن»، صح؟

بالفعل لم أكُن أتذكَّر تلك المعلومة، موضوع ذاكرتي أصبح خطرًا حقيقيًا لا بُدَّ أن أعالجه، تجاهلت العرض كثيرًا لكنه يفرض نفسه عليَّ الآن، قالت «آن» وهي تقترب مني وتضع يدها على كتفي:

- كلنا هنبقى هنا، أي حد بقى عاوز يصور يصور.. مش هنمشي غير لما تخلص فيلمك..

قالت «شمس» شاردة وهي تنظر إلى النافذة الواسعة:

- ماحدش فيكم فكَّر مين اللي عارف انكم كنتم هنا، وصوركم منين؟

صمتنا جميعًا ونظرنا إليها، بدت الفكرة بديهية وتعجبتُ أنني وسط كل ما يحدث لي لم أفكر فيها، بدا لي من وهم سيطرة «أسماء» في عقلي أنه شيء طبيعي أن تراقبني طول الوقت، بل كنت أتخيل في عقلي الباطن أنها هي التي تصوِّرني دائمًا، لكن ما لم أفكر فيه: من الذي أرسلته ليصورنا؟ وكيف تراقبني من دون أن أدري؟

اللعنة على الوهم الذي زرعته بداخلي..

التفتت إلينا «شمس» لتجد صمتنا ونظراتنا الموجَّهة إليها، خجلت من تركيزنا جميعًا معها، فابتسمت وقالت رافعة إصبعها:

- سيبولي أنا الحوار دا..

سمعنا جميعًا نحنحة «سيرا»، التفتنا جميعًا إليها، لأجدها تقف مبتسمة على الباب المفتوح، تنظر إليَّ نظرة افتقدتها، اقتربت مني بخطوات بطيئة، وهي تقول ناظرة إلى «آن»:

- كان نفسي ربنا يكرمني بصحاب زي صحابك..

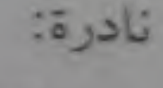
في حركة لا إرادية فتحت ذراعيَّ، لتقترب هي وتحتضنني كعادتنا، قال «هيثم» ضاحكًا:

- يلَّا يا عيال عشان معانا ناس مابتفهمش تقريبًا..

ضحكوا جميعًا ونهضوا مسرعين، ليصبح عناقًا جماعيًّا، و«ياسين» يقول:

- يلَّا خليهم يصوَّروا بقى..

أفلتت مني ضحكة على الرغم من حزني الدائم، وقلت في سخرية حقيقية



نادرة:

- كدا بقى group sex يا جدعان..

قالت «آن» ضاحكة:

- يلَّا أهو أحسن من مافيش..

ضحكنا جميعًا وتفرقنا، قالت «سيرا» وهي تعطيني الفلاشة:

- «عيسى» قالي إنك لو ما افتكرتش أخليك تشوف الفيديو.. عشان هو عارف إنها صعبة..

نظرتُ إليها، أشعر أنني دائمًا أريد أن أعتذر لها عن كل ما يحدث لها بسببي..

أخذت منها الفلاشة، ووضعتها في التلفاز، وقبل أن أدير التلفاز، قالت «آن» محذرة:

- ثانية واحدة..

وأعطتني الـ«تي شيرت» قائلة لهم في صرامة:

- يلَّا كله يلبس التي شيرت دا.. مش هنمشي من غيره بعد كدا..

ابتسمت، ذهبت الفتيات لارتدائه، في حين بدَّلنا ملابسنا نحن الرجال في الصالة، لنجتمع ثانيةً، ووضعت «سيرا» الكاميرا الجديدة التي أخذتها من «غريب»، لتصبح الصور أكثر نقاءً بكثير، وليحتوي الكادر جميع أصدقائي خلفي يرتدون مثلي تمامًا..

كادر يجعلني أدرك أنني لم أعُد وحيدًا على ضفتي منذ الآن..

هناك من هم مثلي يرفعون إصبعهم الوسطى للعالم كله..

* * *

صمت الجميع والفيديو يبدأ بنغمات رقيقة.. ما إن سمعتها حتى خفق قلبي في حنين..

كان هذا هو الكنز الذي يريدني «عيسى» العثور عليه..

تلك الأغنية..

أغنية «brother under the sun» للمطرب الشهير وقتها «bryan adams»..

بدأ الفيديو بتلك الموسيقى العذبة الخافتة، وتحرك قلبي معها راقصًا، كان فيديو قديمًا قمت بالمونتاج الخاص به عندما كنت «عيسى الصغير»،

كان فيديو مجمعًا لصور كثيرة كالتي يعرضونها في كل حفلات زفاف أيامنا هذه.. كان فيه مجموعة من الصور تم أخذها وقتها، صور لغرفتي القديمة، للكاميرا القديمة، جزء صغير من الأفلام القصيرة التي كنت أخرجها مع عم «غريب»، صور وفيديوهات لي مع أصدقائي القدامى الذين فقدنا اتصالنا ببعضنا البعض تمامًا، صور لحياتي وقتها، صور في المدرسة مع «سيرا» وبقية أصدقائي، «محمود» و«جمال»، مع معلمتي «سلوى» التي كنت أغيب عن كل الحصص في غرفة الرسم الخاصة بها، علّمتني بروحها الشابة وإخلاصها معنى كلمة فن حقيقي، حتى الآن في غرفة الرسم ما زالت تلك اللوحة التي رسمناها بالزجاج معلقة في منتصف الحائط..

كان هذا الفيديو يوثّق كل تلك الفترة بتفاصيلها.. كأنه تم تنفيذه فقط ليذكّرني بكل شيء..

شعرت بعواطف شتّى تجتاحني، أسمع همساتهم وضحكاتهم حولي عندما يظهر فيديو أول صورة لي ولـ«سيرا» ونحن في براءة ذلك العمر، نرقص ونمرح ناسيَين الدنيا..

انتهى الفيديو تاركًا داخل نفوسنا إحساسًا بالحنين والسكينة، ويظهر «عيسى الصغير» جالسًا على مقعده، ناظرًا إلى روحي كعادته:

- «عيسى».. لسّه شايفين أنا وانت فيلم دلوقتي في سينما «طيبة»، هيفضل معلّم معانا طول عمرنا.. والأغنية دي دوّرنا عليها كتير عشان ما كانتش موجودة في الفيلم غير كموسيقى تصويرية بس.. بس إحنا لما بنسمع حاجة بتلمسنا بنفضل وراها لحد مانجيبها..

تذكرت الأغنية، تذكرت الموقف في السينما عندما سمعتها لأول مرة وظللت أبحث عن تلك الأغنية أسبوعًا كاملًا، لكني لم أتذكر الفيلم على الإطلاق، أكمل «عيسى الصغير» ليريح عقلي الحائر:

- فاكر أول فيلم شُفناه في السينما؟

أجبتُ وأنا أعلم أن الكاميرا تصوّر ردودي:

- فيلم «anstasia»..

ليومئ «عيسى الصغير» برأسه موافقًا، مستمرًا في إيهام مَن يشاهدنا أننا نتحدث معًا:

- بالظبط.. سنة ١٩٩٨، «رنا» أختي وأختك خرّجتنا في فسحة حلوة قوي، وشفنا «أنستاسيا».. فيلم كرتون بس حلو طحن..

وأكمل وهو ينظر نظرة عاشقة، مسحورة، افتقد كل شيء فيها:

- اتسحرنا.. الفيلم عادي.. بس قصة الفيلم وأغانيه وكمية المشاعر المختلفة غيَّرتنا.. عرفنا من جوانا إن فيه حاجة حركتنا.. دخلت جوانا وغيرت كل تفاصيلنا.. اتسحبنا جوَّه العالم دا وحبينا كل تفصيلة في إحساسه..

ونظر إلي مشيرًا بإصبعه بشغف:

- وحلفنا إننا هنعمل حاجة تأثر في الناس قوي كدا.. هنعمل حالة اللي يشوفها لازم يتغير.. لازم جواه حاجة تتحرك..

وتحرك بكرسيه يمينًا ويسارًا وتحدث بحماس:

- ساعتها عرفنا إني هابقى مخرج..

ابتسمتُ وأنا أراه يتحدَّث بهذا الحماس، حتى إنه نسي صيغة الجمع وبدأ يتحدث عنه هو، أكمل كلامه الذي يبدو أنه خرج من أي ترتيب كان يخطط له قبل أن يسجله:

- قعدت كتير أدوَّر على كلمة تناسب اللي أنا حاسه، أو اللي أنا عاوز أعمله، عشان أسمِّي بيه مشروع عمري..

ونظر إليَّ بابتسامة وتوقف عن الحركة:

- لحد ما شفت «spirit».. وعرفت كل حاجة أنا عاوز أعملها.. حتى عرفت اسم فيلمنا اللي بيتعمل دلوقتي..

كيف نسيت؟

قال «عيسى الصغير» مبتسمًا:

ـ لو بقيت «عيسى» ابن الكئيبة يبقى نسيت.. وأنا دوري إني أفكَّرك..
عشان كدا الأمر اللي لازم تنفذه هيبقى لعبة صغيرة قوي، هتتفرج على فيلم «spirit» تاني، اللعبة إنك هتسمِّي كل الشخصيات في الفيلم بأسماء شخصيات في حياتك انت.. وفي النهاية بعد ما تخلص، هتشوف انت في حياتك دلوقتي في أنهي مرحلة من الفيلم.. وتشوف عاوز تعمل إيه بعدها..

وأشار بسبابته إليَّ قائلًا:

ـ أنا لأول مرة هاثق فيك.. لأنك بعد ما تشوف الفيلم لو قررت ما تكملش هاحترم قرارك.. بس لو قررت تكمل.. اعرف إن اللي جاي صعب قوي.. هنبدأ تنفيذ الفيلم فعلًا..

ولوَّح بيده مودعًا بابتسامة مشرقة قائلًا:

ـ سلام يا «عيسى»..

* * *

انتهى الفيديو ليصفِّقوا جميعًا، عندما نظرت إليهم في استنكار، قال «ياسين» مبتسمًا:

ـ لازم نجاملك شوية..

وقالت «درية» ضاحكة:

ـ وبعدين كلنا طالعين في الكاميرا دلوقتي.. عشان نبان بنشجع بقى وكدا..

نهضت «آن» و«سيرا» إلى المطبخ، قالتا شيئًا ما عن أنهما ستبدآن في عمل الفشار بما أننا سنشاهد الفيلم معًا، ابتسمتُ لذلك الزحام الموجود حولي.. «هيثم» يمازح «ياسين» و«درية» فأضحك معهم.. «آن» و«سيرا» تضحكان بصوت عالٍ في المطبخ.. تلك الحركة والأحاديث الجانبية جعلتني أشعر بالدفء في قلبي..

أحيانًا نحتاج إلى بعض من الضجيج كي نُخرج...

لم يمر وقت طويل حتى فتحنا الفيلم لنشاهده معًا..

كان فيلم رسوم متحركة يُدعى «spirit: stallion of the cimarron»..

فيلم لم يشتهر في الوطن العربي، لا أدري لماذا! ربما لأن بطله حصان غير متكلم.. ونسبة الحوار في الفيلم قليلة بالنسبة للمشاهد الحركية.. فيلم لا يحبه الأطفال ولا الناضجون..

لكني عشقته.. وأثر فيَّ بطريقة لا يتخيلها أحد..

القصة بسيطة، حصان بري وُلد في البرية وسط قطيعه، لكنه كان أقواهم فأصبح زعيمهم المتولي حمايتهم، يحب أن يركض بحريَّة من دون قيود، هناك ذلك المشهد العبقري الذي يسابق فيه نسرًا محلقًا في السماء، في مرة من شروده في الركض يقترب بشدة من معسكر جنود محتلين، يختطفه الجنود بعد مطاردة عنيفة لمعرفتهم نوع هذا الحصان وأصالته، في نية منهم أن يروِّضوه ويخوضوا حروبهم وهم يمتطونه.. من اللحظات العبقرية وقت المطاردة.. كانت الخيول المأسورة من قِبَل الجنود تبطئ من نفسها قليلًا حتى لا يستطيعوا الإمساك ببطلنا.. هم مغلوبون على أمرهم ولا بُدَّ أن يطيعوا الأوامر، لكنهم لا يستطيعون أن يشاهدوا أسر حصان جديد حر طليق..

تتم عملية الصيد بنجاح، يأخذون الحصان إلى معسكرهم ويقابل بطلنا المقدم الشرير، الذي ما إن يرى الحصان حتى يدرك عناده وحريته؛ لذا يطلب من الجنود أن يمتطوه، ليحاول الجميع ولكنهم يفشلون.. بروح الحصان وحريته يرفض تمامًا أن يروِّضه أحد.. يأبى بإصرار غير طبيعي.. ليأمر الشرير بمنع الأكل والشرب لمدة ثلاثة أيام عنه..

لحظتها ابتسمت، كنت داخلي ألعب لعبة «عيسى الصغير» التي طلب مني أن ألعبها وأنا أشاهد، القطيع هم أهلي، من يخافون عليَّ من الركض دائمًا ويحذرونني ألَّا أبتعد، المحتلون كانوا يمثلون لي الدنيا بكل مَن مر فيها مِن بشر يحاولون ترويضي والسيطرة عليَّ..

أتى مشهد المواجهة بين الشرير والحصان، بعد أن أهلك قوى الحصان عطشًا وجوعًا حاول امتطاءه في قمة ضعفه، تحدث لحظة انتصار بسيطة للشرير، ويستطيع أن يجعل الحصان يخضع، سار ممتطيًا إياه في حلبة كبيرة، وأعطى خطبة عصماء عن أن المستحيل يمكن تنفيذه، فقط بالذكاء الكافي، الحصان الذي كان صعبًا على الجميع ترويضه، روّضه هو في ثوانٍ..

لحظتها ابتسمتُ متألمًا.. شعرتُ أنني أنا الحصان، وأن المحتل الشرير في الفيلم هو «أسماء»، التي استطاعت أن تروّضني فترة لا بأس بها، وأنا محني الرأس تحتها متهالك القوى، أضع لجامًا على فمي وأسير كما تريدني أن أسير..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٨ - «يكون الشريك بالصبر الكافي ليغيِّر ما بداخلك لفترة تصل إلى أعوام.. يزرع أفكاره وانتقاداته ببطء وتدريج كأعظم عملية غسيل مخ في التاريخ.. يضع تفصيلة بسيطة تؤرِّقه وتؤلمه في كل ما تحبه ويخصك أنت وحدك.. يعلِّق عليها كثيرًا، ثم يبدأ في الشجار.. وهكذا بالتدريج، ولفترة طويلة، حتى تصل إلى نتيجة أنك تدير الأمر بطريقة خاطئة.. ويتطوَّر الأمر إلى المساومة.. لا بُدَّ أن تترك ما يخصك هذا تمامًا.. ويعرض، بخبثٍ، بديلًا يناسبك أنت وهو فقط.. فلا تشعر أنت أنك تتغير.. بل تشعر أنك تسير في الطريق الصحيح لإرضائه وإرضاء نفسك.. لا تدرك أنك تبتعد ببطء عن تفاصيلك أنت.. وتتوه أكثر في بحرٍ من تفاصيله هو»..

يأسر الجنود شابًّا من الهنود الحمر، يعذبون الشاب أيضًا ويمنعون عنه الطعام، يحدث ألفة بين الشاب والحصان لتشابه قيودهما؛ لذا، في قمة انتصار المحتل بترويض الحصان، ينتفض الحصان انتفاضة أخيرة مستهلكًا آخر قواه، يحارب الحصان حربًا أخيرة، يوقع الجندي الأجنبي، ويركض هاربًا آخذًا الشاب معه، ويثير جلبة في المعسكر كله، ويحرر معه في طريق هروبه بعضًا من الأحصنة المأسورة..

ليهربوا معًا..

وبعد الهروب، والوصول إلى بر الأمان وسط قبيلة الهنود الحمر التي ينتمي إليها الشاب، يكتشف الحصان أن الشاب أيضًا يريد امتطاءه وترويضه، لكن بأسلوب إنساني بحت، لا يجبره على شيء، يحاول أن يحدثه ويتواصل معه..

ليقابل الحصان حبيبته في المكان نفسه..

وبقوانين لعبة «عيسى»، تعجبتُ أنني رأيت «سيرا» و«آن» في حياتي تتمثلان في الشاب الصديق لا الحبيبة..

لم أعُد أشعر أنني أستطيع أن أحب ثانية بعد أن رأيت كل ما يحدث في الجهة الأخرى من الحب، السرج المنيع المسمى الزواج..

وشاهدت الفيلم، انعزلت عنهم تمامًا، توحَّدتُ تمامًا مع الحصان، عندما ماتت حبيبته، عندما تم أسره وتعذيبه، عندما استسلم لكل شيء لحظات قصيرة، عندما ظل يحارب من دون أمل.. شعرت أخيرًا بما كان «عيسى» يريدني أن أشعر به، تلك الروح العنيدة التي تأبى الاستسلام، ذلك الإصرار غير الطبيعي في الاستمرارية، من دون كلل وملل.. تلك الروح التي لا تنكسر.. تضعف أحيانًا وتترك نفسها للحزن، لكن لا تنكسر أبدًا.. حتى نهاية الفيلم الذي انتهى بمشاعر داخلي لن أنساها أبدًا..

شعرت بطاقةٍ من العناد تحتل كياني كله..

بل شعرت للحظة أنني لا أعرفني..

مَن هذا السلبي الذي تحولت إليه؟ لا يفعل شيئًا إلا أن يكون رد فعل لحقارة كل مَن حوله.. متى تحولت إلى ذلك الكائن الرخو الذي يسير في هامش الحياة؟!

من أنا؟

كيف وصلت إلى هنا؟

وسط ظلام الغرفة، تركت دمعة تنساب على وجنتي..

دمعة أخيرة، أودّع بها كل تلك السلبية، والاستسلام، واللامبالاة..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير يُخرج كل لحظة ضعف شعرت بها يومًا..

انتهى الفيلم، نظروا إليَّ جميعًا نظرة حائرة، ينتظرون قراري مثلما قال «عيسى»، ابتسمتُ وأنا أنهض وأقف في منتصف الصالة، وأقول بصوت حنون، مبتسمًا ابتسامة واسعة:

- استعدوا للي جاي عشان هيبقى صعب ومرهق جدًّا..

ونظرتُ إلى «سيرا» مبتسمًا، وقلت ناظرًا إلى عينيها مباشرة:

- أنا هاكمّل للآخر.. وهاعمل أحلى فيلم اتعمل في تاريخ السينما المصرية..

ابتسموا جميعًا في ارتياح، ربما بالغت في جملة «في تاريخ السينما المصرية»، لكن من سيحاسبني على حلم حتى لو كان بعيدًا؟

تنفست في ارتياح وأنا أنظر إليهم، أشعر بروح جديدة تحتل كياني كله..

وداعًا لكل ذلك البؤس، والملل، والبطء..

سأبدأ صفحة جديدة تمامًا..

الخطوة السادسة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا تسخر من البدايات الجديدة وترفضها، زرع الشريك فيك يقينًا أنك مهما فعلت لتكون أفضل سيظل يحاسبك على أخطاء الماضي.. في الحقيقة، لا أحد يملك السلطة لمحاسبتك على أخطائك إلا اللـه.. تيقَّن أن البدايات الحقيقية موجودة.. آمِن بها وانسَ كل آلامك.. وضع في عقلك شيئًا واحدًا فقط: «أنك تستحق أن تبدأ في خلق كل ما هو جديد»..

بروح أقوى من روح ذلك الحصان المثابر الذي غيَّرني وأنا مراهق، وعاد بعد ثمانية عشر عامًا ليحركني ثانية..

بروحه التي غلبت الزمن ذاته..

نظرتُ إلى «سيرا» التي نظرت إليَّ بحماس، ومددت يدي فاردًا إياها، وأنا أتذكَّر الآن:

-عاوز فيديوهات الحوارات كلها.. أعتقد مسموحلك تديهالي دلوقتي..
لتضحك ضحكة واسعة وتنظر إليّ بسعادة؛ لأنني أخيرًا تذكرت شيئًا
واحدًا في كل ما أفعل..

* * *



رحلة التنفيذ



(١٣)

وسادس الكنوز

فارس وحيد جوّه الدروع الحديد
رفرف عليه عصفور وقال له نشيد
منين منين.. ولفين لفين يا جدع
قال من بعيد.. ولسّه رايح بعيد
عجبي!

صلاح جاهين

- «عزيزي (عيسى) ذا الستة وثلاثين عامًا..
إذا قررتَ أن تُكمل الطريق يا صديقي وتبدأ معي في تنفيذ الفيلم..
وذلك الحصان في الفيلم الذي توحدنا معه ذكرك ببعض الأشياء المهمة..
فتلك هي البداية الحقيقية..
هل أخذت كل شيء من (سيرا)؟
لو لاحظت.. هذه المرة، اللغز لن يوجد في بطاقة معايدة، بل من الآن سيصبح خطابًا طويلًا أتحدث فيه معك عن أشياء مهمة..
أأخبرك بسرٍّ لن يظهر أبدًا في تسجيل الفيديوهات؟
أنا تعيس يا (عيسى)..
ذلك المرض اللعين يطاردني.. يطارد أفكاري ويمنعني من التفكير حتى في المستقبل.. مأساته أنه مرض لن تظهر أعراضه إلا وأنا في عمرك أنت؛ لذا فالمعادلة أكثر صعوبة.. لو كنت قد أصبت بمرض الآن لكنت قد عرفت كيف أتعامل نفسيًا وأعالجه أو أتعايش معه، لكن فكرة أن هناك من حدد لك مستقبلًا غير مضيء يجعل كل أفكارك وطموحاتك ميتة.. شيء قاتل يا (عيسى)..
لكني أدركت أننا نمتلك شيئًا خاصًا للغاية.. سيجعلنا نحاول مهما ماتت داخلنا الحياة..
أنا وأنت نمتلك عينًا لا يمتلكها سوانا يا (عيسى)..
عينًا تلاحظ أدق التفاصيل..
عينًا تراهم على حقيقتهم»..

* * *

«مشهد من الفيلم الوثائقي (رحلة الـ١٨)»..

وقفتُ في صالة شقة أختي، متعبًا بعد يوم طويل، أمسك الكاميرا الحديثة، خلفي «آن»، بجانبها «سيرا» تصوّرنا، ونظرت إلى أختي الكبرى «رنا» وهي تنتظر أن ترى الفيديو الخاص بها..

حوار بينها وبين نفسها القديمة منذ ثمانية عشر عامًا..

ليبدأ الفيديو..

لمعت دمعة خفيفة في عين «رنا»، أختي الأكبر مني بعامين، وهي ترى «رنا» الصغيرة تنظر إليها نظرة ملولًا، تبتسم في إحراج، نظرت إليّ «رنا» وأنا خلف الكاميرا أصوِّرها بعينيها الدامعتين، فأشرت إليها أن تستمر من دون أن تبالي بالكاميرا، قالت «رنا الصغيرة» في غرفتها القديمة بشقتنا وهي تنظر إلى الكاميرا:

- ازيك يا «رنا»؟

ارتفع حاجبا «رنا» في شوق، قالت ضاحكة في مزيج من الحنان والفرحة:

- كنت صغيرة قوي يا «عيسى»..

ابتسمتُ ولم أرد، أنظر إلى الكاميرا على صورة العرض الصغيرة التي امتلأت بوجهها، بكل تعابيره الرائعة، أكملت «رنا» الصغيرة وهي تنظر إلى «عيسى الصغير» خلف كاميرته القديمة:

- طبعًا إحنا مش موافقين على الهبل دا.. بس أخوك الصغير مقرف ومش بيبطل زن..

وقالت بسخرية:

- وكمان هو عيّان دلوقتي فكلنا واخدينه على قد عقله شوية

ضحكت «رنا» وضحكتُ أنا معها في هدوء، نظرت إليّ وقالت ضاحكة:

- عشان تعرف إنك قارفنا من زمان..

ابتسمت وأنا أرمقها بحنان، تأملت «رنا الصغيرة» السقف لحظات، ثم قالت:

- المفروض إني هاسألك كام سؤال.. أول سؤال فيهم...

وأكملت الصغيرة بأمل حائر:

- انت لسّه بتغني، صح؟

لتختفي ابتسامة «رنا» لحظات سجلتها عيناي قبل أن تسجلها الكاميرا الحديثة..

* * *

- «عيننا يا (عيسى) تعرف ما بداخلهم، هناك ماكينات تكشف عن المعادن، هناك حيوانات تشعر بقدوم الكوارث، أنا وأنت نرى ما بداخلهم.. نفهمه ببساطة ونترجمه ونراه شيئًا ملموسًا..

نرى مشاعرهم تتجسَّد فوقهم بوضوح، نرى ألوان مشاعرهم، نشعر به داخلنا فنفهمه على الفور..

ونرى الجماد أيضًا والموجودات بطريقتنا الخاصة؛ لذا فإن لغز هذا الخطاب يعتمد على مكانٍ رأيناه بعيننا ولم يرَه سوانا بتلك العين، مكانٍ وصفنا فيه عمنا (صلاح جاهين) عندما قال:

(منين منين.. ولفين لفين يا جدع.. قال من بعيد.. ولسَّه رايح بعيد)..

هناك في ذلك المكان ذكريات.. في تلك الذكريات ستجد نفسك.. وتجد الكنز يا صديقي..

وفي نهاية اللغز الخامس والكنز السادس أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذْمَا يتعافَ.. يجدني.».

ابتسمتُ وأنا أنهي الخطاب وأنظر إليهم، كنا في صباح اليوم التالي وأعطتني «سيرا» الخطاب الجديد، قلت وأنا أشعر بطاقة داخلي لا أدري مصدرها:

- قصده على شقتنا في مكرم عبيد.. شقة كنا مأجّرينها وقعدنا فيها ٨ سنين..

عقد «ياسين» حاجبيه وسأل سؤالًا منطقيًا:
- وانت ازاي سايب لنفسك حاجة في شقة كانت إيجار؟
هززت كتفي بلا مبالاة، وقلت بإيمان لا أعرف مصدره:
- ما اعرفش.. بس اللي أعرفه إن الواد دا بجنانه غيّر كل حاجة في دماغي.. فهافضل ماشي وراه..
هزَّ «ياسين» رأسه موافقًا، كان «هيثم» قد ذهب إلى عمله مع «درية»، ليتبقَّى في الشقة «شمس» و«آن» و«سيرا» اللاتي صعدن بالإفطار والخطاب، قالت «آن» بحماس وهي تدفعني في كتفي:
- طب يلَّا عشان مافيش وقت.. من أكتوبر لمكرم عبيد مأساة كبيرة..
نهضت من مقعدي، نظرت إلى «سيرا» قائلًا:
- هاتي الكاميرا معاكِ، عشان هنبدأ نصور النهارده..
قالت «سيرا» بحماس:
- هتبدأ بمين؟
لأبتسم من دون أن أجيب، تاركًا إياهم في فضولهم..

* * *

«مشهد من فيلم (رحلة الـ١٨)»
ارتجف جفن «رنا» بعد سؤال «رنا الصغيرة»، سادت فترة من الصمت، ردت «رنا» السؤال بشرود كأنها تتذكر:
- بقالي سنين مش باغنِّي..
سمعنا صوت «عيسى الصغير» يقول لـ«رنا الصغيرة» في الفيديو:
- اسأليها ليه بطلتي تغني..
لتنظر «رنا الصغيرة» خلف كادر الكاميرا، وتقول بحنق:
- مش هاقول كدا أنا.. أنا متأكدة أني هافضل باغنِّي عادي يعني.. حتى

لو مش مغنية محترفة بس مستحيل أبطل غنا..
نظرت إليّ «رنا» الكبيرة نظرة ذاهلة، ونحن نسمع رد «عيسى» الملول:
- اسأليها بطلتي تغني ليه، لو كمان ١٨ سنة كنتِ بتغني هاشيل الحتة دي في المونتاج..
لتزفر «رنا الصغيرة» في ملل وتقول ناظرة إلى الكاميرا بعناد:
- «عيسى» قال لي أسألِك بطلتي تغني ليه؟
نظرت إليّ «رنا» نظرة متشككة، عيناها تسألانني: «كيف عرفت؟»، لكني أجبتها بابتسامة مطمئنة، وأنا أشير إلى الشاشة كي تجيب عن السؤال، نظرت إلى الشاشة وقالت بارتباك:
- عادي والله.. بعد ما اتجوزت وخلفت ولد زي القمر وبنت أجمل حاجة في الدنيا.. اتشغلت.. مابقتش باغنّي كتير..
ثم استطردت في حنان وهي تكمل كأنها تحدث «رنا» الصغيرة بالفعل:
- «أحمد» دلوقتي عنده ١٣ سنة.. و«جنى» ١٠ سنين.. انتِ قدامك ٥ سنين وتتجوزي وتعرفي اللي أنا فيه..
قالت «رنا الصغيرة» السؤال التالي:
- لسَّه بتعزفي بيانو؟
صمتت «رنا الكبيرة» لحظات، ثم قالت باقتضاب:
- لأ..
لتسأل الصغيرة بابتسامة واسعة:
- طبعًا بقيتي مذيعة زي ما بنحلم؟
بدأت تلك الحالة من الشجن تنتهي، لم ترد أختي هذه المرة وبدأت تهز قدمها في توتر، ليصعد صوت «عيسى الصغير» يقول للمرة الثانية:
- حاولِي تظهري إنك زعلانة شوية، وقوليلها ليه مابقتيش مذيعة؟

لتنظر إليَّ «رنا الكبيرة» نظرة مستنكرة، عقدت حاجبيها قائلة بعصبية خفيفة:

- انت كنت عارف ازاي؟

هززت كتفي في نظرة هادئة، أحاول أن أمتص عصبيتها المكتومة، لتسأل «رنا الصغيرة» سؤالها القاتل:

- بقيتي فين دلوقتي طيب؟ احكيلي..

* * *

وقفت أمام عمارتي القديمة في مكرم عبيد..

مكثنا في شقة في الدور الثالث في تلك العمارة لمدة ثمانية أعوام، ووقفت «سيرا» خلفي تصوِّر وصولنا إلى المكان، كان معنا «آن» و«ياسين» و«شمس».. كلمت في طريقي صاحب الشقة الذي كان صديقًا قريبًا لأبي، كان يحبني بطريقة لا أفهمها، قال لي إنه سيأخذ إذن المستأجِر الحالي ليدخلنا الشقة والمكان الذي أتيت بسببه..

الشرفة..

ذلك المكان الذي رأيته بعيني أنا فقط..

كانت تلك الشقة لها ذكريات كثيرة، لكن شرفتها هي سر كل شيء، كانت تطل على حديقة واسعة ساحرة، مكان حافظ على اللون الأخضر وسط رمادية الكون حوله، صورتُ أفلامًا كثيرة من أعلى، أضع الكاميرا على سور شرفتي، وأنزل مع أصدقائي لنصوِّر ما نريد..

سأصور المشهد الذي يريد «عيسى الصغير» تصويره ثانية، ليكون مشهد نهاية الفيلم.. منذ ثمانية عشر عامًا جلسنا أنا و«سيرا» على سور الشرفة العالي، خلفنا يمسك «محمود»، صديقي منذ أيام الدراسة، الكاميرا، على أرض الشرفة ينام «جمال» ممسكًا إيانا من ظهرينا كي لا نقع. هدف المشهد

أن يتم تصويرنا من ظهرنا، العالم كله أمامنا من مكان عالٍ.. على الرغم من اعتراض أهلي وأهل «سيرا» وقتها، لكن مرضي كان يُخرس الجميع..

دعوه يفعل ما يريد حتى يبتسم قليلًا..

دوت طبلة موسيقى «مهرجان» ما، البديل العصري للأغنية الشعبية.. لم أكُن أفضّلها ولا أحبها.. لكن ذلك الإيقاع البطيء والنغمة الحزينة جعلاني ألتفت.. لأكتشف أنها تصدر من الكشك البسيط بجانبنا..

«قالك تعيش هتشوف.. الندل والخاينين.. وأنا شفت ناس يا زمن يتلبسوا في الرجلين»..

انعقد حاجباي وأنا أسمع تلك الأغنية الشعبية، ابتسمت عندما لمَست الأغنية جزءًا ممَّا يحدث لي، بدأ «ياسين» يهز رأسه، فتضحك «آن» وهي تهز رأسها معه، التفتُّ لـ«آن» أسألها:

- إيه الأغنية دي؟

رفعت يديها في الهواء في رقص مازح وقالت ضاحكة:

- انت ماتعرفهاش؟ دي في كل فيديوهات الـ«تيك توك»..

امتعض وجهي رغمًا عني، ذلك التطبيق على الهواتف المحمولة، انتشر بسرعة الهشيم ككل شيء في هذا الزمن، تطبيق في الأساس يختبر مهارتك في المونتاج ويختبر إبداعك في أفكار مختلفة في زمن قصير، لكننا حولناه إلى منصة غريبة لتحريك الشفاه على أغانٍ أكثر إسفافًا من حياتي ذاتها، كنت أنتقد وجود هذا التطبيق فيما مضى، ثم اكتشفت أنه ككل شيء في الدنيا، هناك عباقرة ينتجون أفكارًا عبقرية، وهناك اللاهثون خلف الشهرة السريعة من دون مجهود حتى لو باعوا ملابسهم..

استطردت «آن» مشيرة إليَّ:

- دي لايقة عليك فشخ..

نظرت إليها بتعجب، وأنا أسمع..



«معدنها قش ودش.. مبدأها غدر وغش.. يابن الأصول معلش.. خليك من الصابرين»..

ضحكت من الكلمات المسفة، لكنها واقعية لدرجة مؤلمة، مثلها مثل تلك الأمثلة الشعبية التي يقولها الجميع مهما كان فيها من كلمات غير لائقة، على إيقاع صاخب يجعلك ترقص بسخرية على كل ما يحدث لك، مثل «آن» و«ياسين» الآن..

قالت «سيرا» ضاحكة من خلف الكاميرا:

- يلَّا ارقص.. «عيسى» أمر..

هززت رأسي رافضًا بقوة، أصبح الموضوع مكررًا ومملًّا، لن أُخرج فيلمًا أرقص فيه طول الوقت، لكن «ياسين» ما إن سمع كلمة «سيرا» حتى اقترب مني وأمسك يديَّ ليرفعهما ويرقص معي..

في منتصف الشارع وقت الظهيرة..

«قالك خسيس يؤتمن.. باع الأصيل بالمال.. صبرك شوية يا زمن»..

نظرتُ إلى «سيرا» التي تحمل الكاميرا، ضحكت وأنا لا أستجيب لرقص «ياسين»، تركت «ياسين» الذي يرقص على الأغنية بحماس، نظرت إلى الكاميرا وأشرت إلى الشرفة في الدور الرابع وقلت:

- إحنا هنصور فوق.. هنطلع كلنا عشان محتاجكم معايا..

أومؤوا برؤوسهم موافقين، تأملت المكان وأنا آخذ نفسًا عميقًا، أمسكت هاتفي المحمول، فتحت قائمة الأصدقاء، جمعت ما بين «محمود» و«جمال» في رسالة تأخرت أكثر من خمسة أعوام:

- أنا تحت.. في المنطقة، تحت بيتي القديم.. تعالوا حالًا..

فقدت اتصالي بهما منذ وقت طويل، هما صديقا الدراسة اللذان لن يعوضهما عالم كامل من الأصدقاء والأحباب، عرفنا بعضنا ونحن لا نريد أي نوع من أنواع المنافع، نحب بعضنا لأننا نحب بعضنا، بتلك البساطة..

كتلك الحديقة الخضراء التي تحافظ على لونها وسط رمادية الكون حولها..
ابتسمت لحظات وأنا أتذكر أكثر من فيلم صورته في هذا المكان، التفتُّ إلى «آن» وأنا أقول بابتسامة:

- أنا عرفت الكنز اللي «عيسى» عاوزني ألاقيه..

* * *

بدأت قدم «رنا» تهتز أكثر، قالت بابتسامة حاولت أن تجعلها من قلبها وفشلت:

- أنا بقيت مدرسة، بادرِّس في مدرسة إنترناشيونال.. «أحمد» و«جنى» معايا في نفس المدرسة.. ناجحة جدًّا واكتشفت إني بحب التدريس.. عايشة في كومباوند حلو قوي في التجمع الخامس.. كل حاجة كنا بنحلم بيها عملناها..

ورفعت رأسها في فخر قائلة لـ«رنا الصغيرة»:

- إحنا مشينا طريق طويل قوي يا بنتي..

نظرت «رنا الصغيرة» لحظات إلى ورقة صغيرة في يدها، كان «عيسى الصغير» قد كتب فيها بعض الأسئلة، دوَّى صوت دقات عالية في الفيديو مع صوت طفولي يقول بفضول:

- بتعملوا إيه؟

ارتجف قلبي وسرت قشعريرة في جسدي شوقًا، وأنا أنظر إلى «رنا» التي ارتفع حاجباها في اشتياق.. في الفيديو قال «عيسى الصغير» بصوت عالٍ:

- استنى يا «علي»..

ليرد «علي»، أخي الأصغر مني بسبعة أعوام، في صوت طفولي اشتاقت أذناي إلى سماعه:

- عاوز ألعب معاكم شوية..

هبطت دموع «رنا» غزيرة، و«رنا الصغيرة» تقول بـ[illegible] لـ«علي»:

- إحنا مش بنلعب يا «علي».. هنخلص ونطلع على طول..

ساد صمت في الفيديو، وظهر صوتُ خطوات «علي» الصغيرة وهو ينصرف، تبادلتُ أنا و«رنا» نظرة محمّلة بالمشاعر، نظرة تفتقد ذلك الصوت الذي اختفى من حياتنا تمامًا، قاطعت «رنا الصغيرة» مشاعرنا وهي تقرأ الأسئلة التي كتبها «عيسى الصغير» لها بتقريرية:

- إيه أكتر حاجة بنخاف منها؟

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى الكاميرا قائلة:

- أنا يمكن دلوقتي مش مبسوطة قوي، دخلت جامعة مش حبّاها عشان المجموع.. حاسة إني عاوزة أبقى حاجة كبيرة قوي وخايفة ما احققهاش.. مغنية مشهورة.. عازفة بيانو عالمية.. مذيعة راديو أو تليفزيون.. إحنا عيلة فنية كدا.. أنا ورثت صوت ماما الحلو و«عيسى» ماورثش حاجة بس عاوز يخرج..

قالتها «رنا الصغيرة» وضحكت وهي تنظر إلى «عيسى الصغير» نظرة مشاكسة، ثم أكملت:

- مش بخاف من حاجة لأ، بس يمكن دايمًا باحسّ إن بابا وماما تعبوا طول عمرهم عشان يربونا صح وفي مستوى كويس.. بس ما سابوش أي حاجة لينا تخلينا نعرف نعيش بعدهم.. فبخاف شوية من المستقبل.. عشان كدا باحاول أعمل كل حاجة صح قوي.. زي ما قال الكتاب..

ضحكت «رنا» الكبيرة في حنين، في حين أكملت الصغيرة وقد رفعت إصبعها وقالت فجأة:

- وآه.. خايفة أتجوز حد مابحبوش..

ثم ترددت لحظات، وأكملت:

- بلاش حب.. حد يكون مش مناسب.. أنا مش باعرف أحب الحب اللي في الأفلام دا.. عارفة إني هاعشق ولادي.. بس أنا عملية قوي على إني

أحب الحب الفظيع دا..

ثم نظرت إلى الشاشة وقد نسيت وجود «عيسى الصغير» كما نسيت وجودي بجانبها الآن:

- في الآخر مش خايفة من حاجة قوي.. عارفة إن واحدة بصوتي وعزفي هتعرف تنجح وتختلف عن كل الناس اللي حواليها، أنا حتى في الجامعة مسميني «أنغام».. عارفة إني هاوصل لكل حاجة أنا عاوزاها.. فمش خايفة..

بدأت ملامح «رنا» الكبيرة في التبدُّل، بدأت تشرد قليلًا كأنها تذكرت السؤال المقبل، قالت الصغيرة مشيرة إلى الكاميرا:

- انتِ بقى خايفة من إيه؟

* * *

أتى «محمود» و«جمال» بعد عشر دقائق، لم نتعاتب، لم تصدر بادرة لوم، عانقنا بعضنا بقوة، لم أرَهما منذ خمسة أعوام، لكنهما لم يسألا، فقط قال «محمود» ضاحكًا:

- خسيت يابن الكئيبة..

لأضحك معه، وضحكت أكثر عندما نظر «جمال» إلى أصدقائي وإلى «سيرا» التي تحمل الكاميرا، وقال:

- يخرب بيتك.. انت لسَّه بتمشِّي الناس وراك في جنانك دا؟

أومأت برأسي أن نعم، وقلت بابتسامة:

- لأ وجاي النهارده عشان نعمل نفس اللقطة اللي عملناها في البلكونة.. فاكرها؟

لينتفض جسده ويقول بغضب:

- أنا مش هنام على الأرض وأمسككم تاني..

ضحكنا جميعًا في لحظة نادرة من الصفاء، تأملتهم جميعًا في صمت وابتسمت في راحة..

كل اختياراتي خاطئة.. ربما بلهاء.. لكني أجيد اختيار أصدقائي..

ضرب جرس هاتفي لأرد عليه..

سمح لنا مستأجر الشقة بالصعود إلى شقته بعد أن استأذنه صديق أبي، مالك العمارة، صعدنا جميعًا وذهبنا إلى الغرفة مباشرة، بالطبع لم تعُد شقتنا، اختلفت تمامًا واختفت معها كل الذكريات، أعشق قابلية الجماد للتغيير عكس ما يشاع عنه، الجماد يمكنك أن تشكله كما تريد ليعكس قبحك أو جمالك، حسب رؤيتك له.. تلك الشقة كانت مختلفة تمامًا وقتما كنا نسكن فيها، لكن الآن، أصبحت كيانًا مختلفًا يحمل ذكريات لعائلة أخرى لا أعرف عنها شيئًا..

الجماد لا يخاف من التغير مثلنا.. بل يتقبله ويتأقلم عليه من دون شكوى..

ضحكت من خواطري البلهاء، لو أخبرت «سيرا» أن هذا هو سر شرودي الذي كانت تعلّق عليه ستسخر مني، جلسنا جميعًا على السور، جعلتهم كلهم يجلسون بجانبي على السور العريض للشرفة، «آن» هي الوحيدة التي كانت تصرخ فينا لأنها تخاف من المرتفعات، جلسنا بجانب بعضنا، جعلت «ياسين» يحمل الكاميرا هذه المرة، وجلست بجانب «سيرا» و«آن» و«شمس» و«محمود» و«جمال» على سور الشرفة..

قال «محمود» ساخرًا وهو ينظر إلى كل شيء من أعلى:

ـ هنضحّي التضحية دي عشان نتصور من قفانا؟ إيه بقى اللقطة العظيمة اللي كلنا هنموت فيها بسببك دي؟



قلت له وأنا أغمز:

ـ هتشوف دلوقتي..

ثم بصوت عالٍ:

- أول ما «ياسين» يقول «أكشن».. هنعمل كلنا الحركة اللي اتفقنا عليها..
أومؤوا برؤوسهم في موافقة، أشارت «آن» برأسها أن لا في رعب حقيقي وهي تكاد تبكي، قلت لها وأنا أطمئنها:
- السور دا أوسع من حياتي يا «آن».. مستحيل نقع من عليه.. امسكي في دراعي وماتخافيش..
نظرت إليّ برعب، فقلت لها كي ألهيها قليلًا:
- عارفة إيه الكنز اللي «عيسى» سايبه؟
نظرت إليّ بفضول، لكن خوفها لم يختفِ، قلت وقد شعرت أنني أنجح:
- الكمبيوتر القديم.. في الشقة دي جالي أول كمبيوتر «PC» في حياتي.. وكان عليه كل الأفلام والأفكار اللي كنت عاوز أخرجها..
قالت بحيرة وهي تنظر إلى «سيرا» التي تجلس شاردة بجانبي في الناحية الأخرى:
- وانت هتلاقيه فين دا؟
قلتُ بابتسامة حنون:
- سيبته لأختي عشان «أحمد» ابنها.. وشرطت عليها ماتمسحش من عليه حاجة..
وأكملت بقية الخطة:
- عشان كدا هنخلَّص اللقطة دي ونروح على أختي على طول، آخد «الهارد» وأصوَّر معاها أول مشاهد الفيلم..
ابتسمت «آن» في فرحة، كان المنظر مخيفًا قليلًا وأقدامنا متدلية للخارج، من شرفة في الدور الرابع، للحظة فكرت أن وزننا هذه المرة أثقل من المعتاد وأن السور لن يحتمل كثيرًا، لكني ابتلعت ريقي وانتظرت..
لنسمع صوت «ياسين» يقول بصوت عالٍ:
- يلَّا..

تأهبنا جميعًا، سمعنا صوت «ياسين» القادم من شباك الشرفة:

- «أكشن»..

انتظرنا ثلاث ثوانٍ، ثم رفعنا جميعنا أذرعنا اليمنى، نلوّح مودعين لكل شيء من أعلى..

* * *

توترت «رنا الكبيرة» ونظرت إليّ، ابتلعت ريقها بحركة سريعة، لكني لاحظتها في الكاميرا، قالت وقد بدأت تنسى قليلًا وجود التصوير والكاميرات:

- أنا بقيت باخاف من حاجات كتير قوي..

ثم نظرت إلى الأرض لحظات، وقالت وهي تعبث في أصابعها، ويبدو أنها تقاوم البكاء:

- لما تكبري هتعدي بحاجات هتكسرك قوي.. لما أخوك «علي» هيموت فجأة في حادثة أتوبيس المدرسة، وبعده حماك بعدها بسنين وتبقي معاه في آخر أيامه.. ولما جوزك هيتعب تعب صعب قوي.. وكل الناس تقولك إنه هيموت.. بس ربنا ينجيه في آخر لحظة..

بدأت دموع تظهر في عينيها، وتقول مبتسمة:

- يمكن وقتها بتعرفي إن مافيش حاجة مضمونة.. أقرب الناس بتمشي.. إنك كبرتي وبقيتي مسؤولة عن زوج وأطفال وواقفة لوحدك وسط كل دا.. بتخشّي في خوف مستمر.. خوف على كل اللي بتحبيهم.. خوف على نفسك.. على ولادك.. ساعتها مابيبقاش فيه وقت تغني ولا تعزفي ولا حتى تجري ورا حلمك..

ومسحت دمعة حنونًا سالت من عينها شاردة:

- الحياة تخوّف يا «رنا».. مش سهلة ومريحة زي ما كـ[illegible]ـسي» شايفينها..

قالت «رنا» آخر سؤال، بابتسامة واسعة:

- آخر سؤال لازم أسأله عشان «عيسى» يرتاح: شايفة مين فينا يكسب دلوقتي؟

انعقد حاجبا «رنا» لحظات، ثم صمتت تمامًا..

تلك هي اللحظة التي أنتظرها..

لحظة الإدراك..

نظرت «رنا» إلى الأرض لحظات، ثم قالت بهدوء بعد فترة صمت:

- أنا ممكن أسيب كل اللي أنا فيه دا عشان مابقاش خايفة كدا..

ونظرت إلى «رنا الصغيرة»، وقالت ودمعة تهبط من عينها:

- عشان كدا انتِ تكسبي.. انتِ أحسن مني كتير..

سرت قشعريرة في جسدي، سادت لحظة صمت، ثم قال «عيسى الصغير» بصوت حنون:

- هنغنّي مع بعض شوية..

ليحدث قطع واضح جدًّا، لتظهر «رنا» جالسةً خلف «الأورج» الشرقي القديم، وتبدأ في عزفها الاحترافي، كانت تعزف أغنية لتتر مسلسل عشقناه معًا في ذلك الوقت، مسلسل «حديث الصباح والمساء»، وكانت أغنية التتر من أصعب الأغاني التي لحّنها «عمار الشريعي»، لكنها أصرت أن تغنيها حتى أتقنتها..

بدأت نغمات عزفها الرقيقة تدوي، لتدمع عينا «رنا الكبيرة» وهي ترى مهارة عزفها فيما مضى، ونسمع معًا صوتها العذب يتسلل إلى قلوبنا..

«زي النهار الطفل لما ينفلت.. من بين أيادي الضلمة ويشقشق..

أنا شفت روح الحق لما جلجلت.. صرخت في وش الخرس أنطق»..

ومن دون أن تدري، بدأت «رنا الكبيرة» تغنّي معها، بصوت خائف، مهزوز..

يترنح بين كسرات الزمن لثقته..

ليصبح في فيلمي صوتان اختلفا في روحهما تمامًا..

لا يفرق بينهما إلا الزمن بكل تقلباته..

* * *

(١٤)

الأمر السادس

يا اللي انت بيتك قش.. مفروش بريش
تقوى عليه الريح.. يصبح مافيش
عجبي عليك حواليك مخالب كبار
وما لكش غير منقار.. وقادر تعيش
عجبي!

صلاح جاهين

جلسنا طول الليل نشاهد أفلامي القديمة..

فقط زاد علينا «محمود» و«جمال»، صديقا الدراسة، أثارت فضولهما تلك اللقطة التي صوَّرناها في الشرفة، فانتظراني مع بقية أصدقائي، وأنا ذهبت إلى «رنا» مع «آن» و«سيرا»، صوَّرناها وأخذتُ منها ما أريد، وعدنا إلى الفيلا جميعًا كي نشاهد الأفلام القديمة..

ما بين ضحك وسخرية على أفكار بعض الأفلام الساخرة، وما بين أفلام حرَّكت مشاعرنا وجعلت بعض أعين الفتيات تدمع، مزيج غريب جعلني أشعر بقيمة ما كنت أفعله..

كان هناك شغف وروح في كل التفاصيل، تلك المحاولة المستميتة للاختلاف في الأفكار وفي زوايا الكاميرا، حتى في محاولات التمثيل الفاشلة مني ومن أصدقائي، هناك حالة من الصفاء والحب والعطاء بلا مقابل..

من المسؤول الحقيقي عن هذا التحول الغريب؟

لا أحد يرد بالإجابة السهلة وهي «النضج» و«الزمن».. هناك شيء ما أعمق بكثير لهذا التحول..

أراني أنا وأصدقائي في ذلك الزمن، وأرى بعيني كأننا مجموعة من الأشجار الحرة، العالية المبعثرة أوراقها تضرب بفروعها السماء، تسكن عقولنا الطيور بحريتها وانطلاقها، ونضرب الأرض بجذور عميقة صافية..

أنظر حولي لأرانا جميعًا أصبحنا أشجارًا مشذبة، جميعها بالطول والشكل والروح الميتة نفسها.. كتلك الأشجار القصيرة التي تزين الطرق، وبلا أي شخصية أو تميُّز..

من ذلك المسؤول عن تشذيبنا جميعًا لنصبح صورًا مكررة من بعضنا؟
ظلَّ هذا الخاطر يشغلني طول مشاهدتي كل تلك الأفلام القصيرة، حتى
رن هاتفي رنة برسالة من أمي، نظرت حولي لأتأكد أن أحدًا منهم لن يلاحظ،
فتحت الرسالة ونظرت إلى محتواها..

كتبت أمي:

- انت عصيت أبوك ومارجعتش البيت.. وباباك زعلان منك جدًا..
وخال طليقتك بيهدد ومش عاوز يوصل لأي حل غير إننا ندفع.. كلمنا
يابني عشان ماينفعش أبوك يشيل الهم لوحده..

لتقتل الرسالة كل ما بداخلي من استمتاع بأي حالة..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

١٩ - «تدرك أن العلاقة السامة ليست بين المحبين فقط.. هناك علاقات سامة في الصداقة وفي الأهل وفي العمل.. فقط في الحب يحدث الاقتراب الكافي ليحدث لك كل هذا التغيير»..

والخطوة السابعة عشرة للتعافي من علاقة سامة: أن تتجاهل أي مصدر للطاقة السلبية وتبتعد عنه تمامًا.. كُن أنانيًّا قدر استطاعتك.. أنت واهن بما فيه الكفاية ولن تحتمل الطاقة السلبية من الآخرين الآن..

أردت أن أقول لها أن تُخبرهم أن يذهبوا إلى الجحيم.. أن تلك المحاولة المستميتة من «أسماء» أن تظل مسيطرة على كل تفاصيل حياتي محاولة فاشلة.. لكني نظرت إلى «سيرا» التي تشاهد الأفلام وتضحك من قلبها.. لن أستطيع أن أفعل هذا بها..

عندما حكيت ما حدث لأصدقائي، سألوا جميعًا عن الإجراءات القانونية لما فعلته طليقتي المصون، ليأتيني «هيثم» بالخبر اليقين من وكيل نيابة صديقه، لو أن «أسماء» من قامت بالاختراق، ستكون هناك إجراءات طويلة من الذهاب إلى مباحث الإنترنت وإثبات هذا الاختراق، ومن ثَمّ تحريات،

ليذهب هذا المحضر إلى وكيل نيابة يحفظه بسبب «أن المخترق هي الزوجة، وتلك مشكلات أسرية لا علاقة لنا بها».. هذا بالطبع إن لم يتحايلوا بأساليب غير قانونية مثل «المعارف» ليحولوا الموضوع كله إلى شيء لا فائدة منه..

الشيء الوحيد الحقيقي هو الابتزاز، كنت أتجاهل تلك الكلمة، لكن «أسماء» وخالها لم يتركا لي تعريفًا آخر..

تعريف الابتزاز في القانون هو: «القيام بالتهديد بكشف معلومات معينة عن شخص، أو فعل شيء لتدمير الشخص المهدَّد، إن لم يقُم الشخص المهدَّد بالاستجابة لبعض الطلبات. هذه المعلومات تكون عادة محرجة أو ذات طبيعة مدمرة اجتماعيًّا.»..

المثير للسخرية أنني عندما أحكي ما يحدث لي لمن حولي، أكتشف أننا في زمن الابتزاز..

ذلك الأمر انتشر بطريقة تُثير الدهشة، في زمن الهواتف المحمولة وسهولة التصوير والعلاقات الجنسية الإلكترونية، أصبح معظم الناس يبتزون بعضهم ويهددون بالفضيحة؛ لأن الكلام أصبح مكتوبًا، والصور والفيديوهات تُسجَّل للأبد.. أعطاني هذا خلفية عن أي مصدر قوة خفية جديد يُوضع بين يدي الناس.. كيف سيستخدمونه.. وكيف ستُظهر تلك القوة أقبح ما فيهم..

بتلك الرسائل التي بعثها خالها برقم هاتفه الشخصي باسمه لوالدي، يطلب فيها مقابلًا ماديًّا لما تحت يديه، تلك قضية سهلة الإثبات، لكنها ستسجنه وتسجن «أسماء» من سبعة أعوام إلى خمسة عشرة عامًا..

وأنا لو كان لي مبدأ في حياتي، فهو مبدأ واحد فقط..

لا تؤذِ أحدًا مهما آذاك..

حافظ على ما تبقَّى من إنسانيتك، عندما تؤذي أحدًا مهما كان السبب أنت تخسر جزءًا منك أنت. قاوِم مهما أغروك أن تصبح مثلهم..

أغمضت عينيَّ..

نفس عميق.. وزفير طويل لا يعرف طعم الحرية..

نظرت إلى الرسالة في ضيق حقيقي، وكأنما شعرت «سيرا» بما في داخلي نظرت إليَّ في تساؤل، ابتسمتُ ابتسامة مزيفة محاولًا أن أطمئنها لكني فشلت.. فنظرت إليَّ بقلق..

انتهى آخر فيديو، فنهضت «سيرا» وهي تنظر إليَّ متسائلة، وضعت الفلاشة الجديدة بالأمر الجديد، ابتسمت ونظرت إلى الجميع قائلة:

- دلوقتي الأمر السادس..

صفقوا جميعًا في حماس، وضعت «سيرا» الكاميرا في مكان مناسب، وبدأت التسجيل، لأقف أنا كعادتنا وأنظر إلى التلفاز..

متجاهلًا تلك الرسالة تمامًا..

* * *

قال «عيسى الصغير»، وهو جالس على الكرسي، باستمتاع كعادتنا كلما تحدثنا عنه:

- عمك «جاهين» قال: عجبي عليك حواليك مخالب كبار.. وما لكش غير منقار.. وقادر تعيش..

ثم ابتسم وهو يشرد قليلًا، وقال:

- أنا وانت يا «عيسى» حوالينا حاجات كتير بتحبطنا قوي.. مخالب كبيرة من الإحباط والقرف.. بس منقارنا أنا وانت اللي مخلّينا نعيش هو حلمنا.. الموهبة اللي ربنا كرمنا بيها.. لو سبتها أو نسيتها صدقني...

وصمت لحظات ناظرًا إلى سقف الحجرة:

- عمرنا ما هنعرف نعيش..

سرت قشعريرة في جسدي، كأن سنوات الموت الطويلة السابقة تتسرَّب من مسامي، لم أستطِع أن أعيش بالفعل يا «عيسى»، لكنك لم تعرف مدى سهولة الموت وراحته.. يسحبك ببطء حتى تتقوقع وتترك نفسك لأمانه القاتل..

ما أسهل أن تعيش محبطًا بلا حلم يقودك ولا شغف، كل شيء يتساوى فلا تستطيع أن تحزن ثانية أبدًا..

وقف «عيسى الصغير» ينظر إليَّ مبتسمًا، قال بهدوء وحماس:

- صوَّرت إيه لحد دلوقتي؟

قلت وأنا أعلم أنه ترك مساحة من الرد لي:

- صوَّرت الحوار مع «رنا»..

صمت فترة أطول، ربما توقَّع أنني سأكون قد فعلت أكثر من هذا حتى الآن، قال بعد أن هز رأسه موافقًا:

- قشطة طحن، إن شاء الله هنكمل حاجة حلوة قوي..

والتفت ليأخذ شيئًا من على المكتب، ويُريني إياه من خلال الكاميرا، كانت صورة مطبوعة لي أنا و«محمود» و«جمال» و«سيرا» في عيد ميلادي الثامن عشر، قال «عيسى» بصوت صريح:

- دول صحابك اللي بجد.. لمَّا قلتلهم على فكرة الفيلم دا عجبتهم قوي.. وبدأنا الموضوع بفيديو.. حلفنا كلنا إننا هنصوره تاني بعد ١٨ سنة..

سمعت صوت ضحكة «سيرا» العالية مع «محمود»، وسمعت صوت «جمال» يقول كمن تذكر كارثة:

- يا دين أمييييي...

لم أتذكر شيئًا، لم أستطِع أن أُظهر هذا، فتظاهرت بالتركيز مع «عيسى الصغير» الذي أكمل بحماس:

- ولو فعلًا عملناها هتبقى حلوة قوي، هاوريك الكليب دلوقتي، عشان الأمر إنك هتصوره معاهم تاني.. وتعملهم ميكس مع بعض..

قال «محمود» بصوت عالٍ:

- اقفل يابني بسرعة..

كيف لا أتذكر؟! تم إظلام الشاشة تمامًا.. وتبدأ موسيقى رنَّت في ذاكرتي.. لتجعل عينيَّ تتسعان وأنا أتذكر..

وأضحك..

كتب على الشاشة السوداء وموسيقى بداية الأغنية في الخلفية: «الرقصة اللي وعدنا نرقصها»..

ضحكت ملء فمي، خلفي ضحكات «محمود» و«جمال» و«سيرا»، في حين لم يفهم الباقي أي شيء..

كانت أغنية لمطرب اسمه «حمدي بتشان»، بعنوان «إيه الأساتوك ده»..

قال «جمال» بجدية:

- يابني اقفل مش ناقصة هبل وحياة أبوك..

لم أسمع كلامه ووقفت أشاهد مبتسمًا، اختفى ظلام الشاشة، ليظهر «محمود الصغير»، بجانبه أقف أنا و«جمال»، نمثّل أننا نتحدث معًا، لتمر فجأة «سيرا» من أمامنا، فيبدأ «محمود» في معاكستها، لتلتفت له «سيرا» وتعنّفه، وآتي أنا و«جمال» لنعنّفه.. كما تقتضي كلمات الأغنية التي شهد التاريخ أنها أكثر الأغنيات إسفافًا في التاريخ..

لكننا ضحكنا بشدة..

كان أول فيديو يناسب تطبيق «التيك توك» منذ ثمانية عشر عامًا..

رأينا الفيديو لآخره، سخر الجميع من كل ما نفعل من بلاهة حقيقية، سخر الباقي منًّا، من أداء «سيرا» المفتعل، وتحرش «محمود» الذي أجاده بشدة، واستغلالي أنا و«جمال» للموقف لنضرب «محمود» أكثر من مرة في الفيديو..

انتهى الفيديو، خفتت الضحكات عندما وجدوني أنظر إليهم نظرة خبيثة..

نظر إليَّ «محمود» وقد فهمني:

- ولا.. بلاش جنان.. انت فاهم إن دا فيلم وممكن يتعرض وناس تانية تشوفه، صح؟

قلت مشيرًا إلى السطح بثقة:

- يلَّا عشان هنصوَّر..

ونظرتُ إلى «سيرا» نظرة طويلة، ثم غمزتُ لها قائلًا جملتها:

- «عيسى» أمر..

قال «جمال» بانفعال، لكن هناك ضحكة ترتسم على شفتيه:

- ما يؤمر «عيسى» ولا يتدلعش..

قلت وأنا أنظر إليهم جميعًا:

- بس المرة دي هنصوره كلنا..

وقبل أن يعترضوا، رفعتُ إصبعي وقلتُ بلهجة آمرة:

- انتو قلتوا كلكم إنكم ورايا وفي ضهري.. ماتجوش ساعة الجد وتخلعوا..

قال «ياسين» بنبرة ساخرة:

- في ضهرك دي يعني نحميك.. مش نهزأ نفسنا..

ضحكوا جميعًا فقلت بنبرة آمرة:

- يلّا عشان نلحق الشمس..

سمعت اعتراضات كثيرة، بعضها ضاحك وبعضها حقيقي، ابتسمتُ ولم أعِرهم التفاتًا وذهبت لأحمل الكاميرا بالحامل، وأضعها في الروف خارجًا..

سأنفذ أمر «عيسى» حتى لو كان تافهًا وبلا معنى..

سأسير خلف عقل من كان شجرة حرة تسكن الطيور فروعها الطويلة..

لن أسير خلف كل هؤلاء المشذبين..

* * *

لم نفكر كثيرًا..

وضعت الكاميرا بزاوية تُظهر السماء أكثر، وبعيدة حتى تكفينا جميعا، أتت «سيرا» بالسماعة الـ«JBL».. ومن دون حسابات أو اتفاق انطلقنا نرقص ونمازح بعضنا على كلمات الأغنية..

لأول مرة، أتذكر نية «عيسى الصغير» في أمره هذا، وأدرك ما الذي يريده تمامًا..

كنت أومن، في صغري، أن الفرق الوحيد بيننا وبين الأطفال أننا نخاف أن نترك أنفسنا لبراءتنا الطفولية..

ما بين «عيب» و«مايصحش» و«اسكت»، نكبر جميعًا على كتم نزعات الطفل داخلنا، كان لـ«عيسى الصغير» نظرية: إذا أردت أن تعرف مَن أمامك راقب الطفل داخله، هل يحافظ على وقاره دائمًا ويتحدث بلباقة ورسمية؟ راقبه في حفل زفاف أو أي وقت مطلوب منه أن يرقص فيه.. تعرف كثيرًا عن البشر من طريقة قتلهم ذلك الطفل داخلهم..

ابتسمت وأنا أرقص وأراقبهم حولي كعادة «عيسى» القديمة، ونظرته التحليلية قد بدأت تستيقظ داخلي أخيرًا..

«هيثم»، الذي يهز رأسه كي يعطينا انطباعًا أنه يرقص لكنه لا يرقص في الحقيقة، على الفور تعرف أنه شخصية تحارب طفلها، يخاف من نظرة الناس، لكنه يحاول إرضاءهم دائمًا، هزمه الخوف والألم فيحاول أن يتغلب على انطلاقه، لكن هناك خبثًا فيه يجعله يتظاهر بالمرح..

«درية»، التي ترقص بشكل رائع، لكنه رقص محترف يدل على أن الطفل لم يعُد هناك، مجرد ذكرى قديمة لشخص أتقن أن يمثل كيف يبدو مرحًا منطلقًا، رقصُ «درية» رقصُ مَن يبحث عن اهتمام، مَن يبحث عن إعجابٍ مِن الآخرين..

«ياسين»، الذي ترك نفسه للطفل تمامًا ويرقص باندفاع بكامل طاقته، يقفز ويدور حول نفسه من دون أن يبالي بأي شيء ولا بضحك من حوله..

«شمس» ترقص رقصًا هادئًا ساخرًا، تسخر مِن رقص مَن حولها ومِن نفسها، تراقبهم وتحللهم مثلي تمامًا، ذلك الرقص المتخفي لمن يغلبه الطفل، لكنه يخجل منه، انتُقدت كثيرًا في طفولتها فصارت تسخر من الأطفال الآخرين..

«محمود» و«جمال» انغمسا معًا في إعادة تمثيل الفيديو القديم، «محمود» لا يرقص ولكن يجعل مَن أمامه يرقص، القائد المسؤول الذي تحوّل الطفل بداخله إلى رجل ناضج يسعى إلى أن يقود الحياة بعقله، يشعر أنه مسؤول عن سعادة الجميع، وصارت سعادته ببساطة أن يجعلهم سعداء.. «جمال» لم يرقص، لكنه اندمج في تمثيل شخصية المتحرش، خاف من طفله ولا يثق به لدرجة أنه يمثل شخصية أخرى أكثر حرية من سجن ألمه..

«آن» كانت تنظر إلينا وتضحك، تترك نفسها للطفل أحيانًا ثم تسخر أحيانًا أخرى، تمثل شخصية أحيانًا، ذلك التقلب المعروف لدى برج الجوزاء الذي تنتمي إليه «آن» بجدارة، لكن غلب على رقصها الحزن والحيرة، هناك شيء كبير يدور في حياتها لا أعرف عنه شيئًا، لكنها الآن في حالةِ مَن ترك نفسه للطفل تمامًا، وهذا الطفل حائر لا يعرف أي شيء عن نفسه.. لكنه مبدع وعبقري ككل طفل داخلنا..

«سيرا» عادت لتمثل دور الفتاة التي تتم معاكستها، لكن استمتاعها بكل ما يحدث استمتاع صادق، «سيرا» من القلائل الذين تركوا الطفل يتطور وحده، أخذت عبقريته وبراءته وموهبته وهذّبت جنونه وسذاجته ككل العباقرة..

انتهت الأغنية، صفقوا جميعًا لأنفسهم مع صرخة حماسية، تأملتُ الحالة التي كان يرغب فيها «عيسى» وقتها، تلك اللحظة التي يتركون طفلهم يسيطر عليهم من دون قيد.. ضحكات صافية من قلوبهم..

«عيسى» لم يكُن يفعل كل هذا من أجلي فقط..

بل من أجلهم أيضًا..

وصل بهم الحماس إلى أنهم ضغطوا على «آن» كي تجعل أغنية أخرى راقصة تدوي من السماعة، ليكملوا رقصهم، توقفتُ عن الرقص من التعب

وقد بدأت قدمي ترتجف في ضعف، فلم أرد أن أضغط عليها أكثر من هذا..

عندما أرى ما سجلته الكاميرا، سأراقب رقصي، وأعرف أين أقع وسط كل تلك الأنواع..

حمدت الله فقط على أنه لا يوجد أحد وسطنا من «المصفقين»..

المصفقون هم أسوأ الأنواع، لم يقتل أيٌّ منهم الطفل داخله فقط، بل ملأ فراغه بشخص ناضج يحكم على كل الراقصين.. يستهزئ بهم ويرغب أن يكون مكانهم، لكنه قتل طفله الداخلي فأصبح بلا روح..

لاحظتُ «سيرا» تمسك هاتفها المحمول وسط رقصها، ثم تتوقف عن الرقص تمامًا، ويبدو على ملامحها القلق..

اقتربت منها، أراقب مع اقترابي تبدل درجات وجهها من حمرة الرقص لشحوب الصدمة، زدت من سرعتي، لأصل إليها فتنظر إليَّ بعين دامعة، وتصوِّب شاشة هاتفها نحوي في مشهد ذكَّرني بما فعلته أمي تمامًا، لكن مع اختلاف النظرة اللائمة لنظرة مستنجدة، فقدت كل أراضي الأمان الممكنة، ولم يتبقَّ سواي..

نظرة قتلتني..

نظرت إلى الشاشة وقلبي يفوِّت دقة..

ورأيت ما توقعته..

رسالة على تطبيق «واتساب» من طليقها، بنفس عدد الفيديوهات والصور التي تم إرسالها لوالديَّ..

لقبلتنا أنا و«سيرا» على السطح..

تحته رسالة أخرى: «يرضيك اللي بتعمله مراتك يا راجل يا محترم؟ تحب نتكلم ولا تحب ناخد رأي الناس كلها؟»..

أدركت أن ذلك الكلام مرسل من المبتز الصاعد بقوة بلا فخر- خال «أسماء»..

بعث طليقها رسالة واضحة آمرة لا تقبل النقاش:

- بكرة نتقابل عشان نشوف الراجل دا عاوز إيه..

وصمت كل شيء حولنا..

* * *

(١٥)

وسابع الكنوز

سمعت نقطة ميّه جوّه المحيط
بتقول لنقطة ماتنزليش في الغويط
أخاف عليكِ من الغرق.. أنا قلت
دا اللي يخاف م الوعد.. يبقى عبيط!
عجبي!

صلاح جاهين

لأستيقظ في اليوم التالي على صوت حديثهم في الخارج..

حدقتُ في السقف وأنا أشعر بثقل يثبتني مكاني..

كنت، طوال الفترة السابقة، أطمئن نفسي بفكرة أنهم كانوا يهددون فقط، شيء ما في عقلي الباطن كان يقول: «لن يصلوا إلى هذه المرحلة من الأذى».. في النهاية هي لعبة طمع في النقود.. بررتُ كل أفعالهم على أنهم يهددون فقط.. لكن العائلة التي انتميت إليها عندما تزوجت ابنتهم، وكنا كيانًا واحدًا في أوقات الفرح والحزن، لن يصلوا أبدًا إلى إيذاء فتاة لا يعرفونها، ويفضحوها بهذا الشكل أمام طليقها..

لكن خال «أسماء» نفّذ التهديد..

على الرغم من أنني أعلم أنه، في منطق عقله الملتوي، يضرب ضربتين في الوقت نفسه، هو يثبت أنه قادر على الإيذاء كي ندفع النقود، وفي الوقت نفسه يرتدي ثوب الملاك ويفعل خيرًا، بأن يكشف لزوج «سيرا» - كما يعتقد - أن زوجته خائنة لعوب..

بل إنه يفخر بنفسه أنه اكتفى بإرسال كل شيء لطليقها فقط وليس للعالم أجمع؛ لأنه في نظر نفسه رجل فاضل، يحمي فتاة يتيمة الأب صارت مسئولة منه..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٠ - «في وقت الهجر لا يصدق الشريك أنك تركته.. فينفجر فيك من دون قيد أو ردع.. يختلف هنا نوع الانفجار وقوته.. هناك من يظل يطاردك محاولًا استعطافك.. هناك من ينصرف ويتحدث عنك بالسوء مع كل مَن

تعرفه.. هناك من تركك وهو يعلم أنك لن تنساه أبدًا فلا ينفجر.. أسوأهم من ينفجر فيك بالأذى المباشر.. يؤذيك ويؤذي مَن حولك بلا رحمة»..

والخطوة الثامنة عشرة للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أيًا ما كان نوع الانفجار.. عليك أن تحتويه وتتقبّله ولا تجعله يؤثر عليك.. لا تسمح لدفاعاتك النفسية أن تنهار.. قوة انفجار الشريك تدل على مدى ألمه من ابتعاد مشاعرك الصادقة عنه»..

البارحة، وجدت «هيثم» يقلّب في هاتفه ويمسح كل الصور العارية، سواء له أو لصديقاته، «درية» أيضًا بدا عليها القلق وأخذت تبحث عن أي شيء قد يُمسَك ضدها فيما بعدُ، «شمس» هي التي أثبتت براءتها ولم تمسح أي صورة، اكتفت بأنَّها غيرت كلمات السر لكل حساباتها على الإنترنت..

كلهم شعروا بالتهديد..

أن يخترق أحد حساباتك الإلكترونية وهاتفك، لا يفرق عن اللص الذي يتسلل إلى بيتك وأنت نائم، تشعر أنك عارٍ فجأة وأن كلمة «أمان» غير موجودة في قاموس المشاعر.. انتهاك قذر لكل ما يتعلق بإنسانيتك..

إحساس لعين..

نهضت من الفراش بتثاقل، خرجت من غرفتي، ولدهشتي وجدت «سيرا» مشرقة كعادتها في الصباح، تتحدث معهم وتضحك، كل شيء مجهَّز للتصوير، الكاميرات والإضاءة، جلستهم المرحة التي تتصاعد منها الضحكات، ما إن خرجت حتى نظروا إليَّ بابتسامة مرحِّبة، ما هذا الهراء؟ هل نسوا كل شيء عن البارحة؟

لوَّحت لي «سيرا» بالخطاب في يدها، عقدت حاجبيَّ وقلت وأنا أشير لها بإصبعي:

- لأ.. لو سمحتي يا «سيرا» تعالي ثواني..

نظرت إليَّ نظرة تمنعني ممَّا أريد أن أفعله، نظرة فهمتها تمامًا وبسهولة، لأدرك أنه مرَّ زمن منذ أن كنت أقرأ الأعين وأفهم نظراتها، طول الفترة السابقة

كنت أنشغل بما في عقلي أنا فقط، كانت نظرتها تقول: «ليس الآن من أجلي»، أومأت برأسي أن نعم في تفهُّم، فقالت «سيرا» بهدوء وهي تناولني الخطاب:

- أنا اتفقت مع «مصطفى» إننا هنقابله في المكان اللي في الجواب دا.. فحاول تعرفه بسرعة عشان مانتأخرش..

أمسكتُ منها الخطاب، لتذهب هي راكضة وتضغط على زر التسجيل في الكاميرا، نظرت إليها غير مستوعب لكل ذلك الإصرار لديها على أن أكمل هذا المشروع، لكن وقعت عيناي على أول سطور الجواب..

وقررت أن أقرأ كاتمًا كل أسئلتي بداخلي..

* * *

- «(عيسى) يا (عيسى)..

أنا غاضب يا (عيسى)؛ لهذا ستجد هذا الخطاب طويلًا قليلًا.. لا تمل مني..

أنا وأنت نعرف جيدًا أن عدونا الأوحد هو الخوف.. الكبار يضحكون علينا يا (عيسى).. ويستمتعون بفعل ذلك جدًّا.. ويخدعونك بالحرية دائمًا على الرغم من أنهم لا يفهمون معناها على الإطلاق..

تلك المتعة الخفية وهم يخبرونك أن كل مشكلاتك ستنتهي بعد المدرسة وستصبح حرًّا تفعل ما تشاء، ثم يكملون كذبهم ويخبرونك أن كل مشكلاتك ستنتهي بعد الجامعة، ثم تتسع الكذبة بأن حريتك في العمل والاستقلال، ثم الزواج، ثم الإنجاب..

وعندما تصل إلى تلك المرحلة الأخيرة وتنظر إليهم متسائلًا: أين الحرية؟ يهزون أكتافهم في خبث ويقولون: لا توجد حرية إلا في الجنة يا بني..

يخفون عنك، قاصدين، كل العوائق والبديهيات التي ستمنعك من أن تكون أنت.. لا أدري هل هذا بسبب الحب أم الخوف علينا.. لكن في النهاية هم مجموعة من الكاذبين.. وحتى لا أظلم ولأكون دقيقًا يا (عيسى)..

هم مجموعة من الحمقى التائهين مثلنا تمامًا..

كلهم أطفال مثلنا، في الثامنة عشرة، يحاولون أن يفهموا.. تلك النظرية وصلت إليها الآن وجعلتني أتسامح معهم كثيرًا.. تخيَّل أباك وأمك وأختك وعماتك وخالاتك وكل من تعرفه، تخيَّلْ أنهم ما زالوا أطفالًا مثلي الآن.. في الثامنة عشرة.. مطلوب منهم أن يكونوا مسؤولين عن أطفال أنجبوهم، وعملٍ لو فشل سيهدد حياتهم.. تخيلهم جميعًا أطفالًا يا «عيسى»؛ لأن هذه هي الحقيقة القاسية التي لن يعترفوا بها أبدًا..

في الحقيقة: لا يوجد شيء اسمه (نضج)..

النضج هو الاسم غير المهين من (الخوف).. تخيل طفلًا رأى موت أحد أبويه.. يصبح أكثر إدراكًا ممَّن في عمره؛ لأنه أصبح (يخاف).. يخاف من الفقد.. فأصبح في نظر مَن حوله (ناضجًا)..

لو تأملتَ فيما يطلقون عليه النضج وتحمُّل المسؤولية، ستجد يا (عيسى) أنهم يقصدون تراكمات من الخوف.. هل كبرت وأصبحت تخاف من الفشل فتنجح؟ هل أصبحت تخاف من الفقر فتعمل؟ هل تخاف من الوحدة فتتزوج وتنجب؟ حتى في علاقتنا يا (عيسى) نحن لا نكبر.. كثيرون يتألمون مِن قذارة مَن حولهم.. فيحبسون قلوبهم خوفًا ولا يثقون بسهولة أبدًا.. هل هذا بسبب (النضج)؟ لا يا عزيزي.. هذا بسبب خوفهم من ألم في قلوبهم لن يذهب بسهولة..

النضج بالنسبة لهم تعريفه هو الرعب من شر الآخرين وقبحهم..

كلما نكبر يا (عيسى) يثقل كاهلَنا الخوفُ من الخسارة.. فنبتعد وننعزل ونتقوقع في فقاعة من الأمان حتى يبتعد الأذى عن أرواحنا.. وعندما ننجب نعلِّم أولادنا هذا الخوف..

وحقيقة الأمر أننا كلنا أطفال، نريد فقط من يتركنا نتحرك بحرية من دون أن يخاف من كل شيء، وعندما نجده، نخاف من أن نخسره..

دائرةُ الخوفِ لعينٌ يا (عيسى)..

وأنا وأنت لن نصبح مثلهم..

لذلك سنواجه هذا الخوف، أنا وأنت.. لن نسمح له بالتحكم في حياتنا.. وبالتالي لن (ننضج)؛ لأن النضج الحقيقي يا (عيسى) هو أن تبقى طفلًا وسط عالم امتلأ بالرعب من الآخرين..

كما قال (جاهين) ببساطته: (أخاف عليك م الغرق.. قلت أنا.. دا اللي يخاف م الوعد يبقى عبيط)..

سنقفز معًا يا (عيسى) إلى أرض الحرية.. إلى دنيا أخرى لن تتركنا إلا عندما نهزمها بإرادتنا الحرة فقط..

في انتظار أعظم مشهد في فيلمنا التسجيلي.. عِدني أنك ستنفِّذها من دون تأجيل

وفي نهاية اللغز السادس والكنز السابع أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذَمَا يتحرر.. يجدني.».

* * *

أنهيتُ قراءة لينظروا إليَّ جميعًا نظرةً مندهشة، قالت «آن» بإعجاب:

ـ عجبني كلامه.. ماسمعتش حد قبل كدا قال على النضج إنه خوف..

ابتسمتُ ناظرًا إليهم، لا تعرف أنني في هذا الوقت رأيتُ كلَّ من حولي يتخبَّط كطفلٍ صغير، هبط عليهم خبر مرضي لأرى حيرتهم في كل شيء.. الإنسان لا يشعر بضعفه إلا عند مواجهة الموت أو المرض الذي لا شفاء منه.. بالفعل رأيت كل مَن حولِي يتخبط كمراهق في عمري.. ذلك جعلني أسامحهم كثيرًا على كل ما ضغطوا به عليَّ نفسيًّا..

لكني لم أستطِع إلا أن أشعر بخوف مبهم ونَفَسي يضيق..

قلت لهم الحل بهدوء خارجي، ورعب داخلي:

- «عيسى» عاوزني أروح النادي..

نظروا إليّ نظرة متسائلة، فابتسمتُ وأنا أعبث بشعري في توتر:

- أنا و«عيسى» كنا...

ثم صمتُّ لحظات لأغيّر ما قلته:

- وأنا صغير عرفت إني مريض مرض سخيف شوية..

تباينت ردود الفعل، ما بين تساؤل قلق، وتساؤل فضولي، «سيرا» هي التي نظرت إليّ نظرة خائفة، و«آن» نظرة غاضبة؛ لأني لم أخبرها، أكملت متجاهلًا كل هذا:

- المهم يعني إني كان لازم ألعب رياضة كتير عشان أبقى أحسن، فأهلي اشتركولي في كذا نشاط: تدريب سباحة وتنس وحاجات كدا..

وأكملت لهم القصة.. لينهضوا مرة واحدة ويجذبوني رغمًا عني..

لم أكُن أريد أن أذهب على الإطلاق..

* * *

تدريب السباحة في النادي الرياضي، كان «عيسى الصغير» يكره الرياضة بكل أنواعها، ويكره أيضًا أن مرضه يُجبره أن يذهب إليها.. لذلك فبعد شهرين متواصلين من التدريب، أتاه المدرب وأخبره هو وزملاءه أن اليوم هو يوم «القفز»..

وأشار إلى لوح القفز، طول فترة تدريبهم كانوا يقفزون من ارتفاع بسيط، لكن اليوم هو قفزة الأمتار العشرة..

ضرب قلب «عيسى» خوف مبهم، أخذ المدرب جانبًا وحاول أن يقنعه أنه مريض وأنه قد لا يستطيع أن يقفز تلك القفزة الهائلة.. لكن المدرب ربت على كتفه وقال مبتسمًا:

- النطة دي نطة شجاعة يابني.. إحساسها عمره مايتنسي..

وانصرف مسرعًا، ليرمق «عيسى» «سيرا الصغيرة»، الجالسة تضحك بشماتة ناظرة إلى خوفه، فيبتلع «عيسى» ريقه وينظر إلى لوح القفز في خوف..

* * *

لأجد نفسي بعد ثمانية عشر عامًا، أنظر النظرة نفسها للوح السباحة العالي..

كان الوقت ليلًا، جعلتُ كلًّا من «ياسين» و«آن» يضعان الكاميرا ويصوِّبانها على اللوح العالي، في حين جلستُ أنا و«سيرا» على مائدة في النادي ننتظر «مصطفى»، طليق «سيرا»، الذي لم يتأخر كثيرًا..

كان شابًا أكبر مني بعامين أو ثلاثة، لكنه يبدو أصغر مني بعشرة أعوام على الأقل، على الرغم من أنه منتج سينمائي فإنه يبدو كممثل أجنبي مشهور.. وسيم وطويل القامة وعضلاته بارزة بشكل متناسق، يُطلق لحيته بشكل منمّق، أعتقد أنه يثير معظم الفتيات ولا أدري لماذا، عيناه فاتحتا اللون كعينيّ، لكنهما تناسبان وسامته أكثر..

ابتسم وهو يصافحني ابتسامة دبلوماسية حفظتها على مدار عملي في البنك، تلك الابتسامة مزيفة الود ومتصنعة المحبة.. جلس وبدأت التعريفات المعتادة، كان ودودًا لبقًا يوزّع ابتسامة على أنا و«سيرا» كأننا لا نناقش مصيبة تهدد مستقبله ومستقبل «سيرا»..

بدأ في الموضوع مباشرة من دون تضييع للوقت:

- طيب، هنعمل إيه في المشكلة اللي عندنا؟

قالت «سيرا» بجدية:

- فهّمني إيه اللي حصل بالظبط؟

هز «مصطفى» كتفه، وحكى باختصار، عندما وجد الفيديوهات تأتيه من رقم غريب، وتهديد وخال «أسماء» الصريح، لم يضيع «مصطفى» الوقت وكلمه على الفور، لتدور محادثة غريبة بينه وبين خالها، أخبره أنه يكن

كامل الاحترام له ولـ«سيرا»، لكن مشكلته معي أنا، يريد أن يدمّر حياتي كما دمرتُ حياتهم، وقال أيضًا إنه فارس مغوار يكشف عن حقيقة الزوجة الخائنة، ليخبره «مصطفى» أنهما مطلقان منذ أكثر من شهرين ولكن لم يعلنا عن ذلك بعدُ، فيصر خالها، قائلًا إن «سيرا» لم تنتظر مرور العدة وإنها قد تنجب.. ليعرف «مصطفى» عقلية مَن يحدثه، ويغلق المكالمة على وعد أن تلك الفضائح لن تنتشر لو حدث نوع من أنواع التراضي..

قلت وأنا أشعر أنني قد أفقد أعصابي:

- وانت فاهم طبعًا إن التراضي دا معناه فلوس..

هز «مصطفى» كتفه بلا مبالاة وقال ببساطة:

- آه.. اداني كلمة شرف إنه لو خد الفلوس مش هيعمل حاجة.. هو مش عاوز غير حق «أسماء» اللي انت ظلمتها ودمرت حياتها..

نظرتُ إلى «مصطفى» نظرةً أحاول أن أكتم فيها غضبي، أعرف أنه لا يعلم شيئًا عن تفاصيل الموضوع ويقول ما بثه الرجل من سُمٍّ في أذنه، قالت «سيرا» بتوتر:

- إيه البجاحة اللي بيتكلم بيها دي؟

هز «مصطفى» كتفه في بساطة ولا مبالاة بدأت تستفزني وقال:

- انتو وقعتوا تحت ضرسهم، همّ لقوا فرصة من دهب لازم يمسكوا فيها.. ماحدش قالكم ناموا مع بعض في السطح..

وضحك قائلًا وهو ينظر إليَّ:

- دانا كنت باتحايل عليها نعمل كدا وكانت بترفض دايمًا.. يوم ما تعملها تبقى متراقبة؟

ونظر إليَّ بابتسامة مكملًا:

- ما اعرفش ازاي انت أقنعتها.. برافو عليك..

قلتُ مبررًا ما لن يصدقه:

- إحنا مانمناش مع بعض.. لو كنا عملنا كدا كنت هتشوف صور تانية خالص..

ضحك مرة ثانية، هناك شيء ما خطأ، هذا رجل لا يشعر بأي شيء ناحية «سيرا»، بل هناك شيء من الشماتة في أسلوبه حيَّرني، قلت السؤال العالق في ذهني منذ أن عرفت أنه سيقابلني:

- هو انت مش متضايق مني أو عاوز تضربني أو كدا؟

نظر لي عاقدًا حاجبيه في حيرة، كنت أعرف أنه سؤال مباشر وغير ملائم، لكني لم أتعامل مع أغراب منذ فترة طويلة، أتعامل فقط مع المقربين مني؛ لذلك فقدت كل لباقة الحوارات التقليدية وسهولتها، لم أعُد أعرف ما يصح أن يقال وما لا يصح، أقول ما في عقلي من دون أن أبالي، ابتسم «مصطفى» وضيَّق عينيه قائلًا:

- أنا ماليش دعوة بحياتها من ساعة الطلاق، تعمل اللي هي عاوزاه، هي حرة طبعًا.. أنا و«سيرا» سايبين بعض وكل واحد فينا بيحترم التاني..

قلت متسائلًا بحيرة صادقة تمامًا:

- يعني فيه حاجة اسمها ناس نضيفة بعد الطلاق، ولا دي إشاعة؟

نظر «مصطفى» إلى «سيرا» نظرةً حنونًا، في حين نظرَتْ «سيرا» إلى الأرض نظرة متوترة لم تفُت على عينيَّ، قال:

- أكيد طبعًا.. يمكن الحاجة الوحيدة اللي كانت ممكن تعمل مشكلة هي «آسر»، بس الحمد لله المشكلة دي اتحلت..

نظرت «سيرا» بعيدًا لتداري شيئًا ما عني، عقدتُ حاجبيَّ ونظرت إليها، ثم التفتُّ إليه قائلًا:

- «آسر»!

نظر إلينا نظرة حائرة، ثم قال مبتسمًا لـ«سيرا»:

- انتِ ماقولتيش ليه؟



تنحنحت «سيرا» وبدأت تهز قدمها في توتر، نظرت إلى الأرض ولم ترد، لينظر إليّ «مصطفى» ويقول مبتسمًا:

- «آسر» ابننا..

صمتُّ تمامًا من المفاجأة، ونظرت إلى «سيرا» التي أخذت قدمها تهتز بعصبية أكثر..

* * *

- أنا باكره أهلي..

قالها «عيسى الصغير»، وهو ينظر إلى لوح القفز العالي، لتضحك «سيرا» قائلة:

- يابني بطَّل اللي بتقوله دا..

كانت «سيرا» تذهب معه إلى النادي، لم تكُن تُدرَّب تدريب السباحة، لكنها عندما عرفت كراهيته الذهاب قررت أن تشجعه بذهابها معه، على اتفاق أن يذهب إلى تدريب الأسكواش معها أيضًا، بدا اتفاقًا عادلًا فوافقا عليه..

قال «عيسى» بقلق وعيناه لا تفارقان لوح القفز:

- ماحدش يرمي عياله الرمية الزبالة دي.. مش ممكن الواحد يقع ياخد كرباج ويموت؟

قالت «سيرا» ناظرة إلى ما ينظر إليه، وابتسمت باستهزاء قائلة:

- النطة دي سهلة.. ماتخافش..

نظر إليها «عيسى» بعصبية وقال:

- يعني ترضي ابنك يتعمل فيه كدا؟

أشارت بإصبعها أن لا وقالت بجدية:

- أنا مش هاخلف..

نجحت أن تسرق انتباهه، فقال متسائلًا:

- ليه صحيح؟



نظرت إلى السماء لحظات، ثم قالت بابتسامة مشرقة وهي ترفع إصبعها:
- عشان حاجتين: أول حاجة إني باعشق التمثيل.. وهابقى ممثلة متجوزة الفن زي ما بيقولوا.. وأي عيال هييجوا هيعطلوا الموضوع دا..
ورفعت إصبعها الثانية قائلة وقد بدأت إشراقة ابتسامتها في الغروب:
- التاني إني زهقت من فكرة إن الست لازم تخلف.. مش دا قمة نجاحها ولا حقيقتها إنها ست وأم ولازم تدي حياتها لعيالها.. الفكرة دي بتودينا كلنا في داهية..
وأكملت وهي تحرك خصلة شردت لتهبط على عينها:
- تقدر تقول إني عارفة إني أنانية جدًّا.. عاوزة أنجح وأثبت نفسي في كل حاجة غير إني أتجوز وأخلف وأتطفي.. أنا عمري ما هاعمل زي ماما..
أدرك «عيسى» حساسية الأمر عندما ذكرت أمها، فقال بلا مبالاة وهو يعيد نظره إلى اللوح العالي:
- كل البنات بيقولوا كدا، وبعدها بيتجوزوا ويخلفوا ويتخنوا..
قالت «سيرا» ضاحكة:
- يابني أنا برج القوس.. أنا مستحيل أبقى زيهم كلهم.. أمال أنا وانت صحاب ليه؟
لينظر إليها «عيسى» مبتسمًا ابتسامةً حنونًا، سرعان ما انطفأت عندما أتى المدرب قائلًا لكل المتدربين:
- يلَّا يا ولاد.. هنطلع المنطّ دلوقتي..

* * *

لم أستطِع أن أنطق بحرف، نظرتُ إلى «سيرا» فترةً طالت، لكنها تجاهلت نظرتي، قال «مصطفى» بارتباك:
- أنا ماكانش قصدي أقول حاجة ما تعرفهاش.. بس حسيت إن بما إنكم في علاقة فأكيد يعني هي حكت لك عن ابنها..

لا أدري لماذا، لكني أومأتُ برأسي متفهمًا، لم يكن هناك وقت للشرح أننا لسنا في علاقة، لو لم نكن فلماذا قبلنا بعضنا البعض من الأساس؟! كان أمرًا أكثر تعقيدًا من أن يفهمه أو أشرحه، نظرت إلى «مصطفى» قائلًا بابتسامة:

- هي قالتلي طبعًا.. أنا بس الاسم لزق في دماغي إنه «آدم»..

هز رأسه متفهمًا، نظرت إليّ «سيرا» لأول مرة نظرة ممتنة، ابتسمتُ لها وقلت ناظرًا إلى «مصطفى» متجاهلًا الأمر برمته:

- هنعمل إيه برضه؟

قال «مصطفى» بهدوء:

- أنا ماعرفش «سيرا» حاكيالك ولا لأ.. بس هي متعاقدة معايا على الفيلم الجديد اللي بانتجه.. فممكن لو مافيش إمكانيات مادية أديها المبلغ وتدفعوه ويبقى كإنه أجرها على العقد بتاعنا..

عقدت «سيرا» حاجبيها وقالت بجدية:

- بس أنا أجري أكتر بكتير من اللي الراجل طالبه..

قال «مصطفى» بنبرة تاجر ذكَّرتني بخال «أسماء» كثيرًا:

- بس دلوقتي إحنا بننقذ موقف.. كمان انتِ ممثلة مشهورة، ولو الحاجات دي اتسربت الفيلم هيتضرب ويسقط.. فأنا باخاطر قوي إني بعد ما عرفت اللي عرفته لسَّه مكمل معاك..

همت «سيرا» بالرد في حدة، لكني أوقفتها بإشارة من يدي وأنا أقول ناظرًا إلى عينيه:

- الموضوع مش موضوع فلوس.. الموضوع إنك تضمن منين إنه مايطلبش أكتر، أو حتى إننا بعد ما ندفع له ينشر الحاجة كدا كدا؟!

قال «مصطفى» بجدية:

- هو اداني كلمة راجل.. والناس اللي زيه دول أنا باعرف أتعامل معاهم.. دا حقهم اللي انت كلته عليهم وهو مش هامه غير الفلوس.. انت عارف

يعني إيه راجل تاني طلقها؟.. يعني البنت صعب تتجوز تالت، ومصاريفها كلها عليه...

قلت مكملًا ما قاله:

- عشان كدا أول ما الفلوس تخلص هيفضل يحلب فينا تاني..

نظر إليَّ لحظات، فاعتدلت في جلستي وقلت:

- الراجل دا واخد حقوقه كلها.. وماضي على كدا، وبالتراضي.. بس هو طمع..

قال «مصطفى» ناظرًا إليَّ وقد بدأت نبرته الهادئة تتغيَّر قليلًا:

- طيب ممكن نبعت لهم بلطجية، يعدموهم العافية ويصوَّروهم كلهم عريانين..

قلت بحدة:

- وهنفرق إيه عنهم لو عملنا كدا؟

قال وقد بدأ صبره ينفد:

- طب اتجوزوا بسرعة واعلنوا عن الموضوع.. ساعتها أي حد هينشر أي حاجة الناس هتشتمه هو..

تلجلجت قليلًا ونظرت إلى «سيرا»، ضربت كلمة أبي الصارمة صدري، قلت بتوتُّر:

- مش هينفع عشان انتو لسَّه ما أعلنتوش عن طلاقكم أصلًا..

قال بنفس حدتي، لكن بصوت أهدأ قليلًا:

- ما هو أنا مش شايف حضرتك عامل حاجة برضه.. لا انت مبلَّغ عنهم وعاوز تحبسهم.. ولا عاوز بلطجية ولا عاوز تدفع..

وأشار إلى «سيرا» قائلًا بنبرة عصبية:

- ومشكلاتك هتئذي أم ابني في شغلها وفي حياتها كلها.. فممكن أعرف انت ليه بارد كدا؟ ولَّا انت مش فارق معاك أي حد غير نفسك واللي يتفضح يتفضح؟

قلت بنبرة ضعيفة كرهتُ خروجها مني:

- أنا بابا بيتفاوض مع الراجل، وإن شاء اللـه كل حاجة هتتحل..

ليضحك ضحكة ساخرة:

- بابا؟! انت كام سنة يا حبيبي معلش؟

نهضتُ من مقعدي بغضب، لتقول «سيرا» فجأة بصوت عالٍ:

- «مصطفى».. لو سمحت!

نهض «مصطفى» أيضًا ونظر إليها قائلًا بغضب:

- انتِ مغيبة يا ماما؟ الحاجات دي لو طلعت انتِ فاهمة إيه اللي هيحصل؟ مافيش منتج هارضى يعمل فيلم معاكِ غير الناس الرخيصة اللي عاوزة تتاجر بلحمك.. غير إنك مش هتشوفي ابنك تاني.. مش عشان أنا هامنعك.. عشان هو مش هيطيق يبص في وشك..

بدأت عينا «سيرا» تدمعان، شعرت بفوران يجتاح كياني كله، لماذا أشعر بهذا العجز؟ قالت «سيرا» بقوة على الرغم من عينيها الدامعتين:

- «مصطفى».. سيبني أهدا وهاكلمك آخد منك الفلوس..

هل ستقبل تلك الصفقة؟ هل ستدفع النقود كي تحمي نفسها؟ نظرت إليها باستنكار في حين ابتسم «مصطفى» في انتصار، قال مشيرًا إليَّ بالابتسامة نفسها:

- وعامة ريباوند زي ما انتِ عاوزة.. بس انتِ محتاجة حد يعرف ياخد باله منك أكتر من كدا..

وقال ناظرًا إليَّ مباشرة:

- محتاجة راجل..

ضربتني كلمته في صدري، وقفت ناظرًا إليه وأنا أدرك تمامًا أن ما قاله صحيح، لا يوجد رجل بهذا العجز أبدًا..

لكنه الخوف اللعين..

الخوف الذي يضع حاجزًا على صدري يجعلني أقف عاجزًا أمام كل شيء..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢١ - «الشريك يجعلك تؤمن أنه مسؤول منك.. أنه جزء كبير من أي قرار تأخذه.. ويشكك في تلك القرارات دائمًا ويدَّعي أنها آلمته وهزت ثقته بك.. أنك فشلت في تحمل مسؤولية روحه.. فيصيبك خوف رهيب من قراراتك في الحياة.. تشعر بمسؤولية أنك المُلام على كل أوجاعه وآلامه التي جاءت بسببك.. تيأس.. تخاف.. تترك حياتك تسير من دون أن تأخذ قرارًا واحدًا حتى لا تؤذيه.. فيأخذ هو الراية.. ويقرر كل شيء»..

والخطوة التاسعة عشرة في التعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تستعيد راية حياتك وتحكُّمك فيها.. ولا تسمح لأحد أن يقرر لك أي شيء مهما كان بسيطًا..

صاحت «سيرا» بعصبية:

- «مصطفى» لو سمحت!

ابتسم في سخرية وانصرف بخطوات سريعة غاضبة..

* * *

صعد «عيسى الصغير» مع المتدربين ذلك السلم العالي، وقلبه يخفق في خوف..

تعمَّد أن يكون آخر الصف، حتى يقفز آخر واحد فيهم، لكنه أدرك أن هذا يزيد خوفه أكثر..

لم يكُن يخاف المرتفعات، لكن منظر حمام السباحة من أعلى يبدو صغيرًا للغاية، شيء ما من عدم السيطرة في الموقف كله يجعله يرتجف..

وقفز الجميع.. ولم يتبقَّ سواه..

صاح فيه المدرب بحماس أن يقفز، لكنه وقف على طرف اللوح ينظر إلى أسفل ويشعر بجسده كله يرتجف..

شعر أنه يريد أن يبكي..

لم يكُن يخاف من المرتفعات، لكنه يخاف من الإجبار، من أن يجبره أحدٌ على أي شيء مهما كان.. شعر أن أعصابه بدأت تتهاوى.. رأى «سيرا» من بعيد تقف على حافة حمام السباحة وتنظر إليه مشجعة، لكنه شعر بأطرافه مشلولة، قال المدرب بحماس ضاحكًا:

- هتنطّ يا «شواف» ولا أزقك؟

هزت الكلمات «عيسى» أكثر، شعر أنه يريد أن يبكي، لكنه يخاف على مظهره أمام زملائه، بدأ ارتجافه يزيد وشعر أنه يريد أن يتقيأ، ابتسم المدرب في طيبة، ثم تحرك ليدفعه وهو يقول:

- خلاص هازقك، بس ماتزعلش من الكرباج..

ليفعل «عيسى» آخر شيء يتوقعه..

انهار باكيًا وسجد على اللوح العريض، وقال باكيًا:

- عشان خاطري مش عاوز أنط.. وحياة أبوك ما تخليني أنط غصب عني..

انتفض الرجل من الحركة المفاجئة، ربت على كتف «عيسى» بهدوء، لكن «عيسى» تشبث باللوح غير مبالٍ بمنظره، قال المدرب:

- يابني الخوف دا في دماغك انت بس.. صحابك كلهم نطوا وماحصلهمش حاجة..

قال «عيسى» باكيًا:

- أنا عارف إن مش هيحصلي حاجة.. أنا مش خايف.. أنا مش عاوز أنط غصب عني بس.. انت ليه مش فاهمني؟!

قال المدرب بإحباط كي يُنهي ذلك الموقف السخيف:

- خلاص طيب.. انزل..

رفع «عيسى» رأسه بأمل، ثم نهض مسرعًا وهبط السلم بسرعة.. ليسمع تمتمة المدرب الساخطة:

- الله يفضحك، كسفتنا!

ليدرك، عند نزوله، مع نظرات الجميع الساخرة التي تتهمه بالجبن، ما معنى كلمة الشعور بالخزي..

وضع عينيه في الأرض، وابتعد راكضًا..

* * *

ساد صمت تام بعد انصراف «مصطفى».. صمت ثقيل.. لا يقطعه إلا نسمة الهواء الباردة في ليل أبريل..

قالت «سيرا» ناظرة إليَّ بنبرة معتذرة:

- سيبك من اللي قاله.. أنا مش محتاجاك تحميني.. أنا مش عشان ست يبقى كل الناس لازم تنقذني.. أنا وانت عملنا الموضوع دا يا «عيسى» مش انت بس..

نظرت إليها نظرة تائهة، لم أستطِع أن أسمع معظم ما قالته، كنت في عالم آخر تمامًا..

أخرجت سماعات الرأس وأوصلتها في هاتفي، وضعتها في أذنيّ، وقلت وأنا أنظر إلى الهاتف:

- أنا هاقولك حاجة، بس مش عاوزك تردي..

نظرت إليَّ دامعة، لم أنظر إليها وأنا أقول مقاومًا كل ما أشعر به:

- «مصطفى» عنده حق.. المفروض إني أعرف أحل أحسن من كدا..

ثم ابتسمتُ وأنا أقول بحزن طغى على تفاصيلي:

- أنا يمكن بس عشان مش باعرف أتعامل مع الوساخة.. أنا باعرف أشوف أحسن حاجة في كل اللي حواليا.. مابعرفش أصدَّق إن في ناس

وحشة.. يمكن أهلي ماعلّمونيش ازاي آذي.. ازاي أنتقم.. ماحدش في الدنيا علّمني ازاي أبقى قدر عشان أعرف آخد حقي..

ضغطت على زر تشغيل في هاتفي، لأسمع أغنية «Serhat_Hislerim Durmus» في أذني، لم أرغب في أن أسمع ردها.. قلت بصوت عالٍ وبداية الأغنية تدوي في أذني:

ـ بس أوعدك إني هابطل أخاف..

وهمست وقلبي ينقبض:

ـ أوعدك إني مش هابقى عاجز تاني..

نظرت إليَّ نظرة غير فاهمة، لأتحرك أنا بخطوات سريعة ناحية لوح القفز.. وكلمات الأغنية تدوي في أذني..

* * *

My soul is reborn,

But everything seems to be lost/ gone,

So deep.. my feelings..

* * *

رآني «آن» و«ياسين»، لمحتهما بطرف عيني وهما يتحركان ناحية الكاميرا، في حين لم أعبأ وأنا أركض صاعدًا السلم الطويل.. تتصاعد دقات قلبي وكلمات «مصطفى» تخترق رأسي كسهم يصر أن يسحق ما تبقى من كرامتي..

ما هذا الذي أصبحته؟

من هذا الشخص؟

* * *

My shoulder heavy with burdens,

But I was not giving up,

It's not over, it's not over, I'm not finished..

* * *

صعدت أعلى اللوح.. مشيت عليه بهدوء ونظرت إلى أسفل..

يبدو حمام السباحة أصغر بكثير الآن..

أم أنني من كبرت فضاقت في عيني كل الموجودات؟

نسمة باردة جعلت أوصالي ترتجف، شعرت بدوخة خفيفة من هذا الارتفاع، أعلم أن الأمر سهل على معظم الناس، لكنه لم يكُن سهلًا عليَّ أبدًا..

تأملتُ كل شيء من أعلى.. تأملت بشرًا خائفين من كل تفاصيل حياتهم.. يقفون على الحافة ولا يستطيعون القفز أبدًا.. قد ينهارون مثلي لمن يعطيهم جزءًا بسيطًا من الأمان.. حتى لو بكوا.. حتى لو ركعوا.. لن يبالوا.. ما دام إحساسهم المؤقت بالخوف البشع سيزول.. يدورون في فلك دائم من الابتعاد عن ذواتهم..

رأيت فيهم أكثر ما أكرهه الآن..

رأيت فيهم نفسي..

نظرت إلى «سيرا» التي وقفت على حافة حمام السباحة تنظر إليَّ هذه المرة بخوف، شعرت بالدموع تغمر عينيَّ.. شعرت بغضب يجتاح كياني من كل شيء يُشعرني بالعجز.. من «أسماء».. من خالها.. من أبي وأمي.. من «عيسى الصغير» الذي يجعلني أواجه كل هذا.. من الخوف الدائم الذي لا نهاية له..

كرهت كل شيء.. لم أستطع أن أتحمل أكثر من هذا..

فصرخت..

تأوهتُ بصرخةِ ألمٍ بأعلى صوتي ليدوي صداها عاليًا في المكان كله..

صرخة طويلة، حائرة، انطلقت في السماء، عسى أن تجد ردًا يحنو على قلب أهلكه الألم..

ولم تجد..

انتهت صرختي، لأشعر بثقل غريب ينزاح عن كاهلي.. فنظرت إلى الأسفل، عدت ثلاث خطوات للخلف..

أغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير يخرج حرًا لا يقيده شيء..

* * *

I am not special or something like that,

But when you were here I was always felt like this,

I felt that way..

* * *

الخطوة العشرون لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: اقفز.. قفزة إيمان كامل أنك لن تقع.. لن يصيبك مكروه.. قفزة حرية تُفيقك من كل ما فات.. وتُحضِّرك لكل ما هو آتٍ..

ركضتُ بسرعة وقفزت..

رافضًا كل شيء حولي قفزت..

تاركًا كل ألم شعرت به في حياتي خلفي قفزت..

وللحظة شعرت بحرية لم أشعر بها منذ سنين طويلة..

منذ أن وُلدت..

أنا لم أعُد خائفًا..

ارتطم الماء البارد بظهري، وشعرت بألم بشع في ظهري وقدمي وأنا

أغوص في الماء أكثر.. تركتُ نفسي تمامًا حتى رفعني الماء.. أغمضتُ عينيّ والماء يغسل كل بَلادتي ولا مبالاتي ومذلتي وهواني..

سأحيا..

وعلى الرغم من الألم الذي ضرب جسدي بسبب الهبوط الخاطئ في الماء..

فإني ابتسمت لأول مرة ابتسامة صافية..

حرة..

* * *

(١٦)

الأمر السابع

حقرا وفوق كوكب حقير محتقر
في الكون تكون دنياكو إيه يا بقر؟
رملاية من صحرا؟ لكن إيش تقول
والكون بحاله جوّه عقل البشر
عجبي!

صلاح جاهين

أخذت من النادي منديلًا كتذكار لي أنني انتصرت على خوفي، حمدتُ الله أن هاتفي المحمول كان ضد الماء وأنني لن أضطر لشراء هاتف ثالث، لكن بالطبع سماعات الأذن فسدت تمامًا..

عُدنا بعد قفزتي إلى فيلا «سيرا» بروح صافية، لأقول لـ«سيرا» إنني أريد أن أعرف الأمر السابع على الفور، لتبتسم في هدوء وتعطيني الفلاشة الخاصة بالأمر السابع، قالت «سيرا» بابتسامة هادئة:

ـ مابقاش فيه الفيديو التاني بتاع «عيسى» اللي حقق حلمه.. كل اللي جاي فيديو واحد..

ونظرت إليَّ نظرة ذات معنى وقالت بحنان:

ـ عشان خلاص انتو بقيتوا واحد..

ابتسمت في تأثُّر، وضغطت على زر تحميل الفيديو، وبطرف عيني تأملت «ياسين» و«آن»، «آن» أصبحت صامتة في الفترة الأخيرة.. لا بُدَّ أن أتذكر أن أسألها ما بها..

ليبدأ الفيديو ويسأل «عيسى الصغير» بحماس:

ـ قولّي إنك نطيت!

أومأتُ برأسي أن نعم بابتسامة حرة، وأنا ما زلت أرتجف من التجربة ومن برودة الماء، على الرغم من تبديلي ملابسي، لكني أشعر بالبرودة في عظامي..

صفَّق بيديه في ثقة أدهشتني، ورقص رقصة انتصار وهو يصيح:

ـ أيوه كدا..

كيف عرف أنني سأقفز؟ لو كنت تراجعت ولم أقفز كان سيبدو كلامه خاطئًا تمامًا عند عرض الفيلم، كيف كان يملك تلك الحماسة والثقة بأنني سأقفز؟

لأدرك غباء ما فكرت فيه..

أنا هو..

هذا المراهق كان يثق بنفسه..

بل كان يراهن بكل شيء لديه على بعض الصفات التي لن تتركه مهما كبر..

قال «عيسى الصغير»، وهو ينظر من خلال الكاميرا، كأنه ينظر حولي أنا:

ـ مين معاك دلوقتي؟

ابتسمت لذكائه وتصميمه على خلق تلك الحالة من التواصل بيننا، قلت بصوت عالٍ:

ـ «سيرا» و«آن» و«ياسين»..

قال ملوحًا بيده في بلاهة تمثيلية:

ـ ازيكم كلكم..

ثم غيَّر أسلوبه وقال ممازحًا:

ـ وازيك يا بت يا «سيرا».. لسَّه مسح ولا عملتي عملية تجميل زي ما وعدتيني؟

اتسعت عينا «سيرا» في دهشة، وقالت ضاحكةً بخجل:

ـ اخرس يا حيوان..

ثم أدركت ما فعلته والتفتت إلينا قائلة:

ـ أنا باردُّ عليه ليه؟

وضربتني في كتفي قائلة:

ـ انت اللي حيوان عشان تسجل حاجة زي كدا..

ابتسمتُ وأنا مرتاح لتلك الحالة التي خلقها «عيسى الصغير»، لم يكُن يعرف من معي لكنه كان متأكدًا أن «سيرا» ستكون موجودة فمازحها ليجعل

الأمر أكثر واقعية.. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى «سيرا» مشيرًا برأسي إلى «عيسى الصغير» وأقول بحنان:

ـ كان عارف إنك هتفضلي موجودة جنبي ومش هتيأسي..

ابتسمَتْ ابتسامة حانية وضربتني في كتفي ثانية، تخيلتُ بعد ما حدث أن هناك حاجزًا سيوضع بيني وبينها، ذلك الإحساس بالعجز والتقصير تجاهها سيجعل «سيرا» تبتعد، لكن نظرتها إليَّ الآن جعلتني أدرك أنها لن تذهب أبدًا..

وقف «عيسى الصغير» لحظاتٍ عن الكلام، ارتسمت الجدية على وجهه قليلًا وهو يقول:

ـ إحنا دخلنا في الجد.. معنى إن حواليك صحابك دلوقتي بيتفرجوا عليا، يبقى انت بتثق فيهم قوي..

نظرت إليه لحظة، ثم انقبض قلبي وأنا أتذكَّر هذا الفيديو بالذات..

ولأول مرة منذ أن بدأت رحلتي معه، أتذكر المشهد بعين «عيسى الصغير»، أراني وأنا أقف أمام الكاميرا في غرفتي القديمة أنظر إلى الكاميرا القديمة، الغرفة التي أصبحت قاسية، مؤلمة بالنسبة لي وقتها..

لذلك كان «عيسى الصغير» مرحًا ويمازح «سيرا»، كان قد بدأ أن يتحوَّل إليَّ ويسخر قليلًا حتى ينسى ما به..

بدأت شفتاي تتحركان معه، وهو واقف في الشاشة ينظر إلينا قائلًا بابتسامة حزينة:

ـ عمك «جاهين» قال: «حقرا وفوق كوكب حقير محتقر.. في الكون تكون دنياكو إيه يا بقر؟».. الرباعية دي كانت قاسية قوي ويمكن ماحدش يصدق إن «جاهين» قايلها.. بس أنا أكتر واحد فاهمه.. يمكن أكتر واحد حاسس إنه شبهي في الدنيا دي..

ثم تهدَّج صوته قليلًا مع آخر الجملة، كان يقاوم البكاء، أتذكَّر الآن، ربما لأن تلك الذكرى بقي ألمها معي حتى الآن..

كنت أومن أنني أنا و«صلاح جاهين» مستنسخان، في فترة حمقاء ظننتُ أنه عندما مات في الحادي والعشرين من أبريل، وميلادي أنا في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، أن روحه تسللت إليَّ نوعًا ما.. شاهدت لقاءً للفنان «شريف منير» وهو يحكي عن «صلاح جاهين» الذي تنبأ له أنه سيمثل، حكى «شريف» أن «صلاح جاهين» استضافه يومًا وقال له ستصبح ممثلًا عظيمًا، ليرد عليه «شريف» ويقول إنه يرغب أن يكون موسيقيًّا، لكن «صلاح جاهين» كان يمسك قلمه الرصاص ونظر إليه قائلًا:

ـ أنا باشوف النجوم قبل ما تنور..

مرت تلك الجملة على الجميع لكنها لم تمر عليَّ بسهولة؛ لأنها لمستني.. بحثت وراءها لأكتشف أنه كان يستضيف أصدقاءه في البيت دائمًا ويسعى دائمًا إلى اكتشاف المواهب، اكتشف الشاعر «سيد حجاب» و«عبد الرحمن الأبنودي» وعظماء كثيرين..

تلك الجملة جعلتني أشعر أن هناك مَن يفهم ما أراه في كل مَن حولي.. أنا أرى ضياءهم.. أرى ما يستطيعون أن يكونوا لا ما هم عليه.. أنا من قلت لـ«سيرا» وهي صغيرة إنها ممثلة حساسة وبارعة.. أنا من رأيت في «آن» كاتبة صحفية يعشق قلمها الكثير الآن.. قلت لـ«جمال» إنه ممثل بارع.. لكن الأخير لم يصدق وبقي في دائرته..

وأنا من رأيت في «أسماء» عبقرية لم يرَها غيري.. بداية الخلاف بيني وبين أهلي هي تلك الأحكام المستمرة عليها لأنهم يرون حقيقة ما هي عليه.. وكنت أريدهم أن يروا نورها الذي أراه وسأجعله يسطع في وجوههم..

لكني أحرقت نفسي حتى أُنير ظلامها ولو قليلًا..

ليبتلعني ظلامُها بدلًا من أن أنيره..

قال «عيسى الصغير» منتزعًا إياي من أفكاري، بالصوت المتهدج نفسه:

ـ أنا مريض مرض مزمن، اسمه «MS»..

نظروا إليَّ جميعًا في قلق، شهقت «آن» شهقة خافتة، في حين نظرت إليَّ

«سيرا» بعينين خائفتين متسعتين..

تلك النظرة التي هي سبب كتماني تلك القصة اللعين..

قصة مرض لا شفاء منه..

الـ«MS»، أو «التصلب اللويحي»، هو مرض مناعي، عندما حاول الطبيب أن يجعلني أفهم ما هو، أمسك سلك سماعة جهاز الـ«MP٣» - جهاز قديم كنا نسمع عليه الموسيقى لعدم وجود تلك الخاصية في الهواتف المحمولة - وقال لي إن أعصابنا مثل سلك تلك السماعات، هذا المرض يأكل الغلاف الخارجي للأعصاب، فيؤثر على كل شيء في أعصاب الإنسان: تناسق الحركة، والبصر، والسمع.. والأهم من كل هذا:

الذاكرة..

كل ما يتعلق بالأعصاب في العموم..

ولعنة ذلك المرض أنه في حالات كثيرة طويل الأمد..

يعيش داخلك ويأتيك في شكل أعراض بسيطة.. ثم يهجم مرة واحدة.. مرة واحدة فقط.. ثم تختلف الحالات هنا.. حالات يؤثر عليها المرض بشكل قوي حتى العجز التام، وحالات أخرى - مثلي - لا تظهر الهجمات إلا على فترات متباعدة تصل إلى سنين طويلة..

كنت في الثامنة عشرة، عندما استيقظتُ من النوم لأغسل وجهي ولا أشعر بالماء البارد على نصف وجهي الأيسر كله، لمسته بيدي واكتشفتُ أنني لا أشعر بشيء.. قلت لأبي ليفزع ويذهب بي إلى المستشفى ظنًّا منه أنها جلطة.. لكن الطبيب أوصى برنين مغناطيسي على الرأس.. لتظهر نتيجة التحاليل..

ساد وقتها جو عام من الكآبة.. المرض بالفعل لا شفاء منه.. لكن هناك كثيرًا من أنواع الأدوية لتأجيل تأثيره وتخفيفه.. العلاج الطبيعي والرياضة - لذلك أجبروني على السباحة - والأدوية ستجعل كل شيء أقل ألمًا.. ظللت آخذها فترة طويلة ثم يئست في وقتٍ ما فتركتها كلها..

كيف لطفل مراهق، يحلم أن يصبح مخرجًا، أن يجد أي نوع من أنواع الأمل

وهو يدرك أنه مصاب بمرض يؤثر على حركته وذاكرته وعينيه وسمعه؟!

لكني ابتسمت..

بكلمات «عيسى الصغير» هناك ثقل على روحي تمت إزالته..

الآن يعرفون..

قال «عيسى الصغير»، وأنا الوحيد فيهم الذي أرى في عينيه دموعًا كتمتُها وأنا أصوِّر نفسي وقتها:

- المرض دا لعين.. قفل كل حاجة باحلم بيها.. لحد ما عم «غريب» قالي جملة واحدة.. قال لي: «يا (عيسى) انت محظوظ.. انت عارف كويس دنيتك هتخلص على إيه.. لكن السؤال بقى: هتفضل تعيَّط كتير؟ ولا تحلف بينك وبين نفسك إنك يوم ما هتمشي هتمشي وانت سايب حاجة بتقول للناس كلها إن كان فيه واحد اسمه (عيسى).. أجبر الناس كلها تشوف الدنيا بعينه؟»..

سرت قشعريرة في جسدي مع وقع الكلمة، ليبتسم «عيسى الصغير» مكملًا:

- واللي باعمله معاك دلوقتي يا «عيسى» هو الحاجة الوحيدة اللي هتخلي الناس كلها تشوف الدنيا بعيني.. هتخليهم يفهموا همّ بيعملوا إيه في نفسهم.. فيلم تسجيلي حقيقي فيه حوار بيني وبينك وبين كل الناس وماضيها.. لو انت في أي وقت ماقدرتش تكمل.. افتكر إنك بتعمل دا عشاني أنا.. مش عشانك انت.. عشان نشوف مين فينا اللي صح..

وابتسم بصدق وهو يكمل:

- إحنا.. ولا انتم؟

وصمت فترة طويلة، سرى في جسدي حماس غريب، في حين قال هو مستعيدًا شخصية لعبة البحث عن كنز:

- الأمر المرة دي صعب قوي.. زي ما أنا اعترفتلك واعترفت لكل اللي معاك بمرضي.. انت هتعترف لكل اللي حواليك بكل حاجة جواك.. مافيش حاجة هتسيبها غير وتعترف بيها.. لو بتكره حد هتقوله.. لو بتحب

واحدة وهي لسَّه ماتعرفش هتقولها.. لو عملت بلاوي الدنيا والآخرة.. هتعترف بيها..

وحرّك يديه في حركة استعراضية قائلًا:

- و«سيرا» هتدِّيك الجواب لما تشوفك بتعترف للناس كلها..

وتألقت عيناه كعادته وهو يقلد «عرفة الشواف»:

- وأقول يمكن لو فتحت عينيا أشوف غير اللي انتو شايفينه أو متأكدين منه..

ومال على الكاميرا وقال مكملًا تقليده:

- أقولَّك على سر وماتضحكيش عليا؟

كان في ذلك المشهد «عرفة الشواف» يحدِّث «نظيرة» ويخبرها بتلك الجملة، ابتسمتُ أنا وأنا أعرف ما سيقوله، ليقول هو بابتسامة غلفها شجن غريب مخالفًا توقعاتي:

- إحنا بنخاف من الضلمة يا «عيسى»..

لم أكُن أعرف أنه سيغيِّر الجملة ليجمعنا فيها، لوَّح بيده بابتسامة واسعة قائلًا كعادته:

- سلام يا مستقبلي الاسود..

لتظلم الشاشة تمامًا..

* * *

وقفتُ في منتصف الصالة، رمقتُ الكاميرا بجانبي، وأمر «عيسى» يدوي في صدري..

هل يريدني حقًّا أن أعترف بكل شيء؟

عندما نكبر ندرك أن أسرارنا لا تخص أحدًا، أن أخطاءنا ونواقصنا ملكنا نحن فقط، ليس من حق أي شخص أن يعرف أدق أسرارك وأن

يراك بنواقصك.. كي تحافظ على مظهرك وكمالك في أعينهم..

الحياة تُعلمنا أيضًا أن تلك النواقص قد تجعلهم يبتعدون أو يستخدمونها ضدنا فيما بعدُ..

إذًا، فسبب تلك القاعدة هو الخوف أيضًا!

الخوف على المظهر وسوء الاستخدام!

كانت هناك حالة من الصمت، كلهم ينظرون إليّ، أتخيل ارتباكهم عند معرفة المرض، أتخيل أنهم لا يعرفون ما الذي يقولونه، التفتُّ إليهم أنظر إلى أعينهم.. ليحدث ما لم أصدقه..

لقد رأيت أرواحهم..

كعادتي القديمة..

رأيتهم جميعًا مراهقين، تحوّلوا داخل عيني إلى أطفال في الثامنة عشرة، ينظرون إليّ في حيرة.. رأيت «آن» في عيني تبكي بحزن حقيقي، رأيت «ياسين» حائرًا لا يعرف كيف يتصرف، لكنه يريد أن يربت على كتفي، ورأيت «سيرا» تحتويني بنظرة بريئة لم أرَ أجمل منها في حياتي..

كلهم يحبونني حبًا صافيًا ويخافون عليّ لدرجة لم أصدقها..

أرواحهم نقية..

جلستُ على الكنبة الوثيرة، داخلي أشعر أن هناك روحًا من الإصرار تجتاح كياني..

الخطوة الحادية والعشرون للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: لا يوجد في الحياة ما هو أكثر شجاعة من أن تعترف بكل ما بداخلك.. قُل ما في قلبك.. تكلم.. صمتَّ كثيرًا بضغط من الشريك.. هناك من يحبونك بصدق ويريدون سماعك.. يريدون أن تتواصل معهم كي يعرفوا كيف يساعدونك؛ لذا تكلم وقل أسوأ ما في قلبك لهم.. خفف من الحمل ودعهم يسمعوا لأول مرة كل ما تحملته من ألم..

قلت وأنا أثبت نظرتي على الأرض، أعلم أنهم يسمعونني، أعلم أن الكاميرا تسجل كل ما سأقول:

- أنا أوسخ واحد في الدنيا..

لم أسمع ردًا ولم أتوقع واحدًا، قلت وعيناي ثابتتان على تفاصيل السجادة المفروشة:

- لمّا الواحد بيعرف إنه فيه حاجة غلط بيتغيَّر.. الحاجة دي بقى بتبقى دماغه أو مرضه أو حتى شهوته.. مش مهم.. المهم إنها بتغيره..

قالت «آن» بقوة، وبصوت يحاول أن يبدو حياديًا:

- انت مش لازم تقول حاجة انت مش عاوزها..

ابتسمت في لا مبالاة، لم يعُد هناك ما أخاف أن أخسره، لا يوجد ما هو أسوأ من أن تخسر احترامك لنفسك.. وأنا خسرته منذ زمن بعيد..

قلتُ مبتسمًا:

- أنا أناني جدًا.. متدلع جدًا ومش باعرف أشيل مسؤولية.. دماغي بتشت في كل حاجة باحلم بيها.. مابعرفش أفهم غير اللي في دماغي واللي أنا عاوزه.. حتى معرفتي بيكم ومساعدتي ليكم دايمًا، عشان بس أحس إني عملت حاجة حلوة في الدنيا.. مش عشانكم زي ما انتم متخيلين..

وابتسمتُ ساخرًا وأنا أكمل:

- ولحد دلوقتي مش عارف مين فينا اللي وجع التاني أكتر.. أنا ولا «أسماء»..

نظروا إليَّ مستنكرين، فأكملت ما كرهتُ الاعتراف به طول الوقت السابق:

- حاسس إني عاوز أكلم «أسماء».. حاسس إني مديون لها بتفسير.. هي موجوعة عشان حاجات في دماغي ماتعرفهاش.. أنا بقيت في أرض وهي في أرض تانية خالص.. من حقها تعرف اللي جوايا وإيه اللي خلى كل دا يحصل..

ساد صمتٌ ثقيل، تجاهلتُ أفكاري ونظرت إلى «آن»، التي دمعت عيناها، نظرة طويلة، عيناها حزينتان تعترفان أن ما قلته يدور بداخلها، ابتسمتُ وقلت:

- انت الصاحبة اللي كنت باحلم بيها طول عمري.. أنا عمري ما آمنت بالصداقة بين الولاد وبعضها.. وبين الستات وبعضها.. باحس إن الصداقة الصح هي اللي بين ولد وبنت.. ومايكونش فيها غير الصراحة والحب الصافي اللي مالوش دعوة بالتحكم.. الضهر اللي يفضل موجود حتى لو انت عريان وفيك كل العبر.. مايمشيش.. ويقبلك زي ما انت..

وابتسمت مكملًا بسخريتي الدفاعية:

- حتى لو فيه «benefits» مش مشكلة، بس مايبقاش أكتر من كدا..

ضحكوا ضحكة خافتة، كعادتنا رفعت «آن» لي إصبعها الوسطى؛ لأني أفسدت اللحظة بمزاحي، أخذت نفسًا عميقًا، نظرت إليها نظرة طويلة..

* * *

أعرف «آن» منذ عشرة أعوام، عندما أتت إلى البنك يومًا، فتاة في العشرين من العمر دامعة العينين وبأنف أحمر من البكاء، كنت موظف شباك في البنك، الوظيفة التي حافظت على وجودي فيها طول تلك الأعوام، حتى استقلتُ..

جاءت في حالة يُرثى لها، ترتدي ملابس سوداء، تقول لي بنبرة تائهة:

- همّ بيعملوا إيه عشان يفتحوا حساب في البنك بعد إذنك؟

شعرت أنني أعرفها، شيء ما بداخلي جعلني أقول مباشرة وأنا أنظر إليها من خلف الشباك الزجاجي:

- ما لك؟

نظرت إليّ نظرة متفاجئة، لم تتوقّع هذا السؤال، حاولت أن تبتسم وهي تزيح خصلة من شعرها القصير، وتقول في لهجة تمثيلية لم تقنعني:

- لا مافيش حاجة..

ثم بلهجة رسمية كي توقفني عند حدي:

- حضرتك أنا عاوزة أفتح حساب في البنك..

هناك اعتقاد مسبق لدى معظم النساء أن أي شخص يحاول الاقتراب هو متحرش إن لم يثبت العكس؛ لذا أخبرني عقلي أن أصمت ولا أتدخل، لكني قلت بإصرار:

- مش هافتح حساب غير لما أعرف ما لك..

بدا لي أن ما أفعله حماقة، شخص غيرها كان سيصرخ في أن ألزم حدودي، قد تذهب لتخاطب مديري، لكن ذلك الإحساس الطاغي بتآلف الأرواح جعلني أراهن على ما أشعر به..

وكان رهاني رابحًا..

ربحتُ عشرة أعوام بصحبة أفضل صديقة في العالم..

نظرت إليَّ «آن» نظرة حائرة، شيء ما جعلها تثق بي، وتضع حوائط أمانها جانبًا، وتقول بعينين باكيتين:

- بابا اتوفى من ٣ شهور لما عرف إن أمي بتخونه.. أمي اتجوزت الراجل اللي خانته معاه.. وأنا سبت القرف دا كله.. وباحاول أعيش بعيد عن الناس دي كلها..

نظرتُ إليها لحظات طويلة، تركتُ مقعدي وخرجت لها في الناحية الأخرى، قلت مبتسمًا وأنا أقف أمامها:

- الموضوع دا محتاج يتسمع بروافة عن كدا..

* * *

تعلقت نظرتي بـ«آن» التي ابتسمت وهي تنظر إليَّ، كأنها تتذكَّر معي وقت لقائنا، بدأتُ أرتاح أكثر وقلت مكملًا اعترافي:

- انتِ ماحدش هيفهمك.. كارهة اللي حصلك وكارهة الجواز، بس بتعشقي الحب.. عشان كدا بتحبي اللي قصته ماهاش نهاية حلوة.. بتخافي تقربي من حد عشان شفتي أسوأ صفة في أقرب حد ليك: أمك.. والواحد فينا لما حد من الكبار بيخون ثقته مايعرفش يثق في حد تاني

ثم ابتسمتُ مكملاً:

- يمكن عشان كدا ارتحتِلي وفضلتي في ضهري.. عشان عارفة..

قاطعتني مكملةً بحنان:

- عشان عارفة إنك فيك كل العبر.. بس عمرك ما هتمشي..

نظرت إليها نظرة ممتنة، قلت وأنا أعلم أن القادم من كلامي سيؤلمها:

- بس كفاية وجع.. إنك تحبي وتحرقي قلبك على ناس عارفة إنهم هيمشوا دا بيحرق جواكِ كتير.. بيخليكِ بتخسري حاجات كتير جواكِ وانتِ مش عارفة.. كفاية وجع في نفسك عشان انتِ قلبك أحن من إنه يفضل موجوع طول الوقت كدا..

ابتسمت «آن» وتركت دمعة عينها تفلت، نظرَت إلى «ياسين» نظرة حانية، و«ياسين» ينظر إليها نظرة حائرة، قلت فجأة بابتسامة حنون كأب يسلِّم ابنته للزواج:

- وعلى فكرة «ياسين» بيحبك.. بس مستني الوقت اللي تبقي مستعدة فيه عشان يقولك..

انتفض «ياسين» واتسعت عيناه في اعتراف بليغ أن ما قلته صحيح، نظرت «آن» إليَّ في ارتباك والتفتت إلى «ياسين» في دهشة، التفتُّ أنا إلى «سيرا» وقلت:

- أنا لسَّه ما اعرفش عنك حاجة.. أنا عارف «سيرا» القديمة بس.. ودي من الحاجات الغلط اللي فيا.. انتِ عارفة كل حاجة عني وفي ضهري.. بس أنا بتفاجئ كل يوم بتفصيلة جديدة.. وعاوزك تقوليلي كل حاجة مهما كانت..

وأكملتُ بقوة:

- عشان كلنا جوانا قرف.. وأنا نفسي أخلق الدنيا ال[illegible] الناس [illegible]تقبل بعضها فيها من غير أحكام.. من غير استغلال وخوف.. إننا نعرف نلاقي الناس والمكان اللي نبقى فيه إحنا بكل قرفنا من غير ما [illegible]

أومأت «سيرا» برأسها في موافقة، وقالت بنبرة هادئة:

ـ وعد هاقولك كل حاجة..

لأبتسم أنا في اطمئنان، أشعر أن جزءًا ثقيلًا عن كاهلي قد انزاح..

ما زال أمامي كثير من الاعترافات..

لا بد أن أنتهي من كل ما بداخلي للأبد..

أمسكتُ هاتفي المحمول، نظرت إليه لحظات، كتبت: «عاوز أكلمك ضروري»، وبعثت الرسالة إلى آخر شخص توقعت أن أراسله في هذا الوقت..

إلى «أسماء»..

طليقتي..

* * *

(١٧)

وثامن الكنوز

غمض عينيك وارقص بخفة ودلع
الدنيا هي الشابة وانت الجدع
تشوف رشاقة خطوتك تعبدك..
لكن انت لو بصيت لرجليك.. تقع
وعجبي!

صلاح جاهين

- «(عيسى).. بقي خطابان.. وأمران.. وتنتهي الرحلة..

اقترب كل شيء من النهاية..

هل حدث أي فارق في حياتك؟ هل تحارب معي أم أنك تستسلم الآن.. مثلي تمامًا؟

لقد مللت يا (عيسى) من تلك اللعبة التي نلعبها..

أشعر أن الفكرة ساحرة، لكني لن أرى نتيجتها الآن.. ذلك الشغف بدأ يخبو؛ لأنني أريد أن أقفز في الزمن وأصبح في سنك حتى أنفذ الفيلم.. لا أريد أن أعيش كل تلك الفترة منتظرًا..

ثمانية عشر عامًا إضافية قد يحدث فيها كثير..

هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ هل سميت أولادك كما كنا نحلم؟ «رفعت» على اسم «رفعت إسماعيل»، أم «سارة» لأننا نعشق هذا الاسم، أم صدقت توقعات الأطباء ولم تستطِع أن تُنجب؟

أنا متعب يا (عيسى).. أثر المرض في أطرافنا، فلم أعُد أعرف أن أرقص بتناسق إلا ويصيبني ارتعاش خفيف في قدمي أو يدي.. بدأت أشعر بالتعب المرهق والمستمر.. ولا أعرف إذا كان مشروع مثل هذا سينجح أم لا، وهو يعتمد على الزمن..

الشيء الوحيد الذي لا أملكه..

لا أعرف هل سأستمر فيما أفعل الآن أم لا..

اللغز ستعرف حله بسهولة.. يتعلق بما حدث منذ أسبوعين فقط.. وأصابني بإحباط شديد..

قال عمك (جاهين): (تشوف رشاقة خطوتك تعبدك.. لكن انت لو بصيت لرجليك تقع)..

وأنا أقع يا (عيسى)؛ لأنني لا أستطيع إلا أن أنظر إلى قدميَّ العاجزتين عن مقاومة المستقبل المحتوم..

وفي نهاية اللغز السابع والكنز الثامن أقول: هذا اختبار لـ(عيسى الكبير) داخلك،

إذْمَا يثق.. يجدني.»..

* * *

قرأت الخطاب القصير، كنا في اليوم التالي، ولم ترد «أسماء» على الرسالة، لكني استيقظتُ مُصرًّا على أن أصل إليها.. قرأت الخطاب الذي سلَّمتني إياه «سيرا» أمام الكاميرا، وعُدت بإحساسي إلى كل ذلك الألم الذي كتب به «عيسى الصغير» خطابه..

لم يظهر شيء من ألمه فيما كتبه، لكني كنت أعرف معنى ذلك الحبر السائح في بعض الكلمات المكتوبة..

كان يبكي..

التفتُّ لـ«سيرا» التي كانت تعرف الإجابة وقلت:

- قصده «بيت التانجو»..

ابتسمَتْ في موافقة أن الإجابة صحيحة، قلتُ محذرًا:

- مفتوح ولا هنضرب المشوار على الفاضي؟

ضحكت وقالت مبتسمة:

- لأ مفتوح، ماتقلقش..

ضرب جرس هاتفي فشعرت بثقل غريب على صدري، رأيت اسم أبي على الهاتف، نظرت إلى «سيرا» ونظرت إليَّ، كنا قد نسيناه أو تناسينا، كل

ما يحدث هناك، في العالم القذر البعيد عن «عيسى» ورسائله.. العالم الذي كبرنا بأعين بريئة نرغب أن نعطيه أفضل ما فينا، ليرينا أبشع ما فيه..

والمثير للسخرية أن أبشع ما فيه هو نحن..

كل من وطئت قدمه الأرض ويمتلك عقلًا..

كل الكائنات الأخرى تعيش في تناغُم، منظومة كاملة من الكائنات تتعايش بقوانين الغابة، وحوش وضحايا، الوحوش تتعلم منذ نشأتها أن تقتل، والضحايا تتعلم أن تنجو.. قواعد بسيطة مباشرة عبقرية..

حتى أتى الإنسان ليمتلك العقل، الذي جعله يعرف كيف «يخدع»..

وحش يقتل كل شيء أمامه في ثوب ضحية بائسة، وضحية تحاول أن تنجو وتجد قطيعًا تنتمي إليه كي تستكين، فتكتشف أنها وسط أقذر الوحوش المتنكرين..

وضعتُ هاتفي على أذني، قلت بصوت هادئ:

- ألو..

أجابني صوته الهادئ، الذي لا يُظهر غضبه ولا حزنه من جرَّاء عصياني إياه، صوت عملي واقعي هادئ:

- إحنا بنتفاوض مع خالها.. المحامي بتاعنا عرف الهاكينج حصل منين..

انعقد حاجباي من كل تلك التطورات، ليكمل أبي بصوت أكثر هدوءًا:

- وكده معانا خيط نمشي وراه ونعرف مين سرق حساباتك..

زفرتُ ولم أعرف ماذا أقول، صمتَ هو تمامًا، قلت السؤال الذي تأخر وقد بدأت قدمي ترتجف قليلًا من توتري:

- حضرتك زعلان مني؟

لأسمع صوته الهادئ الحيادي، ذلك الصوت الذي يتحكم فيه عندما يكون منفعلًا، الهدوء الذي يسبق العاصفة:

- أنا مابزعلش يا «عيسى».. انت كبرت.. كل واحد حر يختار طريقه..

وأكمل بهدوء به لمحة سخرية:

- انت راجل كبير وعندك ٣٦ سنة.. عارف الصح فين والغلط فين يابني..

صمت وأنا في عقلي سؤال واحد فقط، هل أنفذ وصية «عيسى» وأعترف بكل شيء له الآن أم أنتظر قليلًا؟ قال هو مقاطعًا أفكاري:

- وأنا أبوك.. هافضل في ضهرك لحد ما أقابل ربنا..

كلمته لمست وترًا بداخلي، نظرت إلى «سيرا» التي تنظر إليَّ بقلق..

أغمضت عيني، ثم قلت فجأة:

- ممكن أقول لحضرتك حاجة بس ماتقاطعنيش؟

لم أسمع ردًا، لكني قلت من دون أن أفكِّر معترفًا بكل ما يثقلني:

- انت أب عظيم.. يمكن أصعب حاجة عملتها إنك خليت المعيار كبير قوي.. خليت صعب قوي إن الواحد يبقى زيك.. ماشي الحياة كلها بالمسطرة..

وبدأت ألوِّح بيدي شارحًا على الرغم من أنه لا يراني:

- كأنك عندك في الحياة شوية مربعات عمال بتعمل عليها صح.. كنت ابن مثالي وفعلًا من أوائل المدرسة.. صفات الأب المثالي.. صح.. الزوج المثالي.. صح.. المدير المثالي.. صح.. كل حاجة صح.. طبعًا فيه حاجات بتفلت بس ماحدش بيعرف يمسك عليك حاجة كبيرة..

وقلت بانفعال:

- ودي حاجة ماباعرفش أصدَّقها.. كلنا فينا عيوب.. وأعتقد إنك أكتر واحد بيعرف يخبِّي عيوبه.. عامل على المربع دا صح هو كمان.. ودا مخليني عارف إني على قد ما بحبك وبعشقك.. إلا إني لما بشوف الدنيا بعينك باحسّ إن الدنيا وحشة قوي.. بالاقيها عبارة عن مربعات.. بتقيم كل اللي حواليك بمربعاتك انت.. كل حاجة حواليك ليها نظام تقييم ودرجة من صح وغلط.. البني آدم اللي قدامك بيتقيم بكام صح هو عملها وكام غلط..

وأكملت بنبرة أهدأ:

ـ بتتقبّل الناس كلها وبتعاملهم حلو جدًّا.. وبتقبلهم بعيوبهم.. بس الحياة كلها بالنسبة لك علامة صح في خريطة المثالية.. ودا بيبقى صعب عليا قوي إني أفهمه أو أعيشه.. أنا باشوف الدنيا والناس إنهم كلهم غلطات بس فيهم حاجة واحدة صح تخليني أقدر أحبهم.. أقدر أحارب عشانها.. ماباعرفش أبقى قاضي وأقول على حد كويس ولا وحش.. باحس إنه مش من حقي إني أحكم على حد أصلًا..

وشعرت بانفعال يسري في أوصالي كلها..

ـ قول يابني فيه إيه؟

فتحت عينيَّ..

لأدرك أنني كنت صامتًا تمامًا..

لم أقُل كلمة واحدة..

شعرت باختناق؛ لأنني لا أستطيع أن أكسر ذلك الحاجز وأخبره بكل ما بداخلي، هناك حاجز هائل من الاحترام يجعلني عاجزًا عن التفوُّه بكلمة، ثم أدركت سخافة ما أريد أن أقوله، مَن أنا لأخبر رجلًا حارب عمره كله من أجل أن يكون مثاليًّا أن هذا شيء جعله من دون أن يدري قاضيًا وجلادًا؟

لن يفهم أحد..

ابتسمتُ وقلت ما أومن به من قلبي:

ـ أنا آسف.. أنا عارف إني مش الحاجة اللي اتمنيتها في الدنيا.. ولا عمري هابقاها..

وارتجف صوتي وأنا أقول:

ـ بس أنا بحبك جدًّا.. حتى وانا في عينك دلوقتي مش أعظم ابن في الدنيا..

صمت هو لحظات، ثم شعرتُ بغصة في صوته لأول مرة منذ بداية المكالمة:

ـ يا حمار انت ابني.. لو كل الناس جم قالولي إنك أوحش واحد في الدنيا، مش هاشوفك كدا وهاديهم بالجزمة..

ابتسمت بحزن في حين أغلق هو المكالمة..

نظرت إليَّ «سيرا» نظرتها القلقة، قلت لها مبتسمًا:

ـ مافيش حاجة.. الموضوع قرب يتحل إن شاء اللـه..

ابتسمت في راحة، ثم قالت مبتسمة:

ـ طب يلَّا بينا نروح، «آن» والباقي مستنيينا هناك..

نظرت إليها لحظات، ثم نهضت من دون حماس حقيقي..

* * *

ارتجفت يد «عيسى» ذي الثمانية عشر عامًا وهو ينظر من وراء الستارة على لجنة التحكيم الجالسة في آخر قاعة الرقص، في المكان الذي يتدرَّب فيه على الرقص (بيت التانجو)..

ابتسمت «سنتانا» وهي تربت على كتفه قائلة:

ـ ماتقلقش..

كانت «سنتانا» في السابعة والثلاثين من العمر، لكنها بجسدها العبقري في التناسق والرشاقة تبدو فتاة عشرينية، أمها إسبانية وأبوها مصري، تزوجها في إسبانيا وأنجبا «سنتانا»، ثم عادا إلى مصر وبدآ مشروع عمرهما..

«بيت التانجو»..

مكان للتدريب على كل أنواع الرقص العالمي بكل أنواعه، لكن بسبب شغف ابنتهما «سنتانا» بالتانجو سموه هذا الاسم.. مكان راقٍ تم تصميمه وقتها بأحدث الإمكانات الممكنة.. لتكبر «سنتانا» عاشقة للرقص وتصبح مدربة رقص التانجو الأولى في المكان، وتقابل «عيسى» الذي رأى بالصدفة لافتة كبيرة مكتوبًا عليها «بيت التانجو» فدخل من دون تأجيل مسحورًا بفضوله، ويقابلها..

ويشترك في تدريب رقص التانجو..

ويتميز فيه وسط كل زملائه..

شغفه بالحالة وبالموسيقى جعله يتوحّد مع الحالة.. اهتمت «ستتانا» به اهتمام المعلم بتلميذ نجيب، فأصبحا صديقين في فترة قصيرة، وأخذت تدرّبه في جلسات خاصة؛ لأنها نوت ترشيحه في المسابقة التي يقيمها «بيت التانجو» كل عام.. بكأس صغيرة من الفضة مكتوب عليه ببساطة «الراقص الأفضل»..

قال «عيسى» بتوتر وهو يلاحظ ارتجافه:

- قلتلك الأغنية اللي عاوزها كانت أحسن بالنسبة لي..

زفرت بحنق ورفعت عينيها في السقف دليلًا على الملل:

- يابني بطَّل عِند برج التور دا.. ماينفعش تروح ترقصلهم على أغنية همَّ مش عارفينها..

«ستتانا» علَّمته أن يعشق الأغاني الإسبانية والفرنسية، علَّمته جزءًا جديدًا من العالم لم يكُن يعرفه، علَّمته ذائقة مختلفة للفن جعلته يعشق الجمال في كل الأماكن..

التفت إليها وقال بعصبية أكثر:

- ما هو دا اللي مضايقني.. مستنيين حركات معينة في وقت معين.. والرقص حر.. أعمل اللي أنا عاوزه وحاسه في أي وقت..

نظرت «ستتانا» في المرآة الطويلة إلى زيِّها، وقالت وهي تحرِّك يديها لتفردها عليه:

- شكلك هتندِّمني على إني اشتركت معاك..

نظر إليها متوترًا، لا تعلم أن ما تقوله هو ما يوتِّره، لم تكُن فتاة في مستواه من زملائه، ففاجأته «ستتانا» أنها قدمت معه كشريكته في الرقص، وعندما سألها «عيسى» متفاجئًا كيف هذا وهي ابنة صاحب المكان، قالت له إن والدها هو المستضيف للحدث فقط، وإن الحكام يأتون من خارج البلد

وداخله؛ لذا فهي مَن رفضت أن تدخل تلك المسابقات طول الفترة السابقة، على الرغم من إصرار والدها أن تقدِّم حتى يثبت لكل الناس أن ابنته هي من حازت الكأس..

أنها الأفضل..

وعدلت خصلة من شعرها كمن يعترف بسر مترددة، وقالت أمام عيني «عيسى» المحتويتين:

ـ فيه حاجة جوايا بتخليني خايفة إني أقدم.. فكرة التقييم دي بترعبني.. خايفة ما ابقاش قد أكتر حاجة بحبها في الدنيا..

لم تكُن تعرف أن هذا ما يعيشه كل يوم؛ لذا فعندما بدآ التدريب معًا، بقامته الطويلة وجسده المتناسق وشغفه في الرقص، تحمَّست «سنتانا».. اختارت أغنية صعبة وسريعة لـ«شاكيرا».. لمست الأغنية الذوق الإسباني الأصيل وعاشق التانجو في الوقت ذاته.. تدربا قبل المسابقة فترات طويلة وشاقة.. عندما شاهد «عيسى» أفلامًا عن التانجو فيما بعدُ أدرك صعوبة كل الحركات الثنائية التي علَّمته إياها «سنتانا»..

وعرف «عيسى» بمرضه..

عندما عرف الطبيب برقص «عيسى» شجَّعه على الاستمرار فيه، لكن تناسُق «عيسى» وسرعة استجابته بدآ يتأثران مع مرور الوقت.. ليختلف هو و«سنتانا» في الأغنية، اقترح «عيسى» أغنية «querer» التي يعشق كلماتها وروحها الحزينة، هدوءها الذي سيجعل عدم تناسق حركاته أقل بكثير، لكنها كانت واثقة بمهارته فقاومته وأصرت على أغنية «objrction» لـ«شاكيرا»..

فاستسلم «عيسى» لشغف عينيها وحماسها الشديد.. وأدرك أنه أصبح جزءًا من إثباتها لنفسها وحلمها..

قال «عيسى» وهو يزيح أفكاره جانبًا، ناظرًا إلى لجنة التحكيم:

ـ لو حصل أي حاجة واحنا بنرقص.. هتزعلي؟

تركت المرآة الطويلة ونظرت إليه، بشعرها الأسود الفاحم وعينيها الواسعتين، وسمرتها التي تميز الفتيات الإسبانيات، نظرتها كانت قلقة تتأمل «عيسى» وارتجاف يده:

- الكاس دا هيبقى بتاعنا.. انت ليه بقيت خوَّاف كدا؟

واقتربت منه وربتت على كتفه، قائلةً بابتسامة حنون:

- انت أصغر مني بكتير آه.. بس لما شفتك بتعمل أفلامك وبتشتغل.. ومش فارق معاك اللي يقولك وحش وحلو.. روحك دي خلتني أسأل نفسي أنا إيه اللي مخليني خايفة؟ مايحصل اللي يحصل..

وطبعت قبلة على خده قائلة:

- ولو خسرنا مش هازعل.. هازعل بس لو ماعملناش اللي علينا للآخر..

وغمزت ضاحكة لوجهه المتوتر:

- مش دا كلامك؟

نظر إليها «عيسى» مترددًا.. وارتجاف قدمه غير الملحوظ يزيد ارتباكه أكثر..

* * *

صعدت السلم وأنا أشعر بالتوتر يتصاعد داخلي، لم أحدِّثها منذ يوم المسابقة.. لا أعرف أي شيء عنها.. نسيت أشياء كثيرة لكني لم أنسَ «سنتانا» أبدًا.. بدأت نغمات الأغاني التانجو تدوي من خلف الباب المغلق، ضربت الجرس ويدي ترتعش، نظرت إلى «آن» و«سيرا» و«درية» الذين أتوا معي بتوتُّر، فابتسمن مشجعين، «آن» هي مَن ابتسمت نصف ابتسامة لإرهاقها من حمل الكاميرا والحقيبة الكبيرة، لا بُدَّ أن أعرف قصة «درية» ولماذا هي بهذا الإخلاص معي.. إحساس أنهن حولي يُشعرني بدفء غريب.. لكني لم أسأل أحدًا منهن لماذا تفعل ما تفعله؟

وقد أنسى فلا أعرف أبدًا..

سمعت صوت الباب يُفتح، فالتفتُّ لأجد فتاة شابة لا أعرفها تنظر إلينا بابتسامة وتشير إلينا بالدخول، دخلنا جميعًا في هدوء، لم يتغير المكان كثيرًا، الأرض الخشبية والنوافذ الواسعة، تطورت الموجودات بتطور الزمن، مفروشات أحدث، لكنها تناسب تمامًا ذوق المكان الكلاسيكي ككل، قلت بابتسامة للفتاة:

- عاوز أقابل «سنتانا»..

أومأت برأسها في ترحاب، وقالت بهدوء:

- حضرتك مين؟

لم أجبها، نظرت إلى قاعة الرقص المكشوفة على الصالة الخارجية من خلال زجاج يحتل مكان الحائط كله.. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى العدد الكبير الذي يدربه مدرب لا أعرفه.. في وقتي كنا سبعة على أقصى تقدير.. الآن العدد يزيد على العشرين..

ثمانية عشر عامًا مرت على قوم لم يعترفوا فيه بقيمة الرقص حتى الآن..

تأملت المدرب بنظرته الصارمة الجادة، قارنتها بابتسامة «سنتانا» العاشقة وهي تدرِّبنا، عرفتُ من دون مجهود أن المتدربين لن يصلوا إلى نصف ما وصلنا إليه من تدريب..

من يعشق يسمو بكيانك كله، ومن يؤدي يجعلك معتادًا بلا معنى..

دخلت من دون أن أهتم بعاملة الاستقبال، أعرف أن «درية» ستشرح لها كل شيء، وستأتي خلفي «آن» و«سيرا»، أصبحنا نعرف بعضنا البعض لهذه الدرجة، هناك قاعة مكشوفة وقاعة أخرى داخلية للمحترفين، اعتبرتها بيتي طول عامين كاملين منذ أن كنت في السادسة عشرة، واربت الباب الكبير كي أراقب ما يحدث بالداخل، لأجد «سنتانا» جالسة تنظر إلى أربعة متدربين، رجلين وأنثيين، يتدربون معًا..

ارتجف قلبي عندما رأيت تجاعيد عينيها وشحوب وجهها الأسمر الرائع، شعرها الذي أصبح رماديًا، بدا منطقيًا ألَّا تصبغه مثل باقي النساء، «سنتانا»

طبيعية كالطبيعة ذاتها، لا تفتعل شيئًا ولا تؤمن بالافتعال. بحسبة بسيطة عرفتُ أنها الآن في الخامسة والخمسين من العمر؛ لهذا تجلس على المقعد توجِّههم، لا ترقص معهم كما اعتادت معنا..

قلت لـ«آن» والفكرة تخطر في عقلي لحظتها، وأنا أشير إلى مكان معين:

ـ شغِّلي الكاميرا.. واقفي هناك بالظبط..

ثم أشرت إلى «سيرا» وأنا أشعر أنني أتحدث كمخرج محترف:

ـ «سيرا»، انتِ شُفتي الفيلم القديم.. هاتقفي مع «آن» وتحاولي تظبطي الكادر يبقى بالظبط زي القديم.. فاهماني؟

أومأن برؤوسهم أنْ نعم في حماس، في حين فتحتُ أنا الباب مبتسمًا..

دخلت إلى القاعة، وذهبت إلى مشغل الموسيقى الموصول بسماعات القاعة كلها، اخترتُ أغنيةً جعلتني أدرك أنني فعلًا من أكثر خلق اللـه عنادًا في التاريخ، سمعت صوتها يقول معترضًا بصوت عالٍ:

ـ مين حضرتك؟ وبتعمل إيه؟

ما إن سمعت بداية أغنية «quere» الهادئة، الرتيبة، حتى عقدت حاجبيها ونظرت إليَّ لألتفت إليها مبتسمًا..

راقبني المتدربون في تعجُّب، اقتربتُ منها بخطوات بطيئة مادًّا يدي، لتنفرج ملامحها شيئًا فشيئًا مع اقترابي.. تتذكَّرني وتبتسم وألمح دمعة في عينها.. لم أقُل كلمة.. كانت لحظة أكبر من الكلام، اقتربتُ وانحنيتُ نصف انحناءة في احترام كعادة الراقصين، مادًّا يدي إليها، ناظرًا إلى عينيها مباشرة..

هزت رأسها وقالت بابتسامة مازحة:

ـ يخرب بيت عِند التور..

قُلت بابتسامة واسعة وأنا أثبت على وقفتي:

ـ دلوقتي أنا وانتِ ممكن نرقص زي بعض..



* * *

Querer..

أن ترغب..

Dentro del corazón..

بشيء داخل قلبك..

Sin pudor, sin razón..

بلا خجل، بلا سبب..

Con el fuego de la passion..

وتحترق بنيران الشغف..

* * *

ابتسمت ابتسامة واسعة، مدت يدها إليَّ في أناقة، ونهضت برشاقة جسد عاش عمره كله يرقص..

ونظرت إلى المتدربين وقالت بابتسامة واثقة:

- انتو أول مرة تشوفوني بارقص بجد.. حاولوا تتعلموا..

ضحكتُ رغمًا عني وأنا أقول مبتسمًا:

- الثقة دي اللي وديتنا في داهية قبل كدا..

أحاطت رقبتي بذراعها، ووضعَتْ ركبتها على وسطي فتراجعتُ خطوة جاعلًا جسدها يتكئ على ركبتي، وتفرد هي قدمها الأخرى في ثبات، ووضعت رأسها على كتفي، ذلك الوضع معروف أنه من الأوضاع المستخدمة في نهايات رقصات التانجو، لكن «سنتانا» علَّمتني أن أبدأ دائمًا بالنهاية..

عندما تبدأ بنهاية ما وصل إليه الآخرون، تفتح في خيالك كل البدايات المستحيلة التي لم تخلق بعدُ..

سمعت صوتها في عقلي يأتيني منذ ثمانية عشر عامًا وهي تقول بصرامة وشغف:

_ ٤٣٢١ _

ومن دون اتفاق مسبق بدأنا نرقص..

* * *

في الحركة نفسها منذ ثمانية عشر عامًا، وقف «عيسى» معانقًا «ستانا»..
توتُّره جعله يتخشَّب أكثر من المعتاد، نظر بعينيه إلى لجنة التحكيم التي تنظر مبتسمة، وسمع دقات قلبه في أذنه عالية، وارتجاف قدمه الخفيف يرعبه..

ما لم يكُن «عيسى» يعرفه وقته أن كل هذا كان في عقله، المرض يهجم مرة واحدة ثم يكمن تمامًا فترات طويلة، ثم يهجم ثانية بقوته كلها، لكن عندما عرف «عيسى» بمرضه، قرأ كثيرًا عنه، وبدأ عقله يُمرضه قبل أن يأتي المرض الحقيقي..

بدأت موسيقى الأغنية، فتحرك بسرعة كما تدربا، دارت «ستانا» حول نفسها كملكة متوَّجة، بجانبها «عيسى» الذي على الرغم من حركته المضبوطة، لكنه كان متخشبًا، متعرقًا، يحارب أن يبدو مرنًا سعيدًا..

كانت روحه ثقيلة..

عكسي تمامًا الآن..

أنظر إلى «ستانا» التي تحركت كملكة كعادتها، على نغمات الأغنية الهادئة التي تعبِّر عن مفهوم العشق بالنسبة لي.. وأشعر أن روحي أخف من ثقل كل الآلام التي شعرتُ بها يومًا..

كنت أشعر أنني قطعت كل الحبال التي تربطني بواقع لا أفهمه..

بدا ذلك على جسدي وأنا أتحرك حركة صعبة مائلًا بجسدي عليها، وأمسك بيدها جاذبًا إياها نحوي، فتتحرك برشاقة وتدفن هي رأسها في كتفي..

ويتمايل جسدانا معًا.. برفق.. بشغف.. بهدوء..

عكس «عيسى الصغير» الذي جذبها إليه بقوة متوترة، جعلت رأسها

يرتطم بكتفه، وتنظر «ستانا» إليه نظرة مستنكرة، تسأله بعينيها: «ماذا بك؟»، لينظر إليها نظرة تائهة..

أحاط خصرها بيديه مع سرعة نغمات الأغنية، في ذلك الجزء لم يكن مطلوبًا منه أكثر من أن يثب ويتحرك بقدميه حركات خفيفة معها، في حين تحرك هي قدميها حولها بحركات رشيقة في قمة الصعوبة، تبتسم بإشراق يُبهج القلوب.. لكن حتى في تلك الحركات البسيطة المطلوبة منه ارتبك قليلًا وهو يفقد تركيزه..

لكنها أخذت منه كل الانتباه بصعوبةِ ما تفعله.. وروحها الطاغية.. في حين بدا هو كعمود نور منطفئ تدور حوله الشمس ذاتها..

ابتعدت عنه كما تدربا، مدَّ «عيسى» يده وشعر بأطرافه ترتجف، لتركض هي ناحيته كي يحملها في حركة فعلاها مئات المرات..

لكن «عيسى» شعر بأنه لا يستطيع أن يتحكَّم في يده في تلك اللحظة..

لذا، فعندما ركضت وقفزت تجاهه، تهاوت يده تحته، ليقعا معًا بسبب اندفاعها، حماها من الوقوع بجسده تمامًا، لكن ارتطام جسده بالأرض كان بصوت مدوٍّ، مؤلم..

نهضت «ستانا» في ارتباك وهي تنظر إليه، نظر إليها «عيسى» بألم حقيقي، نظرة معتذرة خائفة، ثم نهض وخرج من القاعة راكضًا.. سمع صوتها ينادي عليه.. لكنه أكمل ركضه خجلًا من دموعه..

ولم ينظر خلفه أبدًا..

لكني كنت أنظر خلفي الآن..

التصق ظهرانا ونحن نرقص معًا، أنظر خلفي لأجد شعرها الرمادي يستند إلى ظهري، في نعومة ورقة..

خمسة وخمسون عامًا وما زالت أفضل مَن يرقص في نظري.. على كلمات الأغنية التي أحفظها:

«أن تحب..

أن تستطيع المقاومة ضد الرياح.. أن تطير..

لتكتشف جمال البحر..

أن ترغب.. أن تستطيع مشاركة..

عطشنا للحظة من الحياة..

الهدية التي تعطينا الحب.. هي الحياة»..

ابتعدت «ستانا» خطوات بسيطة راقصة، ونظرت إليَّ نظرة لائمة، مددتُ يدي إليها، ناظرًا إلى عينيها بثقة، ضحكت وقالت بصوت عالٍ:

- المرة دي هيبقى فيها مستشفى..

لم أُجِب وأنا أجبر كل أطرافي على الثبات، وابتسمتُ ابتسامة واثقة، لتعود هي خطوات قليلة للخلف، وتركض نحوي..

«أن ترغب.. أن تطير بين السماء والبحر..

من دون أدنى قوة من الجاذبية..

أن تشعر بالحرية..

أن تحب.. من دون أن تتوقع..

تعطي لمجرد أنك تعطي»..

ابتسمتُ وأنا أتأملها تركض وشعرها يطير حولها، وهي تقفز نحوي ملقيةً بأمانها كله بين ذراعي..

وهذه المرة أقسمت أن أتحمَّل أي شيء تلقيه الحياة على ذراعي..

التقطتُها في بساطة على ذراعي، وحملتُ جسدها الخفيف بين يديَّ، رافعًا إياها إلى السماء، ودُرت حول نفسي أكثر من مرة..

لتبتسم هي ابتسامة مشرقة وتغمض عينيها في استمتاع، ثم تميل بجسدها كله كي تحيطني بقدميها وتهبط بهدوء كأمهر راقصة في العشرين..

انتهت الأغنية، عُدنا إلى الوضع نفسه عند بداية الأغنية، لكن هذه المرة نلتقط أنفاسنا من سرعة الحركة..

وأسمع تصفيقَ مَن كانوا معنا في القاعة..

* * *

كم مر من الوقت؟ ساعة أو ساعتان وأنا و«سنتانا» نتحدث معًا..

اعترفتُ لها بكل شيء كما طلب مني «عيسى»، قلتُ لها إنني افتقدتها، افتقدت وجود هالتها في حياتي، أخبرتها عن المرض، أخبرتها عن حالتي النفسية التي ظلت تتدهور حتى وقتنا هذا، أخبرتها عن زواجي وعن طلاقي، وكل ما حدث بعده.. لكن نبرتي اختلفت وأنا أحدثها عن الفيلم.. انتابني حماس مفاجئ وأخذت أشرح لها الفكرة بحماس شديد..

واستمعت هي ناسيةً كل شيء آخر حتى مواعيد تدريبها..

استمعت بابتسامة حنون، متقبلة، هادئة..

وأنا انتهيت من كلامي، حتى نظرت إليّ بعينِ خبيرة، ثم قالت مبتسمة:

ـ طول عمري باتخانق معاك يا «عيسى»، انت شايف دايمًا إن الحياة أحسن في المقاوحة والحرب والاختلاف، وأنا شايفة إن الأصعب إن الواحد يحاول يفضل «صح» ومايعملش حاجة غلط أصعب بكتير.. إن البطل الحقيقي في الأفلام مش اللي بيحارب عشان يختلف.. بس اللي بيحارب عشان يبقى «عادي»..

كان شجار دائم بيننا، نقاش طويل استمر فترة طويلة، كنت أخبرها دائمًا أن الأسهل أن تكون عاديًّا تقليديًّا، والأصعب هو أن تحارب من أجل أن تعثر على نفسك، في حين ترى هي أن الأصعب هو مقاومة إغراءات التمرُّد الدائمة.. وأن الشجاعة الحقيقية في الرضا الكامل..

ابتسمتُ وأنا أنظر إليها غير فاهم، فابتسمت هي قائلة:

- انت أكتر واحد أهه بتلعن في كل اللي حواليك عشان ناس تقليدية أو عادية، وانت بقالك ١٨ سنة مستسلم لمرضك.. اتجوزت جوازة عادية وطلعت وحشة.. وطلّقت.. وماعملتش حاجة عشان حلمك.. بحجة المرض اللي انت مستني إنه يموتك..

ونظرت إلى عينيَّ مباشرة قائلة:

- وانت مموِّت نفسك من زمان قوي..

لم أنطق وأنا أنظر إليها، لتبتسم هي مكملةً وهي تنهض من خلف مكتبها:

- أكتر واحد شُفته بيهرب فِي حياتِي، ساعة ما وقعنا في المسابقة كان ممكن نكمل عادي.. بس انت جريت ومشيت وماجيتش تاني..

وذهبت إلى دولاب زجاجي وفتحته، وأخرجت منه شيئًا لم أرَه:

- بس أنا كملت لوحدي.. بعد ما مشيت شغَّلت المزيكا ورقصت أحلى رقص في حياتِي..

والتفتت إليَّ حاملة الكأس الصغيرة، المكتوب عليها «أفضل راقص»، وابتسمت بحنان مكملة:

- وخدت الكاس..

سرت قشعريرة في جسدي، حملت هي الكأس بين يديها كمن يحمل طفلها، واقتربت وهي تكمل:

- عشان انت دايمًا بتستنى اللي يشدك.. اللي يبقى في ضهرك عشان تنجح.. اللي يخليك عاوز تقاوم مرضك.. دايمًا عاوز شريك للنجاح.. حد تنسبله الفضل في نجاحك، مش عشان انت حلو، عشان لو فشلت.. تنسب لُه الفشل برضه..

ووقفت أمامي وعيناي معلقتان بعينيها الواسعتين، وقالت بصوت حنون:

- بس أنا بقى عارفة قد إيه صعب إن الواحد يقوم بعد اكتئاب مرض زي اللي عندك..

مدت يدها لي بالكأس، فنظرت إليها غير فاهم، لتقول هي مبتسمة بعينين دامعتين:

- ماحدش هيقوّمك من اللي انت فيه دا غير نفسك.. والكاس دا مش ليالك..

وأكملت هامسة:

- الكاس دا لـ«عيسى الصغير».. عشان هو كان عارف من زمان قوي إنك مالكش غير نفسك..

وقالت أمام نظرتي الحنون، كأمّ تحكي لابنها حدوتة مسلية:

- زمان، «عيسى» قال لي حاجة عجبتني.. قالي الدنيا عبارة عن ناس مستنية حد يحركها، وناس بتحرك كل اللي حواليها.. وهو عمل كدا معاك.. الكاس دا عشان هو اللي عرف يقوّمك تاني.. ويخليك ترقص معايا أحسن من أي مرة رقصت فيها زمان..

وأكملت بفخر:

- هو اللي خلاك تستاهل الكاس دا..

نظرتُ إليها بحنان، مددتُ يدي وأخذت الكأس من يدها، لتجذبني هي وتجعلني أنهض وتحتضنني في عناق طويل..

ومن دون تردد، أحطتُها بذراعي وضممتها لي أكثر..

وشعرت بدفء لم أشعر به منذ زمن طويل..

قلت مبتسمًا آخذًا قرارًا لا رجعة فيه:

- هاكمل تدريب معاك إمتى؟





(١٨)

ما بعد الكأس

عندما عدت إلى شقة السطح في فيلا «سيرا»، كُنتُ متعبًا من اليوم ورقصه، فقررت أن أنام وأشاهد الأمر الثامن في صباح الغد، وما إن استلقيت على الفراش، حتى ذهبت في نوم عميق..

كل ما أذكره أنني نمتُ محتضن الكأس في صدري..

لأستيقظ على صوت صراخ «سيرا» في الخارج..

نهضت مفزوعًا، ضوء الشمس أخبرني أننا في الصباح، نهضتُ مفزوعًا وأنا لا أستطيع تمييز ما تقول، فتحت باب غرفتي وأنا أدعك عيني وقلبي ينقبض..

لأجدهم جميعًا في الخارج، يجلسون في الصالة الواسعة، معهم «مصطفى»، طليق «سيرا»، أمامه «سيرا» تقف ولغة جسدها كلها تدل على عصبية مفرطة، «هيثم» يقف وسطهما كأنه يحول بينهما بجسده، «آن» و«درية» و«ياسين» و«شمس» يجلسون ويبدو عليهم الهم، كانت «سيرا» تصرخ في طليقها:

- انت مالكش دعوة أصلًا..

قلت متسائلًا بصوت قلق:

- فيه إيه؟

التفتوا إليَّ كلهم، ساد صمت مشحون لحظات، ثم رفع «مصطفى» يده مشيرًا نحوي وقال بانتصار:

- أهو سيادة الملك صحي.. تعالوا ناخد رأيه عشان ما احسش إن أنا راجل متخلف..

والتفت إليّ وهو يقول بنبرة عصبية، لكنه يحاول أن يسيطر على انفعاله:

- حضرتك لسّه قاعد هنا بتعمل إيه؟

قالت «سيرا» بصوت عاجز:

- قلتلك ماتتكلمش في الموضوع معاه..

لم ينظر إليها وهو يُسكتها بإشارة من يده، قائلًا:

- الرجالة بتتكلم دلوقتي، لو سمحتي ماتتدخليش..

تبخَّر النوم من كياني كله، نظر إليَّ «مصطفى» منتظرًا إجابة عن سؤاله، فسألت بهدوء مرتديًا قناع الثبات:

- أفهم طيب إيه اللي حاصل؟

قالت «آن» بسرعة:

- إمبارح نزل خبر في السوشيال ميديا إن «سيرا» على علاقة بمخرج مش معروف..

انتفض قلبي ونظرتُ إليها غير مصدق، لتكمل هي بسرعة كأن المصيبة ليست فيما قالته:

- الخبر دا لما وصل لـ«مصطفى» استغل علاقاته وخلاه يتمسح بسرعة، وكلم خال «أسماء»، واتقابلوا الصبح النهارده..

حاولتُ أن أستوعب كم المعلومات، نظرتُ إلى «مصطفى» أريد أن أسأله ماذا حدث، لكن «آن» أكملت:

- «مصطفى» قعد مع خال «أسماء»، قاله إنه مش عاوز فلوس من «مصطفى»، بس مش عاوزك تعيش مع «سيرا» في الفيلا، عشان الموضوع حارقهم قوي..

قلت محاولًا أن أمسك أعصابي:

- وهو ماله؟

قال «مصطفى» هذه المرة بحدة:

- هو جابهالي على بلاطة.. قالي إنه ابن بلد وجدع ومش هيفضح حد..

بس الوضع دا مضايقهم.. قالي إنه كيد نسوان بقى وربنا قايل عليه في القرآن..
وإنه مشكلته معاك مش مع «سيرا»..

وأكمل وهو يشير إلى «آن» بسخرية:

- وعاوز برضه «آن» تبعد عنك عشان مصوركم حاضنين بعض في كذا حتة..

ونظر إليَّ نظرة أفهمها جيدًا:

- بيقول إن «آن» هي السبب في الطلاق.. فانت واضح إنك مش عاتق أي حرمة بتيجي جنبك..

انعقد حاجباي في غضب، «آن» هي السبب في طلاقي؟! ما هذا الهراء؟! هل جُن الجميع؟! وإن كانت «أسماء» مريضة، هل خالها مريض أيضًا؟ كيف يعيش حياته بهذا المنطق الملتوي؟ ابن أي بلد من يفعل كل هذا تحت اسم «حق الانتقام»؟!

قال «مصطفى» بلهجته العملية:

- همَّ حاطينك في دماغهم.. انت في عينهم راجل لا مؤاخذة.. حل كل المشكلات يابن الناس إنك تبعد عن كل اللي حواليك.. وتدفع لهم الفلوس اللي همَّ عاوزينها.. واكفي الناس الشر اللي جاي من وراك..

قالت «سيرا» بهجوم وعيناها تدمعان:

- ما تخرس يا «مصطفى»..

قال «مصطفى» ناظرًا إليَّ ومكملًا بواقعيته القاتلة:

- مش ذنب لا أبوك ولا «سيرا» ولا «آن» ولا حد من اللي حواليك إنك ناسبت ناس زيهم.. دا قرفك وانت اللي تشيله.. همَّ مش عاوزين غير إنهم يئذوك.. همَّ فاضيين لك.. وشايفينك واحد زبالة مايستاهلش يعيش أصلًا..

صمتُّ وأنا أشعر أن في نبرته شيئًا آمرًا، يجعل صدري يضيق لأول مرة منذ فترة طويلة، شعرت أن هناك حالة من عدم التصديق لكل ما يحدث،

لكن في كلامه حقيقة لا أستطيع أن أفر منها أكثر من هذا، حقيقة تبدو على الرغم من قسوتها صحيحة تمامًا..

لا ذنب لكل هؤلاء أن يدوروا في فلك قصة انتقام تقليدية سخيفة..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٢ - «تجد الشريك في البداية يحكي لك عن قصص انتقامه.. عن استمتاعه بأخذ حقه، سواء بالخبث أو بالقوة.. أنه عرف كيف كان يعذِّب مَن هم قبلك ويندمون على خسارته.. تيقَّنْ أنك بالتدريج ستصبح واحدًا منهم.. بالنسبة له الدنيا هي حرب عنيفة من كل الناس ضده؛ لذا لديه مبدأ واحد يكرره دائمًا: اقتلهم قبل أن يقتلوك»..

قلت بنبرة هادئة:

- «مصطفى» عنده حق.. أنا لازم أمشي..

ابتسم في ارتياح ونظر إلى «سيرا» الدامعة نظرة شامتة، في حين نظروا إلي جميعًا نظرة حزينة، قال «مصطفى» بنبرة هادئة وقد شعر بانتصار معركته:

- لما سألني انت بتعمل إيه عند «سيرا»، قلتله على حوار فيلمك.. مش عارف «سيرا» كانت قايلالك ولا لأ، بس كنا متفقين إني أنتجه ليك مقابل إنها توافق تعمل الدور في الفيلم بتاعي..

نظرتُ إلى «سيرا» باستنكار، نظرت هي في الأرض وتركت دموعها تهبط من دون مانع، اقتربَتْ منها «آن» واحتضنتها وهي تنظر إليَّ نظرة آسفة، و«مصطفى» يكمل وهو يهز كتفه:

- لما قلتله قالي أبعد نفسي أنا و«سيرا» عن الموضوع.. فانت فاهم طبعًا.. لا أنا ولا «سيرا» لينا دعوة بالفيلم بتاعك دا..

أغمضت عينيَّ مستقبلًا الخبر بابتسامة راضية..

لقد ضرب الرجل ضربته بذكاء..

أومأت برأسي إيجابًا، موافقًا إياه، نظرتُ إلى الأرض شاردًا وصدري

أو الغرفة التي استضافتني في الأسبوعين الماضيين..

نظرت إلى الغرفة أتأملها، الحائط المرسوم عليه «غرفة الشواف»، «بالجنون من يقينكم».. ذلك اليقين أن ما يفعلونه صحيح.. كل هذا الشر والانتقام واستهلاك المشاعر في أعينهم يقين.. هم أبطال قصتهم وأنا أقذر مَن أنجبته البشرية في خيالهم..

لأول مرة أشعر أنني و«غرفة الشواف» لا نشترك في السخرية ولا في الحكمة ولا المرض، لكن في أننا لا يحيطنا إلا ظلامنا.. ونحاول أن نحيا هاربين من الحقيقة الواضحة لكل الناس سوانا..

أننا وحدنا تمامًا في هذا الظلام..

أخرجت حقيبتي من أسفل السرير، وبدأت ألقي ملابسي فيها، حتى انتهيت..

«أسماء» تعرف جيدًا أن أبشع مخاوفي هي الوحدة..

أن تأتيني هجمة المرض فجأة فأموت وحيدًا..

لذا، جعلت هدفها الوحيد في الحياة أن يبتعد كل من يقترب مني بعدها.. حتى أشعر بقيمة وجودها..

لا يدرون أنها هي مَن فقدت قيمتها لدي تمامًا بكل ما كانت تفعله..

لكنني أعرف قناعتها..

هي من وطئت أرضي ودنَّستها، ولا يصح لأي أحد بعدها أن يجلس مكانها.. ولا حتى مَن يقترب ليصلح بوار تلك الأرض..

تنهدت وأنا أمسك القلم وأضعه في جيبي، نظرت للعلب المعدنية التي وضعت فيها الكنوز، ملف التحاليل، الكاميرا القديمة، «هارد» الكمبيوتر القديم، تلك الفلاشة التي وضعت عليها فيلم «spirit»، منديل النادي الرياضي الذي قفزت فيه في حمام السباحة..

وأخيرًا: الكأس التي أعطتني إياها «سنتانا» البارحة..

صدري يضيق أكثر، شعرت بعودة نوبة قلق ستضرب جسدي بعد قليل، شعرت أنني غير متحكّم في شيء، لكني ابتسمت في رضا، ووضعت كل الكنوز في حقيبتي، وأغمضت عيني..

نفس عميق..

وزفير يخرج محملًا بقيد جديد..

خرجتُ من الغرفة ليستقبلوني في صمت، جو ثقيل مشحون بالمشاعر المتناقضة، نظرة «سيرا» الباكية المعتذرة كأنها خذلتني، أردتُ أن أذهب إليها وأقول لها إنها لن تخذلني أبدًا مهما حدث، اقتربت مني «سيرا» باكية، واحتضنتني، شعرت بها تضع شيئًا في جيبي الخلفي، لم أسأل واحتضنتها وربتُّ على كتفها.. تركتني ومسحت دمعتها وخرجت إلى السطح..

نظرت إليهم، أعين لا تعرف ماذا تفعل، أعين حزينة، ابتسمتُ محاولًا أن أجعل كل شيء كما كان:

- أنا راجع البيت.. وكدا كدا خلاص الفيلم مش هيكمل.. فنرجع للحياة الطبيعية بقى ولا كأن حصل حاجة.. كله يلم حاجاته وفضوا المكان قبل الليل ما ييجي..

نظروا إليَّ بإحباط، فابتسمتُ مشجعًا، وخرجتُ مسرعًا من الشقة قبل أن يضيق صدري أكثر..

* * *

بخطوات ثقيلة صعدت سلم بيتي القديم، ووقفت أمام باب شقتي لحظات، لا أريد أن أدخل الآن..

ذهبت إلى الناحية المقابلة وفتحت باب شقة أهلي، كما هي، بالتأكيد لم تتغيّر في أسبوعين، ذهبت مسرعًا إلى غرفة المعيشة لأجدهما جالسين الجلسة نفسها..

ما إن رأتني أمي حتى انتفضت واقفة وصاحت فرحة، احتضنتني بقوة ومحبة صافية، في حين رفع أبي رأسه إلي، سلمتُ عليه وقبّلت رأسه، وجلست بجانبهما..

بيني وبين أبي لغة ما، نتبادل نظرة فنفهم؛ لذا فقد قال عندما جلست:

- إيه اللي حصل؟

حكيت لهما كل شيء، لم يُبدِ رد فعل كعادته، لم يسأل عن «سيرا» كأنها غير موجودة في الحياة، بالنسبة له قد صدر القرار القضائي بأنها شخص لا يستحق الاهتمام، أصدر الأمر لي أنني لن يكون لي علاقة عاطفية بها وانتهى الأمر، بالتالي هي لم تعُد إنسانًا من لحم ودم موجودة في حياته من الأساس..

مجرد شخص أخطأ ابنه معها..

وأنا أتفهَّم هذا..

أومأ برأسه متفهمًا بعد أن سمع كل شيء، قال بنبرة هادئة:

- كويس إنك سبت المكان هناك.. القعدة هناك ما كانتش تصح أصلًا..

لم أعلق، ولن أعلق، انتهى وقت الإقناع، في عالمهما لا يجتمع أنثى وذكر إلا ومارسا الجنس معًا، في عالمي أنا يختلف الأمر عن تلك الفكرة الساذجة.. لديهما ما يثبت أن هناك شيئًا ما حدث، ولن يصدقا أنه بالفعل لا يوجد شيء بيني وبين «سيرا»..

قالت أمي بتوتر:

- هي «آن» ليه سبب طلاقكم؟

قلتُ بنفاد صبر وأنا صدري يضيق ولا أريدهما أن يشعرا، تلك الفكرة التي جاءتني طول طريق عودتي:

- لازم ننتقم زي ما بيعملوا فينا.. ليه ماتـ...

أشار لي أبي أن أصمت، إشارة صامتة واضحة خلفها نظرة غاضبة، قال بهدوء يتناقض مع نظرته:

- عمرنا ما هننزل للقرف دا.. دا لو هنموت..

ثم صمت قليلًا وقال:

- بالمناسبة، خالها اتضايق إنك بعت لـ«أسماء» رسالة.. وبيقول ماتتكررش تاني..

نظرت إليه ففهم نظرتي، لماذا نظل محافظين على هذا الخط الأخلاقي؟

قال أبي مبتسمًا:

- الموضوع هيتحلّ يا «عيسى».. شوف انت شغلك ومالكش دعوة بحاجة..

حركت قدمي بعصبية قليلًا، كلمات «مصطفى»، طليق «سيرا»، تضرب عقلي، قلت من دون تفكير:

- أنا متضايق إني متجنب كدا.. حاسس إني عيل صغير.. يعني إيه أنا في السن دا ومستني بابا يحل الموضوع؟

اتسعت عينا أمي محذرة، دائمًا ما تخاف من شجارٍ يحدث بيني وبين أبي، نظر أبي لي وابتسم بحنان، قال كمن يفهم طفلًا صغيرًا:

- العادات والتقاليد، اللي انت مابتحبهاش، بتقول إن لو فيه كبير اتدخل ماينفعش حد تاني يتدخل.. الموضوع بيني وبين كبيرها.. ماينفعش أي حد تاني يتدخل..

وقال باقتضاب:

- لما أبقى أموت.. ابقى أعمل اللي أنت عاوزه..

صمتُّ تمامًا وشعوري بالعجز يقتلني..

متى سأخرج من كل هذا الهراء؟

نهضت من دون أن أنطق، وخرجت من الشقة كلها.



* * *

أغلقت باب شقتي ليدوّي صدى الصوت الخفيف في الشقة شبه الخالية..
وأشعر بكل طاقتها السلبية تتسلل إلى مسامي..
تأملتُ أركان البيت وأنا أسير بهدوء.. هنا صرخت «أسماء» بأقذر الشتائم.. هنا حطمت أثاث البيت.. هنا قالت إنها تكرهني ولن تستطيع أن تكمل حياتها معي وهي في حضني.. هنا حاولت الانتحار وسالت دماؤها.. هنا صرخت بأنني أحقر مَن قابلت في حياتها.. هنا اتفقنا على الطلاق في مرة من المرات الكثيرة.. جلسنا نتفق ماذا سنخبر أهلنا عن أسباب الطلاق لأن الحياة أصبحت مستحيلة.. هنا عايرتني بمرضي وقالت إنني سأموت من دونها وحدي..

هنا وهنا وهنا.. آلاف الذكريات السيئة..

كيف تريد أن تنتقم أكثر من هذا؟ كيف لا تدرك أنها لطخت كل ذكرى في المكان الذي أعيش فيه؟ تركتني في جحيم مستمر من ذكريات أسوأ ما ظهر في شخصياتنا معًا..

هل يوجد انتقام أسوأ من هذا؟

لم تترك داخلي ذكرى واحدة طيبة..

أو، لأكون عادلًا، زرعت من الذكريات السيئة في حياتي ما يجعل تذكُّر الطيب مستحيلا..

وقفت في الصالة، أنظر إلى جهاز التلفاز المغلق، لاحظت أن الشقة نظيفة، فهمت أن أمي كانت تنظِّفها طول الفترة السابقة حتى عندما أعود أجد كل شيء كما أحبه..

هل أذهب إلى أمي وأعترف بكل شيء كما أوصاني «عيسى»، أم أصبح الأمر لا داعي له؟

شعرت بجسدي يرتجف.. ولم أقاوم..

تعبت..

أريد أن أستسلم..

أن تحيا دائمًا بين تفاؤل الأمل والبداية الجديدة، ويطاردك ألم الماضي ليحبط هذا الأمل، إحساس مرهق..

ألقيتُ بجسدي على الأرض.. ونمتُ على جانبي.. وظللت أرتجف..

ستموت وحدك يا «عيسى»..

ما إن خطرَتِ الفكرة في عقلي حتى زاد ارتجافي أكثر، لم أعُد أستطيع أن آخذ نفسًا إلا ويتقطع داخل صدري بأفكاري السوداء، ألم حارق اجتاح صدري كله، ذلك الألم الذي جعلني أخاف من الأزمات القلبية، ذلك الهاجس الذي أتاني بعد محاولة انتحار «أسماء»، عندما كتمتُ الأمر عن كل مَن حولي، وحملت وحدي ثقل محاولة انتحار زوجتي أمام عيني، الدماء على الأرض ونظرتها المجنونة، «ساعدني»، جلوسي بجانبها يومين متصلين أحتضنها وأخبرها أن حياتها أكثر قيمة من حياتي ذاتها، جلوسي تحت قدميها بحب وإخبارها عن كم النور الذي أراه داخلها..

كتمان كل هذا لم تحتمله نفسي المريضة، فعبَّر عنه جسدي بتلك الآلام المستمرة في صدري..

أنا أعاني الآن نوبة ذعر..

أغمضتُ عينيَّ..

عقلي يصرخ في: ستموت وحدك يا «عيسى»، سيعثرون على جثتك غدًا، هذا لو زارك أحد، أنت وحيد من دونها يا «عيسى» كما كانت تخبرك.. زادت آلام صدري وأسمع دقات قلبي في أذني عالية..

أنا خائف..

شعرت بالدموع تنساب من عينيَّ المغلقتين، جسدي يرتجف كمن أصابته نوبة صرع، لا أستطيع أن أتحكَّم فيه..

جزء من عقلي يخبرني أن أستعين بأحد، بأبي أو أمي، وجزء آخر يخبرني أنني سأموت الآن في أي وقت، وجزء أخير يخبرني أن أقاوم..

نوبات الذعر لا تستمر أكثر من ربع ساعة

هكذا قال الطبيب النفسي..

بدأ جسدي يرتجف أكثر، بدأت الأفكار السوداء تسيطر على عقلي تخبرني أن هذه ليست نوبة ذعر، لكنها أزمة قلبية حقيقية، دائمًا تلك الفكرة هي التي تهد مقاومتي تمامًا، ذلك الخاطر أن تلك المرة حقيقية وليست من صنع عقلي، انتفض جسدي، أردت أن أُسكت ذلك الألم اللعين فضربت صدري بيدي بعنف كأني أريد أن أسكت الألم بألمٍ أقوى منه..

«لن يفهمك أحد».. «هذه هي الهجمة الثانية للـMS».. «انتهى وقتك يا (عيسى)».. «ممكن تساعدني أقطعهم؟».. «طلقها يابني، دي الناس دي سكتها شمال»..

بدأت أضرب رأسي بيدي بقوة حتى تخرس الأفكار اللعين..

لن أخاف ثانية..

لن أدع الخوف يسيطر عليَّ ثانية..

سيمر كل شيء..

بدأت أسيطر قليلًا على ارتجافي.. لا بُدَّ أن أشغل عقلي بأي شيء حتى لا أموت وحدي كما كانت تهددني «أسماء» دائمًا، نهضت من على الأرض وأنا أرتجف، دموعي تنساب من دون داعٍ، نظرتُ حولي وأمسكت هاتفي المحمول، بأصابع مرتعشة فتحت تطبيق «يوتيوب»، بحثت عن الأغنية التي دائمًا ما كانت تساعدني في السيطرة على نوبة الذعر «EVERYTHING'S ALRIGHT ـ Laura shigihara»، أغنية أعشقها وعلَّمتُ «أسماء» أن تغنيها لي عندما أصاب بها، ضغطت على الأغنية التي لا توجد لها نسخة أخرى إلا في تطبيق «يوتيوب»، وأنا أتحرك مرتجفًا دست بقدمي على شيء ما على الأرض، نظرت إليه في ذعر، لأجد «فلاش ميموري» وقع من جيبي الخلفي..

مكتوبًا عليه رقم «٨»..

بدأت نغمات البيانو الهادئة لأغنية تصعد من الهاتف..

فكرة أنني سأرى «عيسى» جعلت عقلي يُشتت قليلًا..

انحنيت والتقطت «الفلاش ميموري» من على الأرض، وضعتها في التلفاز بصعوبة بسبب ارتجافي.. أدرت التلفاز وضغطت على تشغيل الفيديو ووقفت أمام الصالة أنظر إليه..

إلى «عيسى»..

* * *

(١٩)

الأمر الثامن

يأسك وصبرك بين إيديك وانت حر

تيأس ما تيأس.. الحياة راح تمر

أنا دقت من دا ومن دا وعجبي لقيت

الصبر مر وبرضه اليأس مر

عجبي!

صلاح جاهين

جلس «عيسى الصغير» على مقعده، ونظر إلى الأرض وليس لي كما اعتاد..
وكان وجهه حزينًا.. مكتئبًا..
ربما لأول مرة تتطابق ملامحنا وأشعر بتشابهنا كأنني أنظر في المرآة..
في زمنه، زمن تحضير تلك اللعبة وتصوير الفيلم، مر أكثر من سبعة أشهر كاملة، في حين لم يمر في حياتي سوى أسبوعين، بدت عليه آثار الإرهاق والضغط النفسي..
ابتسِم يا «عيسى»..
كيف يبدل الحزن الملامح إلى تلك الدرجة؟

Short steps… and deep breath..
Everything is alright.

بدأ ارتجافي يهدأ عندما تسلل لحن الأغنية الدافئ إلى روحي، وأخذ «عيسى» انتباهي بذلك الصمت والحزن البادي على وجهه..
قال «عيسى» فجأة كأنما يحدِّث نفسه لا يحدثني:
- قولِّي حاجة تخليني أنسى فكرة إني هاموت..
ارتفع حاجباي في تأثُر، لينظر هو إليَّ من خلال الكاميرا، ويقول بنبرة حزينة:
- انت دلوقتي أكبر.. وأكيد بقيت فاهم حاجات أنا مش فاهمها.. قولي أي حاجة تخليني أعرف أكمِّل..
مسح أنفه، ما جعلني أدرك أنه كان يبكي مثلي الآن، وقال ملوِّحًا بيديه كعادته:

- في الأول، أنا كنت باقاوح.. مش مصدق.. بس دلوقتي بدأ عقلي يستوعب إن الـ«MS» مالوش علاج.. هيموّتك يعني هيموّتك.. بعد سنة ولا عشرة ولا عشرين.. بس رايح رايح..

ونظر إليَّ لأول مرة في حياته بحيرة حقيقية، وقال:

- قولِّي حاجة تخليني أكمل..

شعرت بالعجز؛ لأنه صمتَ ينتظر ردي، ذهبت عيناي بتلقائية تجاه الكاميرا كعادتي، ثم أدركت أنني لا أصوِّر، لا توجد كاميرا ولا يوجد حولي «سيرا» و«آن» وباقي الأصدقاء، وعلى الرغم من أنني لا أصور إلا أنني شعرت أنني لا بُدَّ أن أرد..

لكني لم أجد إجابة..

طال صمته، نظر إلى الأرض لحظات، ثم قال بابتسامة حزينة:

- «سيرا» دخلت معهد تمثيل، «محمود» و«جمال» دخلوا هندسة، أنا دخلت أول تِرم في تجارة، مكان جديد، ماحدش عارف عنك حاجة.. والجو غريب قوي..

ثم ابتسم قائلًا كأنما يتذكر:

- كنت تايه في الجامعة، مش عارف أي حاجة، سألت واحدة كانت قاعدة لوحدها خالص عن مكان المحاضرة، طلعت في سنة تانية وأكبر مني بسنة.. فقعدنا طول اليوم تايهين مع بعض.. أو تقدر تقول توِّهنا بعض أكتر..

انعقد حاجباي وأنا أتذكَّر لأول مرة، وارتجف قلبي وهو يكمل بابتسامة:

- اسمها «أسماء».. أول ما شفتها واتكلمنا قلبي انقبض كدا وحسيتها خنيقة..

ثم قال وهو يتذكر:

- بس لما اتكلمنا كتير عرفت إني ظلمتها.. البت شكلها [illegible] زيي.. بتفكَّرني بـ«سيرا» كدا.. روحها حلوة قوي وضحكتها زي العسل.. بس

هي مابتخليكش تشوف الحتة دي فيها غير بعد ما تتق فيك.. شكلها كئيب بس جواها فيه حاجة حلوة..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٣ - «يخبرك قلبُك بالحقيقة في أول لقاء بينكما.. تذكر أول انطباع أخذته عن شريكك.. ستجد دائمًا أن قلبك شعر بسُمِّه منذ البداية.. لكن عندما يرصدك الشريك ويحاول التقرُّب منك.. تنسى تحذير قلبك الصارخ وتقنع نفسك أنك ظالم لأنك حكمت عليه متسرعًا»..

ارتجفت شفتاي وأنا أنظر إليه، كيف نسيت أنني أنا و«أسماء» التقينا في الجامعة؟ يبدأ عقلي ذكرياته عنها منذ أن اعترفنا بحبنا بعد طلاقها الأول، لكننا كنا صديقين فترة طويلة قبلها، طوال سنوات الجامعة، وبعد ذلك، عندما ساعدتني ورشحتني معها في عملها في البنك، حين تعرفت على «شريف» وجعلها تترك البنك، لتعود لي بعد الطلاق ونصبح أكثر قربًا، ثم يأتي اليوم الذي اعترفتُ فيه بحبي لها منذ أربعة أعوام، لنتزوج بعدها بعام واحد..

انتفض جسدي، وعلى الرغم من عدم منطق ما أفعله، لكني قلت برجاء:

- ابعد عنها يا «عيسى»..

شعرتُ أنني أريد أن أذهب إلى كل من قال لي ابتعد عنها وأقبِّل رأسه معتذرًا، خاصةً أبي وطليقها الذي حاول تحذيري ولم أسمعه..

زفر «عيسى» في ملل، بدأتُ أشعر أنه فقد شغفه بلعبتنا، هذا الفيديو بدا لي كأنه يريد شخصًا ليتحدث معه ليس أكثر، ارتسم على ملامحه الحزن ثانية، عاد عقله إلى السؤال نفسه الذي بدأ به، لكنه قال:

- أنا مش عارف إيه هدف اللي أنا بعمله..

وأشار لي مكملًا:

- أنا مش ضامن حتى إني أوصل لسنك.. ولو وصلت مش ضامن هابقى فاكر ولا ناسي.. بامشي ولا على كرسي متحرك.. إحساس ماحدش هيفهمه غير اللي جواه..

ونظر إلى السقف لحظات، ثم أطلق زفرة طويلة وهو يقاوم البكاء، قال فجأة:

- أنا بقالي معاك قرب الـ٨ شهور.. باقرأ مقالات إنك ازاي تعالج شخص مكتئب بسبب مرض مُزمن.. ازاي تشتت عقله وتغيّر عاداته كلها.. ازاي تخليه يعمل نشاط جسدي وذهني.. عشان كدا عملت لعبة الكنز دي.. عشان لما تجبر نفسك تتحرك وتفكر بتبقى أحسن.. ماتستسلمش لكسل بُعد وكُره الاكتئاب.. عملت كل حاجة باعملها عشان أشيلك من اللي انت فيه.. بس فيه حاجة ماعملتش حسابها خالص..

وهبطت دمعته وهو يقول:

- إن أنا الشخص دا..

ونظر إليّ وقال بصوت مرتجف:

- إني بدأت أفهمك من دلوقتي.. بدأت أبقاك.. بدأت أخاف من الموت.. بدأت أشوف مافيش أي حاجة ليها لزمة ولا داعي.. وإني لوحدي قوي.. عشان كدا فاهمك.. أنا حاسس إني عاوز أموّت نفسي..

وأمسك رأسه في قوة وهو يقول:

- دماغي اللي فيها أمل وإصرار وإحساس إني ممكن أغيّر في كل حاجة حواليّا دي بتوجع.. الإحباط بيوجع وبياكل من روحك..

وأكمل وسط بكائه، لكني كنت أفهم كلامه تمامًا، وأشعر أن كلامه يعبّر عن كل ما بداخلي الآن بالفعل:

- كل حاجة جوايا عاوزة تقتل الأمل دا وأبقى زي بقية الناس، عايش عشان ناس تانية؛ فأنا فاهم إنك ممكن تكرهني؛ لأني كارهني قوي.. عاوز أقول لدماغي: كفاية هبل وأمل.. انت عادي، وزيك زي غيرك.. كدا كدا هنموت، فنحارب ليه؟! نعيش يومين ونتجوز ونخلف ونربي عيالنا وخلاص على كدا..

وخفتْ صوته، ما جعله يتحوّل إليّ بالتدريج

- أنا مش مستحمل الوجع المستمر دا.. الناس فاكرة إن وجع الحب والدنيا والموت هو اللي بيغيّرهم.. بس أنا اكتشفت إن وجع الأمل أسوأ منهم كلهم.. إنك تشوف إنك حاجة حلوة ومنورة وكل حاجة حواليك بتقولك إنك عادي وهتموت من غير ما تعمل حاجة بتقتلك.. وأنا مش مستحمل.. أنا هاقتل الفكر دا في دماغي وأحاول أبقاك.. هاستسلم شوية وأرتاح لفكرة إن مافيش أمل..

وأخذ نفسًا عميقًا، وحاول أن يربط جأشه، وقال بلهجة عملية:

- عمك «جاهين» قال: «يأسك وصبرك بين إيديك وانت حر....».

تذكرتُ الرباعية وابتسمت، لها معانٍ كثيرة إن بحثت وراءها، أكمل «عيسى»:

- وأنا اخترت دلوقتي إني أيأس.. هارمي كل حاجة باعملها وأحاول أرجع عادي..

انعقد حاجباي وكلامه يضرب قلبي ويؤلمه، أشعر أنني أرى جزءًا مني يموت أمام عينيَّ، أكمل «عيسى» بألمه:

- عشان كدا، الأمر التامن إنك تختار دلوقتي.. أول اختيار إنك تكمل يأس.. تفضل قاتلني جواك وتعيش حياتك زي ما انت عاوز وترمي كل حاجة في الزبالة..

ورفع إصبعين مكملًا:

- الاختيار التاني إنك تحييني جواك.. لو فيه حاجة واحدة بس صح فيّا.. لو عدم وجودي فرق.. يبقى رجعني جواك تاني..

وصمتَ لحظات، شرد تمامًا في الأرض، أراه وهو يدهس روحه بعقبه الذي بدأ يصعد في روحه، رأيت الخوف يسيطر عليه، ابتسمتُ متألمًا مما أرى، وأنا أراه يرتكب أكبر جناية غير مرئية ومحسوسة على مدار التاريخ..

الانتحار النفسي..

ذلك الانتحار الذي يقتل فيك كل ما يميزك، ذلك الوقت الذي تجلس فيه وحيدًا متألمًا من قصة خيانة لشخص رآك عاريًا وخان ثقتك، الوقت الذي تبكي فيه باستمرار من ألم مستمر ولا يشعر بك أحدٌ ممّن حولك، فيحميك عقلك بقتل الجزء المتألِّم..

الجزء الرقيق، الذي من حساسيته يشعر بكل شيء أضعافًا مضاعفة، يحب حبًّا بلا مقابل، يُبدع إبداعًا لا محدود، يشعر بالطبيعة والهواء والطاقة، ذلك الجزء الذي تألَّم أضعافًا مضاعفة..

قال «عيسى» وعيناه المتألمتان تقتلان قلبي:

- أنا تعبت من كل حاجة يا «عيسى» خلاص..

وترك دموعه تهبط بغزارة وهو يقول:

- ومش معايا «عيسى» تاني يشدني..

ابتسم بسخرية على الرغم من بكائه، قال:

- ماعملوش آلة زمن طيب؟

وقال بضعف جعل قلبي يرتجف كطفل تائه يبحث عن الأمان، برجاء حقيقي جعلني أدمع:

-ماينفعش ترجعلي تطبطب عليّا بس شوية.. تقولي إن كل حاجة هتبقى كويسة وتمشي تاني؟

وبكى كما لم يبكِ من قبل..

Why do my words

Always lose their meaning?

What I feel, what I say

There's such a rift between them..

اقتربتُ من الشاشة ووضعت يدي على وجهه الباكي أريد أن أقتحم الشاشة وأحتضنه بقوة لأطمئنه، أخبره أنني معه..

أغمضتُ عينيّ، وبدون خيالي فعلت..

احتضنته بقوة وهو يبكي..

ربتُّ على كتفه وتركته يفرغ كل الشحنة في صدري..

أنا أتقبل ضعفك يا «عيسى».. وأعرف كل الذي أردته في حياتك..

أنت أردت من يتقبلك كما أنت، بكآبتك وجنونك وضعفك وسخافاتك وأمراضك.. في مقابل أن تتقبله بكل ما فيه؛ لأننا نعيش عمرنا كله نبحث عمّن يتقبلنا من دون أحكام، من دون أن يمل من ضعفنا وعاداتنا السخيفة، نبحث عمّن نترك كل حواجزنا أمامنا جانبًا معه ولا يحكم علينا، «أسماء» وعدتك أنها مهما رأت من قبح ستظل تراك كما أنت، هذا فعندما ظهر قبحها تقبلته أنت في المقابل، قلت لنفسك سيأتي الوقت الذي سترد لي فيه ذلك التقبُّل..

لكنها غيّرتك ولم تتقبلك أنت.. بل أرادت تلك الصورة الخيالية عن الزوج المطيع المثالي الذي لا يحلم إلا بما تستطيع أن تقدمه هي..

أنا أتقبّلك يا «عيسى»..

أتقبل كل عيوبك وهفواتك وأخطائك الماضية والتي ستفعلها حتى تصل إليّ..

أتقبل ضعفك ولا أحاكمك عليه..

بل أحبك، وأحب تلك القوة والأمل داخلك، والإصرار على فعل المستحيل في كل من حولك حتى يُظهروا أحسن ما فيهم..

أنت تستحق أن تحيا، ويموت كل شيء آخر..

لأن الحياة من دونك بلا طعم حقيقي..

أغمض عينيك يا «عيسى» مثلي، خذ نفسًا عميقًا..

وأطلق زفيرًا يُنسيك كل ما هو سيئ..

ابتسمتُ وأنا أربت عليه في خيالي، لأجده يربت على ظهري في

He said, "I can't Really seem to read you.."

I just stood there..

Never know what I should do.

سرت قشعريرة في جسدي وأنا أتذكره، دائمًا ما كان يعطي حتى في أتعس أوقاته، لافتقاده ذلك العطاء بلا مقابل، لافتقاده الاحتضان الصافي، كان يعطيه لكل من يقابله، يبكي من داخله ويربت على ظهورهم مهوّنًا آلامهم..

الخطوة الثانية والعشرون لتتعافى من علاقة سامة، كما تقول الكتب: أن تتقبلك كما أنت.. وتحب كل شيء فيك..

لتحدث معجزة لم أتخيل أنها ستحدث في هذا الوقت والمكان..

فتحت عينيَّ لأجد أنه عاد معي..

شعرت بـ«عيسى» يستيقظ داخل كياني، بدفئه وروحه الكاسحة..

ذكريات كثيرة: ذكريات الدراسة، ذكريات الجامعة، ضحكات صافية، عناق أبي، وابتسامة أمي..

ذلك الاطمئنان، تلك النظرة التي تلتقط تفاصيل كل شيء حولي على شكل كادرات سينمائية، وجدتني أبتسم فجأة وأنظر حولي بروح جديدة تمامًا، سمعت صوته داخلي يقول بابتسامة ساخرة:

- إيه الكآبة اللي انت عايش فيها دي؟

ابتسمتُ وأنا أشعر بتلك الطاقة داخلي، نظرت إلى الفيديو، لأجده يمسح عينيه ويبتسم بحنان، قال وهو ينظر إليَّ من خلال الكاميرا:

- تصدق إني وأنا بعبط كان عندي أمل ألاقيك جنبي لابس لبس رجل فضاء كدا وبتقولي أنا رجعت في الزمن مخصوص؟

ابتسمت من براءة ما يقول، ثم اتسعت عيناي في ذهول..

لقد أغلق عينيه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم زفر زفرة طويلة حتى..

ما الذي يحدث؟

فتح عينيه لأحد عينين ألفتهما فترة طويلة..
قال وهو ينظر إليّ بعينيّ، وابتسم ابتسامة هادئة وقال بلا حماس حقيقي:

- شوف اختيارك إيه.. وهاشوفك في الفيديو الأخير.. سلام يا صديقي..

وأظلمت الشاشة تمامًا..

لكني ابتسمتُ في سعادة حقيقية..
سمعت ضحكة «عيسى الصغير» داخلي، شعرت باطمئنان غريب، شعرت الحياة تتسلل إلى كياني، ووجدت نفسي أضحك معه بصوت عالٍ، وأرفع يديّ عاليًا وأنا أصرخ في منتصف الشقة وحدي، كطفل لا يتقيّد بأي وقار:

- أنا لسّه عايش يا ولاد الـ..

وأكملت ضحكي من دون أن أكمل كلمتي..

ضحكة صافية، نقية، بصوت عالٍ من دون أن أبالي..



(٢٠)

وتاسع الكنوز.. وآخرها

نوح راح لحاله والطوفان استمر
مركبنا تايهة لسّه مش لاقية بر
آه م الطوفان وآهين يا بر الأمان
ازاي تبان والدنيا غرقانة شر؟
عجبي!

صلاح جاهين

وقفت أمام المرآة الطويلة التي وقفت أمامها منذ أسبوعين..

ضحك «عيسى» داخلي، سمعت ضحكته وهو يقول:

- كبرت قوي يابن الكئيبة..

طال شعر ذقني، لم ألمسه منذ أسبوعين وأكثر بكثير، أعجبتني حريته وتناثره، نقص وزني قليلًا، هالات سوداء تحت عينيّ وتجاعيد بسيطة بدأت تظهر حول عينيّ، وانتشر الأبيض في معظم شعري..

بالفعل كبرت، سمعت «عيسى» يقول:

- ماتشغّلنا حاجة بدل الصمت الأزلي دا..

أمسكتُ هاتفي، قلّبت في أغانٍ كثيرة، قلتُ مبتسمًا من دون أن أحرك شفتيّ:

- سمعت الأغنية دي قبل كدا؟

لأسمع صوته في عقلي يقول ضاحكًا:

- ما أنا انت.. أنا رجعت آه بس انت ما افتنتش لسه.. أكيد سمعتها قبل كدا وأنا جوّاك..

ضحكت من بلاهة أفكاري، نظرت إلى ملابسي في المرآة، وأنا أدرك أنه على الرغم من شحوب ملامحي والهالات السوداء، فإن عينيّ استعادتا بريقًا لم يكن موجودًا منذ فترة..

إصرار وعناد غريب..

سمعت صوت جرس الباب فتعجبتُ، كان الوقت متأ... لا أنتظر أحدًا، انقبض قلبي وأنا أذهب بخُطى بطيئة، متوقعًا أن أحد...

ما تم إرساله من قِبل خال طليقتي، لكني ما إن فتحت الباب حتى وجدت «آن» تقف متوترة، انعقد حاجباي في دهشة، وأنا أرى «شمس» و«درية» و«هيثم» خلفها، لم أكُن أعرف أنهم سيأتون الآن..

تحركت تاركًا لهم مساحة للدخول وأنا أبتسم في ترحاب، دخلوا جميعًا ورمقني «هيثم» بنظرة متوترة، جلسوا في الصالة الصغيرة التي لا تحتوي إلا على مقعدين وكنبة، وقالت «آن» بجدية لم أفهمها:

- أنا عاوزة أقولك حاجة يا «عيسى»..

نظرت إلى «آن» التي بدا عليها الحزن فجأة، تأملتُها لحظات، منذ فترة كنت أريد أن أعرف ما بها لكني نسيت، قالت من دون أن تنتظر ردًّا:

- أنا آسفة..

لم أفهم، أو لم أكُن في حالة رائقة لأن أفهم، كنت مستمتعًا بعودة «عيسى الصغير» وطاقته داخلي، قلت بهدوء:

- على إيه؟

نظَرت أمامها ثم نظرت إلى «هيثم»، ابتسمت بحسرة وهي تقول بطريقة سريعة عملية كمن ينجز مهمة ثقيلة على قلبه:

- «شمس» فضلت ماشية ورا حوار التصوير دا زي ما وعدِتْنا..

قالت «شمس» بهدوء، كعادتها، إنها شكَّت أن يكون أحدٌ من وسطنا هو من يخبر «أسماء» بكل شيء؛ لذا فقد فعلت شيئًا ذكيًّا وبسيطًا، سرَّبت معلومة مزيفة عني أنا وسطهم، كل واحد فيهم بمعلومة مختلفة، قالت لـ«درية» إنني سأسافر هربًا ولن أدفع النقود، قالت لـ«ياسين» إنني أخطط للانتقام بنشر صور فاضحة لـ«أسماء»، وقالت لـ«هيثم» إنني استعنت بـ«هاكر» محترف ليعيد لي حساباتي ويخترق حسابات «أسماء»، وبعدها ظلت «شمس» تراقب «أسماء» عن طريق حساباتها الإلكترونية، لتكتشف أن «أسماء» كتبت على «فيسبوك» ساخرةً أنها لن تخاف من المخترقين أبدًا؛ لأنه ليس لديها ما تخفيه.. ثم أغلقت حساباتها تمامًا بعد يومٍ واحد من إخبار «هيثم».. واليوم التالي

فتحتها ثانيةً وأعلنت أنها ابتاعت هاتفًا جديدًا يصعب اختراقه، وأنها أمّنت حساباتها جيدًا..

فعرفت «شمس» أنه «هيثم»..

ابتسمتُ لعبقرية الخطة وبساطتها، تثبت لي «شمس» دائمًا أن صمتها يخفي كثيرًا..

قالت «شمس» بهدوء وهي ترمق «هيثم» بضيق وسط كلامها:

- مافضلش غير إني أراقب وأستنى عشان أتأكد وما ابقاش ظالمة، بس اكتشفت إن «هيثم» كان بيقول لـ«أسماء» كل حاجة.. بيبلّغها بتحركاتنا وبنعمل إيه وكل حاجة بتحصل معاك..

وأكملت بغضب وهي ترمقه بطرف عينيها:

- وهو السبب إن «أسماء» مسكت عليك الحاجات دي كلها..

نظرتُ إلى «هيثم» الذي لم يستطع أن يرفع عينيه أمامي، صوت في عقلي يريدني أن أنفعل، لكن البرود سيطر على مشاعري، هذا الرجل هو المسؤول عن ضغط نفسي لي ولـ«سيرا» لازال مستمرًّا حتى الآن، أعطى لـ«أسماء» قوة جعلت الفيلم الذي حلمت بتصويره ينتهي..

أكملت «آن» بنبرة آسفة:

- ولمّا واجهناه قال كل حاجة.. ومصمم يتكلم معاك قبل ما نقطع معاه كلنا..

أومأت برأسي في تفهُّم وأنا أتعجّب من برودي..

لم أشعر بالمفاجأة، في لحظة خطر ببالي أن في وسطنا شخصًا ما يخبر «أسماء» بكل شيء، ذلك التوافق العجيب أنهم لا يضربون ضربتهم إلا عندما أنهض وأحاول جعلني أدرك هذا، لكنني أدركت ذلك الهمّ الذي كان يبدو على ملامح «شمس» و«آن» منذ فترة، وأدركت لماذا اختفى «هيثم» عن معظم تجمعاتنا في الفترة الأخيرة..

قلتُ بهدوء لـ«آن» على الرغم من نظرتي المباشرة إلى «هيثم»

- طبيعي في وسط أي شلة لازم يطلع واحد خازوق كدا يبهدل الدنيا..
و«هيثم» مش قريب مني أصلًا..

قالت «آن» بنبرة صارمة وهي تتأمله معي:

- انت مش قريب من حد منهم يا «عيسى».. كلهم صحابي أنا.. وحبوك عشان انت صاحبي.. أي أذى يجي منهم يبقى كأنه جاي مني..

ربتُّ على كتفها وابتسمتُ، قلت بهدوء:

- ماتشيليش هم.. انتِ مش مسؤولة عن قرف الناس التانية..

لم يبدُ على ملامحها الارتياح، التفتُّ إلى «هيثم» واتسعت ابتسامتي، قلت:

- فيه إيه؟ اتفضل قول اللي حابب تقوله..

تنحنح «هيثم» لحظات، بدا عليه الارتباك، لكنه حاول أن يتماسك، قال فجأة بحدة كأنما ينفجر:

- أنا بس حبيت أقولك إني مش راجل خاين ولا بابيع صحابي..

أومأت برأسي أن نعم في تفهُّم، أعلم أن ما سيأتي من كلامه سيكون أسوأ، جلستُ بجانب «آن» ونظرت إليه، ليكمل هو قائلًا بالحدة نفسها:

- انت ظلمت البنت دي جدًّا.. وكل اللي بيعملوه فيك مايجيش ربع اللي عملته فيهم..

كما توقعت، سيخبرني بقصة طويلة من تأليف «أسماء» عن تقصيري وسلبي حقوقها، سيتحدث عن خيانات لم تحدث، قال «هيثم» أمام عينيَّ البادرتين وهو يشير إلى «آن»:

- أنا و«حسام» صاحبك اللي عملنا «هاك» على حساباتك.. واحب أقولك إني أنا اللي صوَّرتك مع «سيرا»..

لم أتوقع هذا، لهذا كان «حسام» مرتبكًا حينما قابلته، كان يظن أنني كشفته، أومأت برأسي وحالة البرود مستمرة، ليكمل هو بحدة:

- «أسماء» بنت ناس، كانت بتحبك أكتر من نفسها.. وانت بهدلتها معاك، خليت منظرها زي الزفت وسط أهلها لما طلقتها مرة واحدة. [illegible] حاول يصلح وانت مارضيتش..

قالت «آن» بغضب:

- مين دا اللي خان؟ شفت إيه بعينك؟

ربتُّ أنا على يدها لتصمت، لا داعي للكلام، من حدته في كلامه وغضبه عرفت أن هناك مَن تلاعب بعقله، كما تلاعب بعقلي ثلاثة أعوام كاملة، رد «هيثم» على «آن» بحدة:

- أنا لما خدت حسابات «عيسى».. كان فيه حاجات على «Snapchat».. ليك انتِ و«عيسى» في حضن بعض وبتقولوا كلام زي الزفت..

ابتسمتُ في سخرية رغمًا عني، في حين نظرت إليّ «آن» في قلق، لو حكيت له حقيقة تلك التسجيلات لوقع من الأرض ضحكًا..

عندما تركتْ «أسماء» البيت غاضبة، جاءتني نوبات ذعر أكبر من احتمالي، اختفاء «أسماء» أدخلني في حالة من الرعب لم أشعر بها في حياتي، «أسماء» كانت تزرع في عقلي أنني سأموت وحيدًا من دونها ولن أجد من يرعاني..

في شجار قديم تركتْ فيه البيت، وطلبتْ فيه الطلاق للمرة العاشرة، وجدتها ليلًا ترسل رسائل صوتية لي كي أسمعها؛ لأنني بسبب خوفي من الأزمات القلبية وقتها كنت لا أستطيع أن أنام، وقتها قلت لنفسي كم هي طيبة تحاول أن تلهيني حتى في قمة غضبها مني..

صدّقت أنني سأموت وحدي في أي وقت.. لكن كان الجرح بيننا أكبر من أن أرجوها أن تعود..

لذا، كانت «آن» تأتيني كل يوم حتى تطمئن عليّ، ور[illegible] حالة من الضعف لم يرَني فيها مخلوق، فعلتْ كل شيء تستطيع أن تف[illegible]ي قليلًا.. حتى جاءتني نوبة ذعر قاسية وكنت لا أستطيع أن أتنفس.. استخدمت

«آن» وقتها خدعة نفسية معروفة وهي التشتيت.. فكانت تفتح الكاميرا على تطبيق «snapchat».. ميزة هذا التطبيق أنه يغيّر في الشكل والصوت؛ لذا كنا نصوّب الكاميرا علينا ونمزح.. ساخرين مني ومن «أسماء» ومن «آن» ومن كل شيء حولنا.. كنا نقلد تلك الفيديوهات التي كنت أصورها أنا و«أسماء» ونعرضها على وسائل التواصل الاجتماعي..

ونجح هذا الأمر في تشتيتي تمامًا..

لكن «هيثم» و«حسام» و«أسماء» وخالها، والعالم أجمع، لن يصدقوا أن ما يرونه هو مجرد اثنين من الأصدقاء يمزحان معًا..

أكمل «هيثم» بحدة أكثر:

- والأستاذ «عيسى» نسي أصلًا إن «أسماء» لما سابت البيت كانت بتخش حساباته كلها.. فكل القرف اللي كان بيعمله كانت بتبقى فاتحة وشايفاه قدامها..

ضحكت باستهزاء، فنظر «هيثم» لي بدهشة، قلت متسائلا بسخرية:

- يعني أنا كنت بحب «آن» وفي علاقة معاها؟.. ولا كنت بعط قدامها مع الناس التانية أونلاين؟..

هز كتفه بلا مبالاة، ومال في جلسته أكثر وقال بغضب:

- عارف يعني إيه واحدة لسَّه سايبة البيت مابقالهاش يومين تلاتة، مستنية جوزها يرجع يصالحها، تلاقيه بيعمل القرف دا قدام عينيها؟ تخيل إنها أختك وشوف هتعمل إيه عشان تجيبلها حقها وكرامتها اللي دُستهم برجلك..

ثم صمت «هيثم» تمامًا..

نظرت إليه لحظات، أتأمل ملامحه الغاضبة، وإيمانه العميق بما يقول، ذكرني بنفسي منذ ثلاث سنوات، وطليقها يحذرني ولا أسمعه، نفتل الحالة من التغييب، قالت «شمس» بهدوء:

- فانت حسيت إنك لازم تاخد حقها.. رحت خنت صحابك كلهم..

التفت «هيثم» إلى «شمس» وقال ساخرًا:

ـ أنا ماختش حد.. أنا اخترت أدافع عن الشخص الضعيف في العلاقة..

«أسماء» كل يوم بتعيط من القهرة..

أومأت برأسي في تفهُّم..

ساد صمت تام، لم تؤثر في آخر جملة قالها، «أسماء» تبكي دائمًا، سواء ظالمة أو مظلومة، النسخة من الحكاية التي قالها «هيثم» أعلم تمامًا أن هذا ما يؤمنون به، هم لا يرون على مدار ثلاثة أعوام كيف تسمَّم كل شيء بيني وبين «أسماء»، ولن يرى أحدٌ في فتاة هشة مثل «أسماء» ذلك الدمار النفسي الذي يختبئ خلف هشاشتها..

لكن «عيسى الصغير» داخلي ابتسم..

قلتُ في هدوء وصفاء غريبين:

ـ عامةً، أنا مش زعلان منك يا «هيثم»..

ولأول مرة أدرك قيمة الأمر الخاص بالتسامح، الذي أخبرني به «عيسى الصغير» ولم أفهمه وقتها..

قلت لأول مرة بثقة وقوة:

ـ أنا مسامح..

نظرت إليَّ «آن» و«شمس» في دهشة، لكنهما لم تريا أبدًا ما أراه..

الخطوة الثالثة والعشرون لتتعافى من علاقة سامة: أن تسامح نفسك وتسامحهم.. تقبَّلْ بنفسٍ راضية أنهم مثلك ضحية سم الآخرين.. المسامحة الحقيقية ليست في العودة إليهم.. بل تصالح نفسك على ما فعلوه فيك.. وتتركهم تمامًا..

لو غضبت، وانتقمت، وأذيت.. صرت مثلهم..

صرتَ مثل كل شخص عاش حياته يبث طاقته السامة في نفوس من حوله..

يجب أن أحب نفسي بالقدر الكافي كي أسامحهم، وأدرك أن لهم خالقًا سيحاسبهم حسابًا عادلًا..

البشر نوعان، الأول: إذا خاصم فجر.. والثاني: إذا خاصم «هجر».. سأحارب بكل قواي أن أكون من أهل الثاني وأبتعد عن الأول.. فمن أذى يؤذَ ولو بعد حين..

ومن تخلَّى عاش الجميع يندمون على أثره المفقود داخل أرواحهم..

* * *

مكاننا السحري..

محطة الوقود..

جلسنا أنا و«آن» على حقيبة عربتنا وصمتنا قليلًا، يتسلل الهواء البارد في أطرافنا، وهدوء المكان يلقي السكينة على قلوبنا، قالت «آن» من دون أن تنظر إليَّ:

- متضايق؟

ابتسمت وأنا أقول برضا تعجبت منه داخلي:

- خالص.. مش متضايق أصلًا..

لتنظر إليَّ بتعجُّب، لم تتوقع هذا الرد، نظرتُ إلى عينيها، لتضيِّق هي عينيها وتقول بابتسامة متسائلة:

- أنا تخيلت إنك هتمسك «هيثم» ومش هتسيبه غير على نقالة..

هززت كتفي بلا مبالاة، لا أنكر أن تلك الخاطرة أتت في عقلي كثيرًا، قلت بهدوء:

- مابقتش مقتنع إني من حقي أرد الأذى بأذى..

عقدت «آن» حاجبيها وقالت:

- بس هو أذاك.. دمر كل حاجة..

قلت وأنا أمد يدي وأرسم بإصبعي دائرة في الهواء لأشرح وجهة نظري:

ـ دايرة الأذى مابتخلصش يا «آن».. كل واحد بيشوف وجعه إنه أكبر وجع في الدنيا.. مثلًا أنا هأذيكي مش قاصد.. انتِ تتوجعي فتنتقمي قاصدة.. أقوم أنا أتوجع وأقولك إن أذاك أكبر من أذايا.. فأنتقم انتقام أكبر.. فانتِ تتوجعي.. وهكذا وهكذا ودايرة شر مالهاش أول ولا آخر..

وهززت كتفي في لا مبالاة وأنا أكمل شاعرًا براحة نفسية وبوجود «عيسى الصغير» يدفئ أوصال قلبي ويطمئنني:

ـ بداية الكون كلها بدأت بأذى.. شيطان غيران من إنسان.. اطّرد من رحمة ربنا.. اتأذى وقال إن الإنسان هو السبب.. لو كان ما اتخلقش كان فضل إبليس في الجنة.. ففضل ينتقم طول حياته من الإنسان.. دايرة أذى بدأت من أول ما اتخلقنا..

ثم ضحكتُ ضحكة عالية فجأة، وقلت ساخرًا أمام نظرة «آن» المتعجبة:

ـ تفتكري لو حد راح للشيطان دلوقتي وخده على جنب وقاله عيب اللي بتعمله دا وصلي على النبي.. هيعرف يسامح ويبطل انتقام؟

ضحكت «آن» من طفولة الفكرة، فأكملت أنا ببساطة كلامي:

ـ أعتقد إن أكبر عقاب ممكن ربنا يديه لبني آدم، إنه يخليه مايسامحش؛ لأنه ببساطة بعد فترة بيتحول لشيطان..

وأكملت معيدًا رسم الدائرة في الهواء شاردًا في أفكاري:

ـ الحاجة الوحيدة اللي بتكسر دايرة الأذى دي إنك تسامحي يا «آن».. بس المسامحة الحقيقية اللي من قلبك.. ماتفضليش شايلة من جواكِ وبتقولي إن الموضوع خلص.. تشوفي الناس بعينيهم ووجعهم وتسامحي مهما أذوكِ وعملوا فيكِ.. تسامحي وتلمي اللي فاضل من قلبك وتمشي.. يمكن دا يخنقك ويحسسك بحاجات كتير وحشة.. بس دي الحاجة الوحيدة اللي هتكسر دايرة الأذى في حياتك يا «آن»..

نظرت إليّ لحظات، ثم انحنت وقبّلتني في وجنتي، فربتُّ على يدها، أحب تلك الفتاة بكل ما فيها من تناقضات، هي الوحيدة التي أثبتت لي أن الصداقة لها معنى حقيقي وثابت، اتسعت ابتسامتي، ومددت لها يدي، وأنا أقول:

- هاتيلي آخر جواب..

ابتسمت «آن» في حيرة حقيقية، عيناها تقولان: «كيف عرفت؟»، لكنني أشعر بطاقة «عيسى» داخلي، العين التي تلتقط التفاصيل، العين التي تنظر إلى روحهم فتعرف كل شيء، قلت بابتسامة:

- «سيرا» ماكانتش هتسيب الموضوع مايكملش.. وأنا ماشي سايبتلي الفلاشة في جيبي.. وأكيد سابت معاكِ الباقي..

ابتسمت بسخرية، ووضعت يدها في حقيبتها الصغيرة وأخرجت الخطاب، لأبتسم وأنا أنظر إليه، آخر خطاب لي في حياة «عيسى القديم»..

فتحت الخطاب مسرعًا، ووجدت «آن» تنهض وتمسك هاتفي لتصوّرني، لم أعترض وبدأت أقرأ أطول الخطابات وآخرها..

الذي لم أكتبه لـ«عيسى الكبير» هذه المرة..

بل كتبته لها..

لـ«سيرا»..

* * *

«نوح راح لحاله والطوفان استمر.. مركبنا تايهة ولسَّه مش لاقية بر».

عزيزتي «سيرا»..

أعرف أنكِ لم تصبري..

وأنا أخبرك أن آخر خطاب هو الوحيد المسموح لكِ بقراءته، أعلم أن فضولك لن يحتمل حتى تعودي إلى منزلك وتقرئي الخطاب، أعرف أنك تقرئينه الآن في عربة والدك والسائق يحاول أن يعرف لماذا تبكي..

البارحة، اعترفتُ لك أنني أحبك..

واعترفتِ لي أنك تحبينني..

لأدرك، بعد روعة تلك اللحظات البسيطة، التي شعرت فيها أن كل شيء في مكانه الصحيح، فداحة الخطأ الذي نرتكبه..

أكتب أليكِ الآن بآخر ما تبقّى من «عيسى» الذي عرفتِه منذ طفولته..

أتذكر عندما أجبرتني أمي أن أجلس بجانبك في أول يوم لي في المدرسة.. أتذكَّر جيدًا أنني كنت خائفًا، لا أدري ما الذي أفعله، لأجدك تبتسمين لي ابتسامةً حنونًا، تمدين يدك لي وتقولين بفخر طفولي: «اسمي (سيرا)».. لأبتسم قائلًا: «وأنا (عيسى)».. وينتهي كل شيء.. نسيت خوفي أمام عينيك الحنونين وأنت تحاولين أن تلهيني بكلامك الكثير وقصصك التي لا تنتهي..

وأصبحنا صديقين..

بل أصبحنا لا نفترق..

علم الجميع أن هناك قوة لا يُستهان بها، اسمها «سيرا» و«عيسى»، ولن ينجح في تفريقنا أحد؛ لأننا عشقنا تمردنا على كل ما حولنا..

رأيتك تتحولين إلى شخصية رائعة، رأت في حياتها ما رأت من ابتعاد، من أحزان، من فراق، ومن خذلان مقربين، وبدلًا من أن تبكي.. أفرغت ألمها كله في التمثيل، كما أفرغتُ ألمي كله في الإخراج..

أتذكرين اتفاقنا أننا لو وصلنا إلى عمر السادسة والثلاثين، ولم نكُن قد تزوجنا، سنتزوج أنا وأنتِ؟

كم من المرات شعرنا أننا نحب بعضنا البعض؟ كم مرة أخبرتك أنني أحبك؟ وكم مرة أخبرتِني أنتِ أيضًا؟ وفي كل مرة ندرك تمامًا أن ما بيننا أعظم وأسمى بكثير من قصة حب قد تنتهي فنخسر صداقة سنموت من دونها؟ ولهذا عقدنا ذلك الاتفاق.. لو لم نعثر على الحب وعلى من يحتوينا طول تلك المدة.. هذا هو أكبر دليل أننا لن نكون إلا لبعضنا البعض..

وكنا نعلم أننا نختلف..

أتعلمين لماذا أقول دائمًا إننا «هدهدان»؟

كنت تتعجبين مني عندما أطلق علينا هذا، لكنك تسايرينني..

الهدهد طائر تم تكريمه في قصة «سليمان».. وهو ملك للطيور؛ لذا أطلق علينا أنا وأنتِ أننا هدهدان، لكن لم يتم اكتشافهما بعدُ..

نختلف عن كل مَن حولنا في تفاصيل بسيطة، لكنها جوهرية، أتخيل دائمًا أننا داخل قصة من فيلم رسوم متحركة، عن هدهدين تربيا وسط مجموعة من البطاريق، فلم يعرفا أنهما يستطيعان التحليق، ويعيشان في مناخ من البرودة القاتلة، يضطران أن يسيرا في جماعة ويتصرفا كجماعة من دون تفكير، لكن بداخلهما ذلك اليقين، أنهما يستطيعان التحليق..

ولا يصدقهما أحد من البطاريق..

أعرف أنني خيالي، لكني أرانا هكذا، أو كنت أرانا هكذا..

فأنا تعبت يا «سيرا»..

أنا أريد أن أقتل كل ما يرغب في التحليق داخلي..

لهذا قلت لك إن هذا آخر لقاء بيننا.. وإن التفسير في هذا الخطاب..

أنا أعترف أنني لم أعُد «هدهدًا» يا «سيرا».. أنا الآن مجرد بطريق آخر.. يراكِ تتعلمين التحليق بعيدًا.. ولا يستطيع إلا أن يودعك..

مرت شهور منذ أن دخلنا الجامعة، لم أعُد أراكِ ولم نعُد نعرف كيف نلتقي، وعندما ابتعدنا، ورأيتك تتألقين في عالمك في معهد السينما، أدركتُ أنني أضعف من أن أكمل ذلك الحلم..

ولهذا ودعتك اليوم..

أنتِ آخر أمل في التحليق يا «سيرا»، وجودك يؤلمني ويشعرني بعجزي أكثر.. لو بقيت معك في حياتك سأكون منهم.. ممن يقنعونك بأنك لن تحلقي أبدًا.. لأننا مخلوقات تخاف الوحدة.. تسير في جماعة.. وتحليقك وحيدة يقتل ذلك اليقين داخلنا..

«مشروع الـ١٨» سيكتمل بهذا الخطاب، وضعت لك في علبة معدنية كبيرة خريطة الكنز، وضعت حلول كل الألغاز، وضعت لك كل شيء يتعلق بهذا المشروع كرسالة وداع..

أتدرين لماذا أثق معك أنت بالذات بهذا المشروع؟

لأنه أقوى اختبار لذلك الحب الذي اعترفنا به البارحة..

لأن أنثى الهدهد تستطيع العثور على المياه في باطن الأرض، اعتبرها العرب سر الحياة.. وأنا أراك في عيني سر الأمل في التحليق..

فكما انتزعتِ عني الخوف في أول يوم في الدراسة.. وعرفتِ كيف تدعمينني طول حياتك.. أعرف أنك الوحيدة على وجه الأرض التي ستستطيع أن تعيدني لي بعد ثمانية عشر عامًا من الموت..

ستعثرين على «عيسى» الذي تحبينه.. داخل ذلك الرجل الذي أهلكه المرض والضغط النفسي..

لو مرَّ هذا العمر، ووجدت نفسك وحيدة، لا يفهمك أحد، وأتيتِ لي بكل شيء، اعلمي أن هذا اعتراف منكِ بأنك تحبينني، كما اتفقنا فيما مضى..

لو وصلنا إلى هذا العمر. ووجدتِني متزوجًا وأبًا، وسعيدًا وقانعًا بما أنا فيه، لا تقتربي من حياتي.. اتركيني أحيَ حياة البطاريق راضيًا.

لا تعيدي الأمل بكل ألمه.. واتركيني تائهًا أقبل قيود الأرض مستسلمًا..

لكن لو لم يكُن في حياتي من أحبهم، لو عرفتِ أنني وحيد تمامًا، اعلمي أن هذا اعتراف صريح مني أنني ما زلتُ أحبك يا «سيرا».. أنني لم أجد من يحتوي «الهدهد» بداخلي.. وأنني على الرغم من إيماني بموتي...

فإن قلبي ما زال يعشق التحليق..

ما زال يعشقك..

تذكريني دائمًا..

أحبك يا أعز صديقة لي..



أراك بعد ثمانية عشر عامًا..

وبعد كل هذه الألغاز أقول لكِ يا «سيرا»، هذا آخر اختبار لـ(عيسى الكبير)..

إذْمَا يعشق.. يجدك.».

* * *

نظرتُ إلى الخطاب مبتسمًا، لا أستطيع أن أمنع تلك القشعريرة التي تسري في جسدي..

لقد أتت «سيرا» بعد كل هذا العمر..

نظرتُ إلى «آن» نظرة حانية، لأجدها تبتسم وتنظر إليّ، أغلقت التسجيل وعادت لتجلس جانبي على حقيبة العربة..

ننظر إلى ذلك المكان الواسع، بأعين شاردة..

قالت «آن» بنبرة متسائلة:

ـ الجواب دا مافيهوش لغز.. مافيهوش رباعية.. هتحلّه ازاي؟

ابتسمتُ وأنا أتذكر كل شيء:

ـ عشان «سيرا» هي حل اللغز.. «سيرا» هي آخر كنز..

نظَرَتْ إليَّ غير فاهمة، ثم قالت بابتسامة:

ـ انت متأكد؟

قلت بيقين:

ـ اللغز دا أصعب واحد عشان مافيش لغز.. بس «سيرا» كانت اللي هتعرف تحله معايا..

أومأت برأسها أن نعم، لا أدري ما المطلوب مني فعله تحديدًا، لكني تذكرت وجه «سيرا» عندما جاءت لي في البداية منذ أسبوعين، حماسها ومزاحها معي، ابتسامتها المشرقة وهي تقول: «أنا نفذت الوصية بعد السنين دي

كلها».. لم تكُن تقصد المشروع..

كانت تقصد أنها عادت لأنها لم تجد نفسها من دوني..

ارتجف قلبي في صدري..

أشعر أنني أريد أن أركض إليها الآن، أحتضنها ولا أتركها أبدًا..

أمسكت هاتفي وطلبت رقمها، وكما هو متوقَّع، لم ترد..

بدا على «آن» التردد لحظات، نظرتُ إليها متسائلًا فقالت بحرص وهي تنظر إلى الأرض:

- ممكن أعترف بحاجة بس ماتزعلش وماتفهمش غلط؟

قلتُ ساخرًا وأنا أبتسم:

- بتحبيني انتِ كمان؟

لوت شفتيها بامتعاض وقالت باشمئزاز:

- لأ طبعًا، إيه القرف دا؟!

ثم صمتت وتنحنحت، وقالت بتردد..

- أنا متعاطفة مع «أسماء».. وفاهمة هي بتعمل كل دا ليه..

صمتُّ تمامًا وأنا أنظر إليها، لتكمل هي بنبرة دامعة:

- فاكر لما جيت عشت معاكم فترة؟

أومأت برأسي إيجابًا، «آن» كانت تعيش وحدها منذ فترة طويلة، كانت هناك مشكلة في إيجار إحدى الشقق، فطردها المالك بأسلوب قذر، لتجد نفسها فجأة بلا بيت، لتعرض عليها «أسماء» أن تعيش معنا حتى تجد مكانًا آخر.. واستضفناها في بيتنا قرابة أربعة أشهر..

وكان هذا قبل طلاقنا بفترة قصيرة..

ما لم تكُن «آن» تعرفه أن «أسماء» عرضت الأمر علينا وعارضناها جميعًا؛ كنا نعلم - أنا وأبي وأمي وأهلها - شكها في كل شيء؛ لذلك كانت استضافة

فتاة في بيتنا بمثابة جحيم حقيقي لكل شكوكها، لكنها كانت مصرة على أن تثبت للجميع أنها ليست مريضة، وأنها تثق بي وبـ«آن» وبعلاقتنا النظيفة..

لتملّ «أسماء» من وجودها بعد قرابة ثلاثة أسابيع، ما لا تعرفه «آن» أن «أسماء» جعلت حياتي جحيمًا، تهدد كل يوم أن تخبر «آن» أن تنصرف، لكنني حاربت؛ لأننا أكدنا لـ«آن» أنها مُرحَّب بها حتى تجد شقة أخرى..

قالت «آن» بهدوء:

- انت كنت ميت يا «عيسى».. كنت معاها بس مش معاها.. دايمًا تايه وزعلان وقرفان من حياتك.. «أسماء» قعدت كتير تعيط في حضني وتقولي قد إيه هي بتتعب كل يوم عشان تبسطك وانت مش حاسس..

وأكملت «آن» كلامها الصريح الصادق من القلب..

ما قالته «آن» إنني كنت زوجًا باردًا.. أستسلم لراحة المرض وانتظار الموت.. إنني كنت صديقًا رائعًا، أسخر وأمرح وأضحك، لكنني كنت زوجًا محبطًا، باردًا، يرفض أن يستمتع بالحياة..

قالت «آن» إن «أسماء» تحدثت معها كثيرًا.. تشكو لها أنها لا تستطيع أن تسيطر على غيرتها بسبب تعاستك معها.. كانت تعلم أنها السبب في تلك التعاسة.. أو على الأقل تعلم أنها لن تكون الشخص الذي سيُخرجك منها مهما حاول..

قالت «آن» إنه لا يوجد أصعب من إحساس المرأة عندما تشعر أنها غير كافية لإنقاذه من كآبته ليستمتع بالحياة؛ لذا كانت تعرف أنها تقتلك بحبها إياك.. لا تستطيع أن تتركك ولا تستطيع أن تمنع نفسها من الشك والغضب..

ما قالته «آن» إن «أسماء» كانت تصرخ وتضرب وتسب ليس لأنها تكرهني.. ولكن لأنها تعشقني وتعرف أنها ستخسرني في النهاية ولم تكُن تدري ماذا تفعل..

وقالت «آن» إن «أسماء» تفعل كل هذا الآن لأنها ما زالت تحبني.. ولا

تفهم كيف تركتُها أنا بتلك السهولة بعد حرب دامت أربعة أعوام.. وكيف لم يفرق بُعدها عني بهذا الشكل! ولهذا تكره «آن» وتكره «سيرا» وتكره أي شخص يقترب.. مقتنعة تمامًا أنهم السبب في أنني لم أعُد حتى الآن..

قالت ما جعلني أدرك، لأول مرة في حياتي، أنني كنت الشخص السام في العلاقة.. وليس «أسماء»..

ارتجف قلبي من الخاطرة في خوف، ليجيبني عقلي إجابة بسيطة جعلتني أفهم وأهدأ قليلًا..

هناك فارق واحد فقط يجعلني أختلف..

نظرتُ إلى «آن» لحظات، بداخلي القرار يتصاعد رغمًا عني..

مللتُ من كل ما يحدث.. لا بُدَّ من نهاية تغلق كل الأبواب المفتوحة داخلنا..

نهضت من جلستي، وقلتُ لها باقتضاب:

- تعالي معايا..

* * *

نظرت إلى عينيها الواسعتين الخضراوين، إلى وجهها أبيض اللون، إلى جلستها المتوترة تقاوم البكاء بصعوبة، تخشَّب جسدها وعقدت ذراعيها حول صدرها، تأملتها بشحمها ولحمها لأول مرة منذ شهور..

نظرت إلى «أسماء»..

الخطوة الرابعة والعشرون للتعافي من علاقة سامة، كما تقول الكتب: واجه الشريك لو أتت الفرصة.. لكن لا تواجهه قبل خطوة المسامحة حتى لا ترتكب خطأ العودة.. لا تواجه إلا قبل أن تتخلَّص من السم تمامًا.. واجهه وانظر إلى عينيه وقل كل ما بداخلك.. صفحة تضع نقطة النهاية بإرادتك أنت فقط..

لم تصدق «آن» عندما وجدتني أوقف العربة تحت بيتها، تركتُ العربة لها حاملًا الكيس الذي ذهبت إلى محل ألعاب مشهور خصيصًا لآتي به،

وطعتُ مسرعًا، لأصعد إلى شقتها، أضرب الجرس، وتفتح لي أمها، التي تسمّرت في مكانها، ثم ارتسم على ملامحها الغضب، وهمّت بإغلاق الباب، لكن «أسماء»، التي لمحتني، جعلتها لا تفعل..

ودخلت الشقة التي كنت أدخلها على أنها بيتي الثاني فيما مضى، حالة من الصمت سادت، قالت أمها بنبرة مستهزئة:

- خالك قالك هايجيلك لحد عندك راكع..

قلت لـ«أسماء» متجاهلًا أمها:

- أنا عاوز أخلّص كل حاجة..

رحمة الله على والدها، كان سيستقبلني استقبالًا آخر لطيبة قلبه، كان قلبي يثب في صدري، صاح «عيسى الصغير» داخلي بسخريته:

- حد يطلّق القمر دي؟ انت مجنون يابني؟

تجاهلتُه وأنا أنظر إلى عينيها اللتين تقاومان البكاء، جسدها الذي يقاوم أن يركض ويحتضنني، قلت بهدوء وهي صامتة كقبر، داخلها كل شيء يكرهني ويحبني في الوقت ذاته، كما يكرهها كل شيء داخلي ويعشقها:

- خلينا نتكلم ونخلص كل حاجة..

أومأت برأسها من دون أن تتكلَّم، ثم نظرَتْ إلى والدتها برجاء، بدا على الأم الغضب وهي ترمقني باحتقار؛ لهذا يدمر الأهل كل شيء، ذلك العشق غير العادل لأولادهم..

تركتنا وحدنا، في بادرةٍ تعجبتُ منها، الرجاء في عيني «أسماء» جعلها ترضخ، تذكرت الآن أن على الرغم من كل شيء فإن أهلها يعشقونها، هي ابنتهم الوحيدة، أدركت لأول مرة أن كل ما فعله الخال فيما كان بسبب عشقه إياها، صدّر نفسه في كل تلك الأحداث حتى نصب كراهيتنا عليه، ولا يمس فتاته الضرر..

أدركت أن قصتي نفسها من وجهة نظرهم تحمل كثيرًا من المشاعر

المتناقضة، عائلة تحاول أن تترابط بعد صدمة طلاق ابنتهم، فيها ما فيها من الحب والانتقام والتضحيات، ولحظات البطولة ولحظات الخيانة..

توقعت أنني سأجلس تلك الجلسة معهم جميعًا..

أشارت «أسماء» إلى الشرفة الواسعة، تلك الشرفة التي شهدت كثيرًا من الحب الصافي، ذهبنا معًا لنجلس جلستنا القديمة، كانت صامتة تمامًا لا تدري ماذا تقول..

لم يعلم أحدٌ أن «أسماء» لم تتغيَّر، ربما هو أكبر عيب وأكبر ميزة جعلتني أعشقها..

داخلها طفلة لم تستوعب قبح العالم بعدُ، عقلها لم يستوعب بعدُ أنها لم تعُد طفلة، تدليل الأهل غير المنطقي جعلها طفلة في ثوب امرأة، والطفل فيه مميزات كثيرة رائعة، لكنه أتاني إلى أقصى درجة..

أخرجتُ من الكيس الأبيض علبة، فتحتها على الفور وأخرجت ما فيها، قلت مبتسمًا بهدوء:

- دي لعبة جهاز كشف الكدب، معمولة للكبار بس، بيقيس نبضي ويقرا لو باكدب..

نظرت إليَّ في عدم فهم، لم أستطِع أن أمنع ذلك الاعتياد الذي كنت أحدث به زوجتي فيما سبق، فقلت:

- بس الحلو بقى إني لو باكدب بيعمل كهربا بتوجع جدًا في إيدي.. فانتِ هتعرفي إني باكدب..

رغمًا عنها ابتسمت إعجابًا باللعبة، الطفلة داخلها اهتمت بجهاز كشف الكذب، بدت لغة جسدها أكثر راحة، كانت فكرة «عيسى الصغير» وأنا في الطريق إلى هنا، نفذتُها على الفور من دون تفكير..

طول فترة زواجنا كانت تخبرني أنها تريد أن تضعني تحت جهاز كاشف للكذب؛ لأنها تشعر أنني دائمًا ما أخفي شيئًا ما..

قلت وأنا أرتدي الجهاز على ذراعي وأوصله بقابس الكهرباء، وأضعه على المنضدة الصغيرة:

- اسألي كل حاجة انتِ عاوزاها.. وعاوزة تفهميها.. وأنا مش هاعرف أكدب..

نظرت إليَّ لحظات، أعلم أن عقلها ما زال يستوعب أنني أمامها، تنحنحت وقالت مستعيدةً شخصيتها التي تحاول دائمًا أن تبدو لا مبالية، على الرغم من عواصف مشاعرها بداخلها وحساسيتها المفرطة:

- أنا مش عاوزة أعرف حاجة.. انت ماتهمنيش في حاجة أصلًا..

لأبتسم وأنظر إليها نظرة تفهمها، كفانا ادعاء، كفانا كراهية، لن تفعل سوى أن تحطِّمنا أكثر، نظرَتْ إلى الأرض لحظات، بدأت يدها ترتجف لصعوبة الأمر عليها، لو كنت زوجها كنت احتضنتها مهونًا كما كنت أفعل، نظرَتْ إلى الجهاز بشكها المعتاد وقالت:

- وأنا إيه اللي يضمن لي إنه شغال؟

قلتُ بابتسامة واسعة:

- أنا اسمي «حمادة»..

ليتحوَّل النور الأخضر في الجهاز إلى نور أحمر، ثم تسري شحنة كهربائية لم أتوقَّع أن تكون مؤلمة لتلك الدرجة في إصبعي، فصرختُ في ألم حقيقي وأنا أنتفض..

ابتسمت «أسماء»، فابتسمتُ أنا أيضًا، شعرت أن هناك أشياء مهما اندثرت بالكراهية ستظل موجودة..

لقد كنا صديقين قبل الزواج.. وكنا نحب بعضنا البعض حبًّا ليس له علاقة بالتحكمات..

قالت بصوت مختنق:

- انت ليه ماكلمتنيش خالص قبل الطلاق أو بعده؟

قلت من دون تفكير:

- خالك خلاني أقسمله إني عمري ما أكلمك ولو باموت، عشان انتِ مش مستحملة.. وخلاني أوعده بدا.. أنا استغربت ساعتها بس احترمت الموضوع..

نظرت إليّ لحظة، قالت لي بنبرة ساخرة:

- وانت من إمتى بتسمع كلام حد؟

فكرتُ في كلامها، منطقها صحيح؛ لذا قلت من دون مواربة:

- كنت أنا كمان مستهلك.. خايف لو كلمتك أضعف وأرجعلك..

فوجئت «أسماء» من الرد المباشر، اتسعت عيناها في ارتباك، قالت بحيرة:

- وإيه المشكلة لو كنا رجعنا؟

بدأت أتوتَّر، النساء لا يُحببن الصراحة، درس تعلمته بأقسى أسلوب ممكن في حياتي مع «أسماء»، قلت وقد نويت أن أعترف بكل شيء كما أوصاني «عيسى الصغير»:

- أنا وانتِ بيسمونا في علم النفس علاقة «toxic».. علاقة مؤذية وسامة.. كل واحد فينا لوحده كويس جدًّا.. لكن إحنا مع بعض بنطلع أوسخ حاجة في بعض.. كنا بنستهلك بعض قوي وبنموت بالحياة..

بدأت تهز قدمها في عصبية، قالت وقد بدأت الشخصية الشكَّاكة في التحدث، تلك الشخصية التي كنت أكرهها عندما أشم رائحتها في أي شجار، الشخصية التي تنبئ بقدوم مصيبة:

- إحنا كنا كويسين لحد ما جت «آن»، بنت الكلب، بوَّظت كل حاجة.. خدتك مني وخدت بيتي وبتلف عليك لحد دلوقتي..

أغمضت عينيَّ محاولًا أن أهدِّئ نفسي قليلًا، تلك الضلالات التي كنت أواجهها يوميًّا، «كنا كويسين» كلمة مضلة، كنا أسوأ ما في الحياة، لكنها لن تعترف بهذا حتى لو ماتت، قلت بنبرة هادئة:

- أنا جاي أقولك الصراحة.. هاقولك كل حاجة كدبت عليكِ فيها..

عشان أنا زهقت من الكدب..

نظرت إليّ بتساؤل حقيقي، تنتظر مني اعترافًا بأنني خنتها أخيرًا، اعترافًا بأنني الشخص القذر الذي تحاول أن تصدق أنني هو، والذي يقنعها خالها أيضًا أنني أقذر من كل ما في خيالها، قلت حاسبًا كل كلمة أقولها:

- أنا وانتِ اتغيرنا.. مشينا في طريقين.. أنا عاوز أبقى حر.. وانتِ خفتِ من الدنيا والناس وبقيتِ عاوزانا نعيش في أوضة ومانطلعش براها..

وأشرت بإصبعيّ لاتجاهين مختلفين وقلت:

- ولما كل واحد احتاج طريق.. بقت العلاقة سامة ومضرة ومهلكة.. عشان عشنا تلات سنين كل واحد فينا بيشد التاني عشان يمشي في الطريق اللي محتاجه..

همّت بالاعتراض، لكنني اعترفتُ بما لم أخبرها به أبدًا:

- انتِ من يوم ما حاولتي الانتحار وقررتي تسيبيني وأنا مش عارف أحبك تاني..

بُهتت من الرد، بدا عليها عدم التصديق، أشاحت بيدها وقالت بعصبية:

- انت هتمسكلي الحوار دا وتذلني بيه؟ ما قلنا ماكنتش في وعيي..

لم أبالِ بردها العصبي، قلت وأنا أشعر بارتياح الصراحة يجتاحني:

- أنا فضلت في ضهرك بعدها.. قلتلك إني مسامح.. قلتلك إني شايفك أحسن واحدة في الدنيا.. بس أنا كنت باكدب..

وبدأتُ أنفعل قليلًا، قلت أمام عينيها غير المصدقتين:

- أنا شفتك خاينة.. خنتي كل الوعود اللي بينا إنك مش هتسيبيني.. طول عمري باقولك أنا وانتِ في ضهر بعض ضد كل العالم.. بس الضربة في ضهري جت منك انتِ.. من يوم ماشفتك بتموتي قدامي وأنا عرفت إني عمري في حياتي ما هاعرف أحبك تاني..

وأكملتُ بحرقة ولكن بصوت خافت، وأنا أشير إليها بإصبعي:

- انتِ بتعملي اللي بتعمليه كل مرة.. بتنسي كل حاجة وحشة انتِ عملتيها.. وتروحي ترمي اللوم على حد تاني..

ونظرت إلى عينيها مباشرة، رافعًا يدي الموصولة بالجهاز، وقلت بصرامة وثقة:

- أنا عمري ما حبيت «آن» ولا خنتك معاها.. ولا مع أي واحدة غيرها..

نظرت «أسماء» إلى النور الأخضر بتلقائية، انتظرَتْ أن تسير شحنة كهربائية في يدي، لكني أكملت:

- انتِ كنتِ بتكرهي مرضي.. بتكرهي برودي.. بتكرهي إني مش حر وأنا معاكِ.. وكنتِ خايفة تسيبيني.. وأنا كنت خايف أبقى لوحدي.. فمابقيناش بنحب بعض.. بقينا اتنين خايفين من كل حاجة مع بعض.. فبقينا عاملين زي اللي محبوسين في أوضة ومش طايقين بعض بس مش عارفين نخرج منها عشان خايفين..

قالت «أسماء» بحدة وقد بدأ صوتها يعلو، ألمها يظهر في عينيها واضحًا:

- انت كداب.. الجهاز دا بايظ.. أنا شفتك بعيني وأنا لسَّه سايبة البيت من يومين تلاتة بتكلم ناس في قلة أدب وقرف.. بتقول عني كلام زي الزفت.. انت اتصرفت كأني ولا حاجة في حياتك، كأنك ما صدقت إني أمشي..

أومأت برأسي أن نعم، لم يعُد هناك مجال للكبر:

- وكنت غلطان.. وآسف جدًّا فوق ما تتخيلي على دا..

بُهتت من الرد، لم تتوقَّع اعترافًا سهلًا وبسيطًا، ذهبت عيناها ثانية إلى النور الأخضر كي تتأكَّد، لكني قلت بصدق:

- الواحد وقت الوجع بيعمل أي حاجة تخفف الوجع دا.. وأنا طول عمري باهرب.. بُعدك عني كان وجعه قذر.. انتم صح.. كان لازم أستنى

بعد الطلاق الرسمي عشان أعمل اللي أنا عاوزه.. بس أنا وانتي عارفين إنك من ساعة ما سبتي البيت وأنا مش عاوزك ترجعي تاني..

صرخت فجأة كما اعتادت أن تفعل عندما تتألم:

- وأنا؟ مافكرتش فيا ليه؟ أهلي اللي كلهم بيغلطوني عشان كانوا شايفينك راجل محترم وجميل.. كلهم بيقولولي أرجعلك.. أنا اللي سبت بيت كنت فاكرة إني هاعيش فيه بقية عمري.. سبت جوزي اللي كنت بارتاح في حضنه.. كل حاجة اتشقلبت في ثواني.. وانت رايح تغلط وتحضن وتبوس.. فين العدل؟

نظرت إليها لحظات، لتكمل هي باكية:

- أبوك اللي كنت شايفاه زي أبويا، وهو بيقول عليا إني مابخلفش، ويقول إني كنت باعداك عن أهلك.. وقال عليا إني كنت وحشة معاهم وإن أنت أحسن من غيري.. ليه عملتوا فيا كدا قدام أهلي؟

نظرت إليها لحظات، ألعن كل شيء وضعني في هذا الموقف، قلت ما أعلم أنها لن تصدقه ولو أقسم مائة جهاز كشف كذب على صدقي:

- أقسم بالله العظيم ماحدش قال عنك كدا.. لا أنا ولا أبويا.. خالك لعبها بدماغه.. عاوز يكرّهك فينا عشان ماترجعيش.. كان بييجي يقول إنك بتقولي إني عاجز جنسيًا وإنك قفشتيني باخونك أربع مرات ومستحملة.. فأبويا يرد عليه يقوله مافيش حاجة اسمها كدا.. يرجع يقولك إننا بنقول عليكِ مابتخلفيش..

ثم أكملتُ وأنا أرجو بكل ذرة في كياني أن تصدقني ولو لمرة واحدة في حياتها:

- خالك دخلها خناقة فلوس.. عاوز يقنع أبويا إني غلطان وإني سبب الطلاق عشان أدفع أكتر.. وعشان كدا ماكانش عاوزني أكلمك.. عارفة إنه قالي صراحة إنه عاوزني أصرف عليكِ بعد الطلاق بس أديله هو الفلوس ويبقى الموضوع بيني وبينه؟!

ثم سألتُها قائلًا بحنان حقيقي وأنا أكره نفسي لما أقوله:

- إيه مبدأ خالك الوحيد في الحياة؟

نظرت إليّ متسائلة، لا أعلم أين يقع كلامي في قلبها، قلتُ بصدق:

- «اعمل اللي عاوزه بينك وبين اللي قدامك لوحدكم.. ماحدش هيعرف الحقيقة فين»..

قالت بابتسامة ساخرة وهي تبكي:

- خالي كداب صح، وأنا المفروض أصدق واحد خاين زيك!

ابتسمتُ في يأس، رفعت يدي بجهاز كشف الكذب، وقلت بهدوء:

- اسألي..

احترمت بكاءها، صمتُّ قليلًا ونظرت إلى الطريق الواسع في الشرفة، على الرغم من كل ما بيننا، لا أحتمل رؤيتها تبكي، قالت هي:

- انت كنت بتحبني بجد ولا بتمثّل؟

نظرتُ إليها بحنان، كل ذكرياتنا الجميلة تسير في أوصالي، قلت بابتسامة هادئة:

- حبيتك أكتر من دنيتي كلها.. ومش عارف أحب بعدك..

زاد بكاؤها، أمسكت رأسها في حيرة، لهذا لم أكُن أريد أن أكلمها، شكُّها يجعلها لا تعرف من تصدق، تلك الحيرة التي تعانيها تقتلني، قالت وهي تنظر إلي:

- انت أحسن بعدي؟ عايش أحسن ممَّا كنت معايا؟

أخذتُ نفسًا عميقًا، وأنا أعلم أن إجابة سؤالي ستقتل ما تبقى منا:

- لما سيبتك كان قراري.. ماحدش لعب في دماغي وقوّاني عليك.. ماحدش سيطر عليا زي ما أنت متخيلة.. قعدت فترة باضيِّش بعد ما مشيتي وباغلط كتير..

وأومأت برأسي إيجابًا متذكرًا تلك الرحلة الطويلة التي أوصلتني إلى هذا المكان:

- بس دلوقتي أقدر أقولك إني أحسن فعلًا..

بحركة لا إرادية ذهبت عيناها إلى النور الأخضر، منتظرة إياه أن يتغير.. لكن لم يتغير لونه..

طول حياتنا كنت صادقًا معها، صريحًا تمامًا في كل ما أشعر، وطول عمرها كانت تنتظر اللون الأحمر والشحنة الكهربائية..

بل كانت هي تلك الشحنة التي تؤلم كياني ظلمًا..

مسحت دموعها وهدأت قليلًا، قالت ما توقعته:

- انت ماجيتش غير عشان خايف من الفضيحة..

لأبتسم لأول مرة من قلبي، قلتُ بهدوء:

- أنا مابقاش فارق معايا فضيحة ولا شغل، ولا فارق معايا فعلًا أي حاجة ممكن تتعمل بعد كدا.. أنا جيت هنا عشان «آن» اللي انتِ شايفاها سبب خراب بيتنا هي اللي قالتلي إن من حقك إنك ترتاحي.. وتفهمي إنك كنتِ غالية.. وإني كنت بحبك.. بس إحنا فشلنا زي أي اتنين بيفشلوا..

كيف تعرف أنك في علاقة مسمومة؟

٢٤ - «كلنا سامُّون.. تختلف درجات السم وقوته واحتواؤه.. لكن في النهاية كل البشر سامون.. لو رأيت الشريك يبث سمه فيك ابتعد.. لو رأيت نفسك تبث السم في أحدٍ ابتعد.. العلاقة السليمة معادلتها: (لا ضرر ولا ضرار).. فقط احترام ومعرفة لذلك السم والابتعاد عن لمسه طول فترة العلاقة.. هكذا تنجح العلاقات»..

وقلت الفارق الوحيد الذي أدركته:

- بس اللي يفرق البني آدم الـ«toxic» عن كل الناس هو الأذى الفعلي يا «أسماء».. تدمير حياة بني آدم.. وأنا عمري ما هاختار إني أأذي واحدة قلتلها إن حضني هيفضل بيتها لحد ما أموت.. وخدي وقتك لحد ما الانتقام

اللي جواك يخلص.. هافضل صابر ومسامح لحد ماتحسي إنك أحسن..

وابتسمتُ بحنان مكملًا:

- انتِ إنسانة حلوة.. تفاصيلك صعب ألاقي زيها.. وهتعرفي تسعدي حد تاني.. انسي وعيشي حياتك.. خناقة الفلوس دي مش بتاعتي ولا بتاعتك..

وأكملت ما بدا قصيدة طويلة لا تنتهي، لكنني كنت سعيدًا أنني أتحدث أخيرًا بما بداخلي:

- عاوزة تكملي في الأذى؟ عاوزة تسيبي خالك يعيش في دور المحارب اللي بيجيبلك حقك؟ لو دا يرضيكِ كملي فيه.. هافضل عايش ومكمل وباحاول أعافر عادي جدًا..

وهززت كتفي قائلًا:

- أنا وانتِ أذينا بعض، ومن قبل حتى ما نتجوز.. انتِ حاولتِ تسيطري على كل تفاصيلي.. وأنا ضعفت واستسلمت عشان شايف إن مافيش أمل إن حياتي تبقى أحسن.. وإنك كفاية مستحملة مرضي فأستحمل منك أي حاجة..

وفجأة بعد جملتي تذكرت..

تذكرت الأمر التاسع الذي تركه «عيسى» من دون أن يقوله..

سرت قشعريرة في جسدي كله، وشردتُ قليلًا، ثم نهضت، نزعت عني لعبة كشف الكذب، قلت وأنا أنظر إليها برفق:

- أنا سايبك عشان جبت آخري.. كفاية أذى.. كفاية قهرة قلب.. كفاية وجع بُعدنا عن بعض.. وإننا لسَّه بنحاول نلصّم قلوبنا تعرف تعيش تاني..

ثم ابتسمتُ وأنا أتأمل عينيها الدامعتين الحائرتين، لآخر مرة في حياتي، وقلت:

- أنا آسف يا «أسماء» على كل حاجة وجعتك فيها.. أتمنى ييجي اليوم اللي تسامحيني فيه من قلبك..

وانصرفت، أسمع شهقات بكائها المكتوم خلفي..

مغلقًا صفحة من عمري كان لا بُدَّ أن تنتهي منذ زمن بعيد..

* * *



(٢١)

الأمر التاسع

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح واختفى

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مت، ولا وصلت للفلسفة؟

عجبي!

صلاح جاهين

جلسوا جميعًا في صالة السينما الواسعة..

كنا في مهرجان سينمائي في القاهرة للأفلام القصيرة والأفلام التسجيلية، استطاعت «سيرا» بعلاقاتها أن تدخل الفيلم في قائمة الأفلام المعروضة في المهرجان..

وقفت متوترًا في القاعة مرتديًا بدلتي الفخمة في أول يوم يُعرض فيه الفيلم، بجانبي تقف «سيرا» ترتدي فستانًا لامعًا وتمسك يدي..

«نسمة».. عم «غريب».. «محمود».. «جمال».. «ستتانا».. أبي وأمي وأختي.. «آن» و«سيرا» و«درية» و«شمس» و«ياسين»..

مرت ثلاثة أشهر منذ مواجهتي مع «أسماء»..

ولم أكُن لأصل إلى هنا من دون تلك المواجهة الأخيرة..

كانت آخر قيد لا بُدَّ من الانعتاق منه..

أشاروا إليَّ أنَّ وقت كلمتي قد حان، شدت «سيرا» على يدي، فذهبتُ وقدمي ترتجف حتى وقفت ممسكًا «ميكروفون» صغيرًا، تأملتُ كمَّ الناس الموجودين ليشاهدوا الفيلم وارتجفت يدي أكثر.. ابتلعت ريقي في خوف، ثم أغمضت عينيَّ..

نفس عميق..

وابتسمتُ مشرقًا، داخلي «عيسى الصغير» يبتسم في فخر ويضحك في جذل..

قلت مُرحِّبًا بالناس:

- النهارده هتشوفوا معايا فيلم تسجيلي.. مشروع ١٨ سنة من عمري.. أول فيلم وثائقي من إخراجي..

دوّى تصفيق بسيط من الحضور في قاعة السينما، رأيت ابتسامة فخر ترتسم على وجهي «آن» و«سيرا».. أشرت إلى المسؤول عن القاعة فخفتت الأضواء.. وصمت الجميع لحظات..

وبدأ الفيلم..

ليظهر على الشاشة السوداء اسم «براح.. رحلة الـ١٨»..

إخراج «عيسى الشواف»..

اخترتُ اسم «براح» للفيلم، شيء ما بداخلي كان يشعر دائمًا أن هذا هو أكثر شيء أحتاج إليه، بمعناه اللفظي أحتاج إلى مكان واسع خالٍ من مظاهر الحياة لأجلس فيه وحيدًا أستجمع شتات نفسي بعيدًا عن كل شيء، ومعناه المعنوي وهو إحساس حر طليق، ثم عندما بدأت أستقر على هذا الاسم.. اكتشفت ذلك التناقض العبقري فيه.. عندما قرأته معكوسًا..

اكتشفت أن معكوس حروفه هو «حارِب»..

اختلفت الحروف ليختلف معنى يدل على كل شيء بداخلي.. سعي دائم إلى الحرية المطلقة، واستمرار حرب لن تنتهي أبدًا..

ابتسمتُ وأنا أنظر إلى الاسم بفخر دامعًا..

ظلام تام..

ثم بدأ الفيلم بظهور وجه طفولي بريء، في عامه الحادي عشر، يملأ الشاشة وينظر إلينا في براءة ويضحك ضحكة واسعة بوجهه كله..

وجه «علي»، أخي الصغير..

تمت كتابة «علي عبد الآخر العسال، رحمه اللـه.. الأخ الأصغر.. ٢٠٠٢»، كتعريف في ركن الشاشة ليعرفه المشاهدون..

سمعنا صوت «عيسى الصغير» يقول لـ«علي» بهدوء:

- أديني سمعت كلامك ولعبت معاك زي ما لعبت مع «رنا»..

نظر «علي» حوله في فرحة صادقة، لم يصدق أنني سأشركه في مشروعي، كان في تلك المرحلة بين حرية الطفولة وقيود النضج، قال ببراءة:

- فين اللعبة؟
لنسمع صوت «عيسى الصغير» من خلف الكاميرا:
- هاسألك أسئلة وتجاوب عليها بصراحة.. عشان ترد عليها لما تكبر..
ليقول «علي» بلا مبالاة وهو ينظر حوله:
- أنا مش عاوز أكبر..
لتدوي ضحكة خفيفة في القاعة، من براءة «علي» وصدقه وهو يقولها..

* * *

بعد أن تركتُ «أسماء» ذهبت إلى السادس من أكتوبر أنا و«آن»..
ذهبت إلى «سيرا»..
ما إن فتحت الباب ورأتني حتى قلت بابتسامة:
- أنثى الهدهد الحيرانة..
ضحكت وعيناها تدمعان، فهمت «سيرا» من جملتي أنني تذكرت كل شيء، ذهبت تجاهها بسرعة حتى احتضنتها، استقبلتني بعناق طويل، بكت فيه كثيرًا، كأن هناك ثقلًا اختفى من فوق صدرها، قالت وسط بكائها:
- وحشتني قوي يا «عيسى»..
ضممتها لصدري أكثر باشتياق حقيقي.. ذلك الاستقبال الذي كان يجب أن أستقبلها به منذ أن أتت يوم عيد ميلادي..
مسحتُ على رأسها بحنان، قلت بعينين دامعتين وابتسامة:
- أنا رجعت خلاص.. «عيسى» صاحب عمرك رجع..
لقد تحملني الجميع كثيرًا..
حان وقت العودة الحقيقية..



* * *

استمر عرض الفيلم لينتزعني من ذكرياتي..
صوت «عيسى الصغير» يسأل «علي» الذي يبتسم في فخر وينظر إلى الكاميرا:

- ليه مش عاوز تكبر يا «علي»؟
قال «علي» بثقة وهو يشير إلى صدره:
- عشان أنا مش هاكبر.. الكبار وحشين وبيزعقوا ومش بيحبوا اللعب..
ضحكة ثانية وابتسامة واسعة على وجهي من ردّه التلقائي، ليقول «عيسى الصغير» بسرعة:
- قولي بقى أنا حطيتك في الفيديو دا ليه؟
قال «علي» بسعادة وهو يهز قدميه:
- عشان أنا اللي اديتك فكرة الفيلم دا.. شفت البرنامج بتاع الفيديوهات المضحكة دا على التليفزيون.. كان فيه طفل عنده عشر سنين بيكلم نفسه وهو عنده ٩ سنين.. كان فيديو دمه خفيف قوي.. قلتلك تعمله ليا وليك..

ليتطور الأمر في عقلي إلى كل تلك اللعبة الطويلة..

أظلمت الشاشة ثانيةً وبدأ الفيلم بعرض الأحداث بالترتيب..

بدأ الفيلم بأول كلام لـ«عيسى الصغير» معي، كان يظهر في نصف الشاشة والنصف الآخر أقف أنا عندما صوَّرتني «سيرا»، تأملت ردود فعل الجميع حولي، ابتسامتهم الحنون.. دموع عين أمي التي بكت بشدة عندما رأت «علي» والماضي بعينيها..

سمعت ضحكاتهم العالية وهم يرونني أرقص وأحاول أن أجاري مهارة «عيسى الصغير»..

نذهب من الأمر الأول إلى مشهد حوار «محمود الصغير» و«محمود الكبير».. لم يكُن لقاءً مثمرًا؛ لأن «محمود» لم يتغيَّر كثيرًا.. حقق معظم أحلامه.. يحتفظ في حياته بمن يجب أن يحتفظ بهم.. لكن ضحكته الصافية وهو يدرك أنه لم يتزوَّج بعد كما كان يتمنَّى في هذا العمر.. جعلت لقاءه جميلًا..

تتخلل اللقاء أحداث عثوري على الكنز الأول..

في المدرسة..
لأتذكر أنا ما حدث في الشهر الماضي وأنا أتأمل استمتاعهم..

* * *

حكت لي «سيرا» كل شيء يومها، وظللتُ أسمع من دون أن أقاطع..
منذ أن تركتها في الجامعة، أثبتت نفسها تمامًا، لتترك والديها في آخر سنة لها في الجامعة، واجهَتْ فترة قاسية من الألم، لتقابل «مصطفى»، الشاب الذي يحاول أن يبدأ شركة إنتاج، وقعا في حب بعضهما البعض، تزوجا وأنجبا «آسر»..

لتكتشف «سيرا» حقيقةً أخافتها من نفسها..
«سيرا» لم تحب حقيقةَ أنها أُم..

أزعجها ذلك الخاطر، ذهبت إلى أطباء نفسيين، هي تحب ابنها، لكن تلك الأمومة التي يُحكى عنها أنها في طبيعة كل أنثى لم تكُن بداخلها، تشعر أن ابنها قيد رهيب يذهب بمستقبلها الحر في اتجاه آخر تمامًا..

لأكتشف تشابهنا.. أنا سمي في مرضي واستسلامي.. وهي سمها في حلمها وأنانيتها فيه..

بطبيعة الحال، خانها «مصطفى» بعد فترة قصيرة من الزواج.. في البداية كان حريصًا على ألَّا يُظهر ذلك.. لكنه مع الزمن أصبح مهملًا ويعترف لها بخيانته صراحةً.. لتتفق معه أن علاقتهما منتهية؛ لهذا السبب قالت إنها منفصلة منذ عامين وليست «مطلقة».. اتفقَتْ معه أن يفعل ما يشاء من دون أن يمسها.. في النهاية ستظل هي تحقق حلمها بعيدًا عنه..

لتمر أعوام، تنجح «سيرا» عامًا تلو الآخر ويكبر «آسر»، ويحب «مصطفى» فتاة أخرى أراد أن يتزوجها، فاشترطت عليه أن يطلق «سيرا»..

لم تمانع «سيرا»، بل شعرت بالراحة، أكثر ما كان يؤرقها هو ابنها «آسر»..
ليتم سؤال «آسر»، الذي بلغ من العمر عشرة أعوام، عن إذا كان يريد

أن يعيش مع الأب أم مع الأم، ليختار «آسر» ببرود [illegible]
وزوجته الجديدة..

لتكتشف «سيرا» مصدومةً أنها بالفعل أمٌّ فاشلة..

الزوجة الجديدة عرفت أن تكوّن علاقة عميقة مع ابنها في الفترة السابقة،
و«سيرا» لم تلاحظ، ولم يشغلها إلا حلمها..

طُلِّقت من «مصطفى» وعاشت في فيلتها في أتعس فترات حياتها، في حيرة
بين حلمها وشوقها لابنها الذي لم تعُد تراه إلا يومًا واحدًا في الأسبوع..

لكنها لم تنسَ «عيسى» أبدًا..

لذا، كعادتها وجَّهت ألمها كله وتميَّزت في نجاحها أكثر، تابعتني من بعيد
على صفحات التواصل الاجتماعي، وانتظرت حتى يأتي الميعاد..

الثاني والعشرون من أبريل..

* * *

احتقن وجه أبي كاتمًا مشاعره، وهو يشاهد الفيلم معنا، في مشهد قبر
جدتي..

يتخلله لقاء له ولأمي مع ماضيهما..

ابتسم بحنين وتأثُّر، ونظر حوله كي يتأكد أن أحدًا لا يلاحظ.. لكنني
على الرغم من ظلام القاعة رأيته..

دائمًا ما ألاحظه، وهو لا يدري..

لقاء أبي مع ماضيه كان قصيرًا مقتضبًا، لا يختلف عن تركه رسالة لعيد
الميلاد: «أتمنى تكون بصحة كويسة».. وتلك الجمل، كما قلتُ من قبل، كل
شيء موضوع عليه علامة «صح» فلن يتغيَّر شيء، أعتقد أنني الوحيد الذي
ترتسم جانبه علامة «خطأ» كبيرة في مربع الابن المثالي..

أما أمي، فكان لقاؤها مع ماضيها كله أسئلة، تطمئن فيها على مستقبل
كلٍّ من أولادها.. سألَتْ عن أبي كأنها تطمئن عليه في محادثة تليفونية.. لم

يكُن أبي وأمي منذ ثمانية عشر عامًا يدركان الهدف من المشروع، لكنهما وافقا وقتها لأني كنت مريضًا..

اللحظة القاتلة عندما سألت أمي منذ ثمانية عشر عامًا عن «علي»، ابنها الثالث، لتنهار أمي أمام الكاميرا في البكاء..

وتخبرها أنه ببساطة قد مات..

يتخلل مشاهد قبر جدتي كلامهما..

ابتسم الجميع وهم يسمعون رباعية صلاح جاهين بصوته..

* * *

بكت «سيرا» بعد أن قالت كل ما في صدرها في ذلك اليوم، كانت جالسة على مقعدها، فنهضتُ أنا وركعتُ بجانبها واحتضنتُها، وبداخلي شعور يتصاعد.. شعور افتقدته منذ زمن بعيد..

ذلك اليقين..

ابتسمَت «آن» وهي ترانا، غمزَتْ لي فابتسمتُ، لا تفهم شيئًا تلك البلهاء، أبعدتُ «سيرا» قليلًا ونظرت إلى عينيها قائلًا بحنان:

ـ انتِ مش قادرة تحبي، صح؟

أومأت برأسها إيجابًا، قالت دامعة:

ـ مش قادرة أحب غير اللي فاضل جوايا..

فقلتُ أنا مبتسمًا:

ـ وأنا مش قادر أحب.. أنا زيك..

وقلت بهدوء وأنا أشعر براحة غير طبيعية:

ـ الحب مهلك.. الناس بتحوِّله لامتلاك وغيرة وشك ونقص.. واحنا اللي بينّا أكبر من كدا..

أومأت برأسها إيجابًا، ابتسمتُ وأنا أقول:

ـ بس إحنا مش هنعرف نطير من غير بعض.. أنا وانت عاملين زي الروحين اللي ماينفعش يفترقوا.. فهنعمل معادلتنا إحنا بس.. هنرضي الدنيا

اللي حوالينا بطريقة تخلينا نعرف نبقا إحنا من غير ما حد يعرف عنا حاجة..
وبدأت أسرد لهما فكرتي التي توصلت إليها لتحل كل ما نحن فيه..

* * *

ابتسم عم «غريب» في فخر، كنت أستند أنا و«سيرا» إلى الحائط بجانب كرسيه، رأيت زهوه وهو يشاهد ذلك المشهد الذي يصفعني فيه، يتخلله لقاؤه بينه وبين ماضيه..

لم أضع التسجيل الصوتي بيني وبين «حسام»، اكتفيتُ بجملةٍ منه حتى أُثبت أنني بالفعل ذهبت إليه، وعلى الرغم من أنه جزء من الرحلة، فإني شعرت أن المسامحة الحقيقية لم تكُن معه، هو مجرد صديق وذهب، المسامحة الحقيقية حدثت مع «أسماء»، وبما أنه هو و«أسماء» الآن صديقان وربما أكثر، شعرت أن إغلاق صفحتيهما هما الاثنين معًا هو أسلم حل..

نظر إليَّ عم «غريب» بفرحة وقال هامسًا رافعًا إصبعين:

- دي تاني مرة أبقى بطل في أفلامك..

لأقول بصدق:

- انت بطل حياتي كلها يا عم «غريب»..

كنت أعنيها حقًّا، ضحك في حنان وهو يتابع المشهد في استمتاع.. عندما أعطاني الكاميرا..

لننتقل على الفور إلى خامس الكنوز..

ويظهر الحصان يركض وراء النسر في حماس، خلفه أغنية «براين آدمز»..

* * *

قلت لـ«سيرا» التي كانت تنظر إليَّ ذاهلة بعد ما قلته عن خطتي، لأبتسم وأنا أقول بيقين:

- الأمر التاسع من «عيسى» كان إني أبقى معاكِ يا «سيرا».. إني أفضل جنبك بأي شكل من الأشكال.. إني عمري ما أسيبك تاني..

ونظرتُ إلى «آن» شارحًا:

..الأمر التاسع لوحدي..
- «عيسى» كان عارف إني لو رجعت هاعرف الأمر التاسع لوحدي..
عشان كدا حكى قصة الهدهد لـ«سيرا» في الجواب.. عشان كدا حكى أول مرة اتقابلنا فيها..
كلنا ندور في دوائر من الغربة، من الوحدة، من الاستهلاك المستمر لمشاعرنا..
كلنا نخاف، ونترك ذلك الخوف يتسلل إلى كل مشاعرنا، فنختبئ خلف جدران الأمان المصمتة..
لكن هناك شخصًا واحدًا يفهمك.. يدفعك دفعًا إلى أن تكسر تلك الجدران وتُخرج أفضل ما فيك.. ما فعله البشر أنهم خلطوا بين ذلك الشخص وبين الحبيب.. فأصبح كل من يحب ينتظر ممن يحبه كل هذا المجهود..
لكن هذا الشخص لم ولن يكون الحبيب..
بل هو الشخص الذي يختار أن يظل بجانبك ويدفعك إلى أن تخرج من ظلام خوفك دائمًا..
يتقبلك بكل عيوبك أيًا ما كانت.. وتتقبله أنت أيضًا..
ظلمت «أسماء» عندما ظننت أنها هذا الشخص، وظلت هي عمرها لا تعرف كيف تحبني، ولا تعرف كيف تفهمني، فظلت في دائرة الشك، لتدمرني وأدمرها معي..
قالت «سيرا» غير مصدقة:
- انت اتجننت؟ انت كدا هتقلب الدنيا عليك وعليّا..
قالت «آن» بقلق:
- و«أسماء» و«مصطفى»، وكل الناس اللي هتحب تنتقم..
قلت مُشيحًا بيدي وأنا أرفض كل هذا الخوف:
- كل دا مش مهم..
ونظرتُ إلى «سيرا» قائلًا:
- أنا وهي عارفين إننا مش بنحب بعض.. أنا وهي عارفين إننا مش خاينين.. يبقى طُز في الناس كلها..

واكملتُ وأنا أضرب على صدري برفق:
- أنا زهقت من كل حاجة بتشدني لتحت.. عاوز أبقى حر وبس..
لتبتسم «سيرا» وتنظر إلى «آن» الدامعة، لأبتسم وأنا أعرف أن ظني لن يخيب..
فأنا كنت وما زلت أكثر أهل الأرض إقناعًا..

* * *

بعد مشهد الحصان في فيلم الرسوم المتحركة، والتنقُّل بين الماضي والحاضر، وأنا يحيطني أصدقائي، وقراري الفعلي أن أبدأ في تصوير الفيلم، أتى لقاء أختي مع ماضيها.. رأيت ردود فعل الناس في تلك اللحظة التي غنَّى فيها الحاضر مع الماضي.. على الأغنية الرقيقة.. صفَّق «أحمد» و«جنى» بعد انتهاء الأغنية تشجيعًا لأمهما، لكنها منعتهما بخجل وهي تضحك، في حين بدا في عيني زوجها تأثُّر وانبهار جديد.. أمسك يدها وقبَّلها في حنان..
لأبتسم وأنا أتأمل كل ما يحدث حولي..
رقصي مع أصدقائي وأغنية «إيه الأساتوك ده» يتخلله لقاء «جمال» مع ماضيه..
قفزي في حمام السباحة، وشهقة الناس من لحظة الحرية التي ضفّرتها الأغنية التي كنت أسمعها وقتها..
ثم لقاء «سنتانا» مع ماضيها، تسليمي الكأس..
كنت أراقبهم بصمت وأنا أقف واثقًا..
كل أغنية، كل إحساس، كنت أقرؤه على وجوههم وأبتسم في سعادة..
حتى أتى مشهد لقاء «سيرا» مع ماضيها..
ليبدأ كل ما خططتُ له في التنفيذ..

* * *

مرت الشهور أسرع ممَّا أتخيل..
أكملتُ تصوير مشاهد الفيلم منفذًا خطتي، ذهبت وأخذت كل اللقاءات،

ونفذتُها مع أصدقائي ومع عم «غريب» و«ستتانا» وأبي، ودخلت المونتاج في استوديو أحد أصدقاء «سيرا»..

عندما كنت في مراحل التعديل في الفيلم، فتحت ذلك الفيديو الآخر، الذي تركه «عيسى الصغير» للشخص الذي حقق حلمه، ضحكت عندما فتحت أول فيديو، لأجد «عيسى الصغير» يقول بابتسامة:

ـ حققت أحلامك؟ انت بتضحك عليا ولا على نفسك؟ ارجع للفيديو بتاع الكئيب وبلاش استعباط..

ضحكتُ بشدة، فتحت بقية الأفلام لأجدها كلها قصيرة، لا يوجد فيها سوى كلمة واحدة:

«عُد للفيديو الثاني.. الذي فيه الأمر أو الكنز»..

لم أفعل شيئًا سوى أن عملت طول الوقت لأيام متواصلة حتى ينتهي الفيلم تمامًا..

وفي وسط عملي، وقع في يدي فيديو تركه «عيسى» في مكان لم أكُن سأتذكره إلا لو عدتُ إلى نفسي.. ذلك الفيديو الذي أعطاني كل شيء ينقصني..

فيديو «علي»، أخي الصغير..

لم يكُن مجرد فيلم..

كان توثيقًا لحالة لا بُدَّ أن يعرفها الجميع..

* * *

في لقاء «سيرا» مع ماضيها، وضعتُ لقطات سريعة لنا طول أحداث الفيلم، كيف كانت موجودة دائمًا، مزاحنا وإصرارها على الاستمرار، فيديوهات قديمة عندما كنا في الدراسة معًا..

حتى جاء مشهد قُبلتنا معًا على السطح..

المشهد الذي أعدت تصويره خصيصًا، كي أعرضه في الفيلم أمام الجميع..

بدأ المشهد بوضع «سيرا» الكاميرا على سور السطح، وتبدأ الأغنية نفسها التي رقصنا عليها، لنرقص عليها بالفعل، ثم نقبِّل بعضنا البعض قبلة طويلة،

في آخرها عناقا أطول..
لم يعُد هناك ما نخاف منه..
جاء الأمر التاسع:
«خدني العجب وسألت روحي سؤال: أنا مت ولا وصلت للفلسفة؟»..
لأنظر إلى «سيرا» التي نظرت إليَّ متوترة، فأمسكت يدها مطمئنًا..
ليعرض الفيلم لقطة على البحر، في ضوء النهار، مع موسيقى خلابة..
ثم تظهر «سيرا» وهي في فستان فرح أبيض، وأنا أرتدي بدلة سوداء،
حولنا «آن» و«شمس» و«درية»..
على شاطئ البحر..
مشهد زواجنا..
التفتَ مَن يعرفني في القاعة في دهشة، لمحتُ نظرة أبي الغاضبة، وشهقة أمي وهي تحدِّق مذهولة، قلق أصدقائي وابتسامة عم «غريب» الحانية وهو يقول:
- مبروك يا أولاد..
تبادلتُ مع أبي نظرة مِن نظراتنا التي تقول كثيرًا، رأى ثقتي، رأى إصراري ويقيني..
لقد اخترتُ يا أبي ما أراه صحيحًا، لا ما أخاف من غضبك عليه..
سامحني..
لا بد أن أحلِّق قليلًا من دون أن أخاف من قيود غضبكم، ومِن كل مَن اختار أمان الأرض..
أنا رجل وأخطأت، ولا بُدَّ أن أواجه أخطائي كرجل..
لا كشخص يخاف ويختبئ ويهرب من كل الحقائق أمامه..
في الفيلم، ذهبت لقطة فرحنا وسط قليل من أصدقائنا، لتذوب في السواد لحظات قصيرة، ثم يظهر وجه «علي» المبتسم ثانية ليملأ الشاشة، وصوت «عيسى الصغير» يسأله:

ـ حابب تقول إيه لنفسك كمان ١٨ سنة؟

فكر «علي» في ذلك السؤال الأصعب في عمره قليلًا، لكنه هز كتفه وقال بصدق:

ـ كتير قوي يا «عيسى» ١٨ سنة.. ماحدش بيضمن يعيش كل دا..

ارتجف قلبي للمرة الألف كلما سمعت جملته تلك التي قالها ببراءة وإحساس صادق، ضحك «عيسى الصغير» وهو يقول:

ـ بعد الشر يا عم.. انت كئيب ليه كدا؟ هتفضل موجود وهتشوف الفيلم معايا.. قولي بقى عاوز تقول إيه لنفسك بعد ١٨ سنة؟

فكَّر «علي» لحظات، ثم نظر إلى الشاشة كأنما عرف الإجابة فجأة، وقال:

ـ هابقى طيار عشان أفضل دايمًا طاير في السما.. وهافضل ألعب براحتي زي دلوقتي ومش هاكبر أبدًا..

ثم شرد قليلًا ونظر إلينا قائلًا بلهفة:

ـ هافضل كل يوم يعدي أعمل حاجة تفرَّحني... وآه صح.. كمان ١٨ سنة هاشوف فيلمك دا في السينما معاك..

دمعت عيناي لتختلط دموعهما بدموع عائلتي كلها، العائلة التي لا ينقصها إلا «علي» وجدتي وجدي لنكتمل..

«علي»، الأخ السليم بلا مرض، الذي ذهب تاركًا أخاه المريض يحيا في كآبته..

«علي»، الذي لم يُعطِه القدر ثمانية عشر عامًا مثلي ليكتشف نفسه، بل كان يعرفها أكثر منا جميعًا..

وينتهي الفيلم بمشهد الشرفة، في الماضي أنا وهي، وفي الحاضر أنا وأصدقائي نلوح عاليًا مودعين...

ظهرت كلمة «النهاية»، ليصفق الجميع تصفيقًا لم أتوقعه، ابتسمتُ وأن أمسح دموعي بسرعة قبل أن تعود الإضاءة، التفَّ حولي الناسُ مهنئين ومباركين لأبتسم وأردَّ المجاملات بمجاملاتٍ لا أذكرها..

حتى مر وقت بسيط ووجدت أبي يقف متأبطًا ذراع أمي ينظر إليَّ وإ

«سيرا» الواقفة بجانبي بهدوء..
رمقت أمي التي وقفت يبدو عليها الغضب، دموعها ظاهرة في عينيها، مما رأت، تنظر إليّ بلوم..
ابتسم أبي فجأة وقال بابتسامة حنون، مازحًا معي كعادتنا:
- مش هادفعلك حاجة في الطلاق دا..
نظرتُ إلى «سيرا» بابتسامة، ثم قلت بهدوء:
- مش هيبقى فيه طلاق..
وقلت بداخلي: لأنه لا يوجد زواج في الأساس..
كل مشاهد الزواج في الفيلم كانت مزيَّفة تمامًا..
تلك كانت خطتي البسيطة، عندما يرى جميعُ محبي «سيرا» وهي تقبلني داخل فيلم، فزواجنا المزيف في النهاية سيجعل الأمر كله ينتهي بلا ضوضاء..
لو اختارت «أسماء» الانتقام وحاولت أن تفضح الدنيا، سيعرف الجميع أن تلك كانت لقطات من فيلم تم عرضه بالفعل.. سيظن الجميع لفترة طويلة أننا أنا و«سيرا» زوجان.. ولا أعتقد أننا سنفترق أبدًا.. ما دام بيننا حلم مشترك..
لم أكُن أنا أو «سيرا» على استعداد نفسي للزواج الآن..
فما بيني وبين «سيرا» ما هو إلا صداقة عبرت حدود الحب بمراحل..
وهذا ما لن يفهموه أبدًا..
قال أبي بهدوء وهو يصافحني:
- مبروك.. الفيلم كويس.. وربنا يكرمك في حياتك..
وصافح «سيرا» بهدوء يكتم خلفه أعاصير كعادته:
- مبروك يا بنتي.. خدوا بالكم من بعض..
وانصرف خارجًا من القاعة خلفه أمي الباكية من دون كلمة واحدة..
ساد صمت حرج، اقتربت «سنتانا» واحتضنتني، همست في أذني وقالت:
- كان نفسي أدرَّبك لرقصة فرحك..
ربتُّ على كتفها وأنا أرمق «سيرا» التي ابتسمت لي في سعادة حقيقية..

أمامنا طريق مرهق وطويل من التحليق عاليًا في سماء الحرية..
من دون ماضٍ، من دون ذكريات كريهة..
من دون قيود..

* * *



ختام

جلستُ أمام الكاميرا، بعد مرور تسعة أشهر، في شقتي الجديدة على سطح فيلا «سيرا»، أنظر إلى «سيرا» التي وقفت خلفها تبتسم في فرحة، قلت وأنا أنظر إلى الكاميرا:

ـ ازيك يا «عيسى».. المفروض دلوقتي يبقى عيد ميلادك الـ٥٤.. بس أنا لسَّه ٣٦ سنة..

واعتدلت في مقعدي قائلًا:

ـ المفروض بقيت مخرج معروف قوي.. إحنا رايحين نستلم جايزة أحسن فيلم تسجيلي في المهرجان.. يعني مالكش حجة.. بقيت مخرج وواخد جايزة كمان..

ونظرت إلى الكاميرا مشيرًا إليها بإصبعي:

ـ وعارف إن حتى لو المرض هجم عليك، هتعرف تسيطر عليه.. إحنا رجعنا نتعالج من دلوقتي.. وطول ما انت معاك «سيرا» فأنا مش خايف عليك.. هتعرف تخليك تسند عليها لحد ما تقوم تاني.. وهي هتعرف تسند عليك عشان تقوم تاني..

وأكملتُ بابتسامة:

جاي أقولك إن «آن»
- المرة دي مش هيبقى فيه خريطة ولا كنوز.. جاي أقولك إن «آن»
و«ياسين» اتخطبوا.. «آن» عرفت أخيرًا تسلِّم نفسها وتثق في حد واتجوزوا..
الباقي بقى اتشغل ومشي.. «درية» بقت مذيعة حلوة.. و«شمس» بقت
رسَّامة جميلة والدنيا اتشغلت بيهم.. أبوك وأمك صالحوك بعد ٤ شهور..
وبقينا عايشين في شقة جديدة مافيهاش ذكريات وحشة..

وابتسمتُ ابتسامة هادئة وأنا أقول:

- وطليقتك اتجوزت «حسام» صاحبك.. ربنا يكرمهم ببعض ويعرفوا
ينسوا وجع الدنيا سوا..

وأخذت نفسًا عميقًا وأنا أقول:

- والنهارده باعزمك على العرض الأول لفيلمي الجديد.. عم «غريب»
بطَّل يخاف وفتح شركة إنتاج.. وأنتج الفيلم بتاعي كله.. أنا اللي كاتب
السيناريو ومخرجه.. و«سيرا» هي البطلة.. دعواتك ينجح..

وأشرت إلى الكاميرا قائلًا بابتسامة:

- ولو مانجحش عيد إنتاجه وانت مخرج مشهور قوي كدا..

ضحكت «سيرا» في حنان، فأشرت إليها أن تأتي، عقدت حاجبيها وأتت
لتجلس بجانبي وتنظر إلى الكاميرا، قلتُ وأنا أربت على كتفها:

- مش كل حاجة في الدنيا بتستمر بعلاقة الحب.. فيه ناس اتوجدوا في
حياتنا عشان يخلونا أحسن.. من أول حد زي عم «غريب» لحد «سنتانا»..
ابعد عن أي حد بيقيِّدك مهما كان مين.. أي حد يقولك ماينفعش.. أي حد
يحاول يسيطر عليك.. ماتفضلش غير مع اللي عاوزك أحسن وبيشوف النور
جواك يا «عيسى» يا كبير قوي..

وأشرت بيدي بالسلام كعادتي..

وابتسمت ابتسامة مختلفة وأنا أضغط على الريموت لأوقف التسجيل..
كانت رحلة طويلة..

رحلة من قلب الواقع، لا توجد فيها لحظات ذروة ولا نهايات كاملة
كما توجد في نهايات الروايات والأفلام..

نهايات الواقع عادية.. بلا إبهار..
لكنها تعطيك لحظات قليلة لتشعر بقليل من البراح..
براح تتنفس فيه نفسًا حرًّا وتنظر إلى اللاشيء.. وتعيش في قليل من السلام النفسي..
حتى تستطيع أن تنهض.. وتكمل في حربك المتواصلة للتحليق وسط كل تلك الأعاصير والأمطار التي يلقيها في وجهك الواقع..
فما اكتشفته أن الواقع ليس بهذا القبح..
هو فقط يختبر قدرة الإنسان على التحليق دائمًا..
إذْمَا يُحلِّق..
..

* * *

تمت بحمد الله

شكر خاص

بعد ثلاث سنوات كاملة، تغيَّر فيها كثير من الأشخاص في قائمة الشكر.. رحل منهم من رحل وبقي من بقي.. توقعتُ أن أكفَّ عن تلك العادة إلى الأبد.. حتى لا يصبح الشكر بمثابة ذكرى أليمة لمن غادر..
لكن الزمن يثبت لي أنه بعد مرور ثلاث سنوات ما زلتُ كما أنا أريد أن أشكر الجميع:

عائلتي الكريمة: أحمد صادق، ماجدة الباز، سها أحمد صادق، ونهى أحمد صادق.. أنتم السند والأمان والحياة بأكملها..

الأصدقاء الأعزاء: أحبكم لجنونكم واختلافكم وأعلم أننا سنسير في الدنيا لا يحتمل جنوننا سوانا.. كلكم قرأتم الرواية وساعدتموني في رحلتها الطويلة بإخلاص وصبر.. أتمنى أن تدوم الصداقة والمحبة وألَّا يفرِّقنا الزمن أبدًا..

الأصدقاء من الكتاب الأعزاء

عماد العادلي: مكانك كبير عندي، قراءتك للرواية وسط كل مشاغلك وملحوظاتك الرائعة جعلتني أثق بنفسي أكثر وأكثر.. أنت أستاذي وأخي الكبير..

أحمد مراد: الطاقة المحركة دائمًا للأمام، شكرًا على كل شيء فعلته من أجلي، وتشجيعك المستمر حتى انتهيت من الرواية..

أحمد القرملاوي: تربطنا كثيرٌ من الروابط، لكن دعمك دائمًا ما يجعلني

أستمر. ولن أنسى ما فعلته في آخر ليلة في مراجعة الرواية..

أحمد عبد المجيد: هناك أناس نغيب عنهم فتراتٍ ثم نعود لنكتشف أنهم أقرب من الوريد.. شكرًا لكل كلمة جعلتني أعمل أكثر حتى أطوِّر من نفسي..

شيماء الماريه: الصديقة الدائمة والمعنى الحرفي للأخوة النادرة.

شيرين سامي: شكرا لكل الآراء المهمة التي ساعدت في تعديل العمل.

د. آلاء زهران: سعدت بملحوظاتك المهمة ومساعدتك ومحبتك الرائعة.

بسمة الخولي: شكرا للدعم الدائم والعطاء المستمر.

محمد عبد القوي مصيلحي: الغائب الحاضر والصديق الذي أعشقه.. أنقذت كل شيء في اللحظة الأخيرة.. يعلم الله مدى محبتي الصافية لك..

وأخيرًا:

القراء الأعزاء.. أنتظر آراءكم وانتقاداتكم وأسئلتكم.. في هذه الرواية بالأخص لولا كلماتكم المشجعة في الرسائل والتعليقات.. كنت سأستسلم لأشياء كثيرة تجعلني أتأخر كثيرًا.. لكن تعليقاتكم جعلتني أشعر بالحياة.. فشكر خاص وكبير لكم.. وأتمنى دائمًا أن أكون عند حسن ظنكم وألَّا أخيِّب آمالكم أبدًا..

محمد صادق

الحسابات الرسمية للتواصل مع الكاتب:

Facebook : @Mohamed Sadek

Instagram: @_mohamedsadek_

Twitter: @mohamed__sadek_